الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 389
أيار: 2017

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

اشترك في مجلة الثقافة الجديدة منذ العدد الأول 2000 وابدأ بالحصول على (100) هدية مجانية من دار الرواد المزدهرة (50) هدية مجانية من مجلة الثقافة الجديدة.
للاشتراك يرجى الاتصال بالعنوان أدناه:

رقم الحساب: 11153
MBIVIQBA :السويفت كود

رقم الحساب: 30721
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Althakafa Aljadida Magazine

البريد الإلكتروني:
thakafajadida@hotmail.com
البريد الإلكتروني:
thakafajadida4u@gmail.com

الموقع الإلكتروني:
http://www.althakafaaljadeda.com
للإعلان في مجلة الثقافة الجديدة - منصور بنك للاستثمار - بغداد.
للاشتراك في مجلة الثقافة الجديدة.
العدد الحالي: 781
عدد المشتركين: 1288

* يتم توزيع المجلة مجانا على المشتركين في المحافظات العراقية كافة ويتم إرسال المجلة بالبريد المسجل إلى المشتركين خارج العراق.
* سعر النسخة الواحدة 4000 دينار عراقي.
* للإعلان في المجلة يرجى الاتصال بالعناوين أعلاه.
* تحتفظ المجلة بحق قبول أو رفض أي إعلان لا يتناسب مع سياستها.
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- " الخصخصة"... سجالات حول مفهوم ملتبس ..... صالح ياسر
21- السُبُل المَعرفية لمعالجة اخفاقات النظام التربوي العراقي ..... فائق يونس المنصوري
28- التداعيات الاجتماعية والنفسية لأزمة الموصل – رؤية استشرافية- ..... اسماء جميل رشيد
41- حوكمة الحكومة وإمكانية مكافحة الفساد الاداري والمالي ..... حاكم محسن محمد الربيعي
50- علاقات الإنتاج.. مدخل في المفاهيم والمنهجية ..... مجيد مسعود
54- دور القائد في صنع السياسة الخارجية ..... أثير ناظم الجاسور
61- مشاكل أنهار العراق وأثرها الاقتصادي ..... عادل عبد الزهرة شبيب

نصوص قديمة

68- في السياسة التربوية ..الواقع، الاثار، مهام البديل ..... غانم حمدون

نصوص مترجمة

80- من (أرشيف الكومنترن) رسالة رقم 10 ..... عبد الله حبة

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

90- هل يمكن ترميم ثقافة الاستبداد؟ ..... جمعة الحلفي

92- (ملف عن الشاعر الراحل مهدي محمد علي)

دراسات نقدية

93- البصرة جنة البستان ..محاولة في التجنيس الروائي ..... جميل الشبيبي

100- مهدي محمد علي : جنة البستان.. ومختارات شعرية ..... جاسم العايف

107- وظائف المخيلة في شعر مهدي محمد علي ..... مقداد مسعود

111- مهدي محمد علي .. الذاكرة والغياب ..... ضياء الثامري

شعر

120- قصائد.. في ذكرى مهدي محمد علي ..... مجيد الموسوي

122- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة: جودت جالي

لوحتا غلافي العدد: للفنان وليد شيت

كلمة العدد

الجامعة العراقية.. بين أزمة الراهن ورهانات المستقبل

كما معروف، شهدت الأشهر الاخيرة احتجاجات طلابية في عدد من الجامعات، وخصوصا في جامعتي واسط والقادسية. جرى خلالها اطلاق الرصاص داخل الحرم الجامعي من قبل حمايات مدججة بالسلاح لمسؤولين وقادة سياسيين، اضافة الى اعتقال طلبة وفصل بعضهم، الأمر الذي يستوجب الاستنكار والإدانة بقوة وشدّة. وجاءت هذه التطورات ارتباطا بمطالب طلابية مشروعة تتعلق بظروف حياة الطلبة وتراجع متسارع في العملية التعليمية وتدهور اوضاع المؤسسات التعليمية للدولة في جميع المراحل، هذا اضافة إلى التجاوزات على استقلالية الجامعات والتضييق على الحريات الأكاديمية والتوسع في خصخصة التعليم.

نشير الى الملاحظات في اعلاه، وفي الذهن حقيقة أن الجامعة قد أصبحت، في عالمنا المعاصر، واحدة من أهم وأخطر المؤسسات، نظرا لما يناط بها من مهام تربوية وعلمية وسياسية واقتصادية متعددة... من بينها وفي مقدمتها، ربما، تكوين وتأهيل العنصر البشري والنخب الثقافية، ورفد مختلف القطاعات الإنتاجية والخدمية في المجتمع بما تحتاجه من قوى بشرية مؤهلة للإسهام في عملية التنمية ومشاريعها.

وعلى الرغم من الاستثمارات الموظفة، فإن الجامعة العراقية – في الوقت الراهن وليس وحده – لا تستجيب لمتطلبات اللحظة الراهنة أو المستقبل، ولا تتماشى مع ما مرَّ ويمرّ به المجتمع العراقي من تطورات اجتماعية – اقتصادية ثقافية سريعة وعاصفة. كما أنها أصبحت نسقا شديد التعقيد يضم مؤسسات متشظية وغير متجانسة تتسم بانعدام التنسيق والترابط بين مختلف تخصصاتها، وتخلف المناهج وطرق التدريس المعتمدة وبعدم تحرر قطاع من الهيئة التدريسية من نزعات المحافظة وتأبيد الواقع، وبغياب روح المبادرة، وبتباطؤ وبيروقراطية الأجهزة والهياكل الإدارية، التي أصبحت في معظمها متقادمة، وفي حاجة إلى إعادة هيكلة تستهدف عصرنتها وتفعيلها لتكون بمستوى تحديات الواقع الجديد محليا وعالميا؛ حيث التطورات العلمية والتكنولوجية العاصفة.

أزمة الجامعة.. أم أزمة النظام الطوائفي/ المحاصصي؟

ومن جهة أخرى، فإن أزمة الجامعة مسألة لا يمكن فهمها، بالعمق الكافي، إلا في إطار ربطها بالأزمة البنيوية التي يعيشها النظام التربوي – التعليمي في بلادنا حاليا، والذي يحتاج الى اصلاح جذري، وكذلك بشروط وآليات نظام محاصصي/ طوائفي/ اثني مأزوم ومخترق بالعديد من عناصر ومظاهر التأزم والتفكك، على صُعد ومستويات مختلفة ومتعددة.

وبعيدا، عما تروجه بعض الخطابات المنطلقة من مقاربات تحصر أزمة النظام التربوي بجوانب تقنية صرفة، يمكن القول إن أزمة الجامعة العراقية هي – كما أزمة النظام المحاصصي/ الطوائفي الحاكم – ازمة بنيوية مركبة ومتعددة الأبعاد. وتتجلى هذه الأزمة في كونها لم تقم ومنذ عقود على رؤية واضحة المعالم لأهدافها وتوجهاتها ووظائفها العلمية والتربوية والاجتماعية. وقد ساعد على ان تأخذ الجامعة العراقية هذا المسار، هيمنة نظم دكتاتورية متعاقبة ونظام ريعي وعدم التمكن من بناء دولة وطنية ديمقراطية عصرية حاملة لمشروع مجتمعي واضح المعالم والأبعاد، يراهن على الجامعة باعتبارها قطبا للحداثة والديمقراطية والتقدم المجتمعي.

وفي إطار السيرورة الصعبة والمعقدة لتطور الجامعة العراقية تنامت أزمتها وتفاقمت عبر السنين، مكرسة في ذلك بتراكم مجموعة من المشكلات والمصاعب والعوائق التي اعترضت هذه السيرورة من بينها: تراجع القدرة الاستيعابية

للمؤسسات الجامعية، والتناقض بين مدخلات ومخرجات العملية التربوية، مما أدى الى تضاؤل فرص ادماج الخريجين الجامعيين في سوق العمل، وبالتالي تنامي ظاهرة بطالة هؤلاء، الأمر الذي يمكن اعتباره بداية القطيعة بين الجامعة وبين بعض مكونات محيطها الاجتماعي – الاقتصادي والثقافي، يضاف إلى ذلك ما عرفته الجامعة، وخصوصا فترة بعد 2003 وليس وحدها، من توترات وصراعات سياسية وثقافية وفكرية عامة، وما عانت منه من محاصصات وحروب طائفية.. الخ.

الحراك الطلابي.. رد فعل طبيعي على واقع متردٍ

ولعل الحراك الذي تشهده الجامعة وما يقوم به الطلبة من حركات احتجاجية بين حين وآخر، تنبغي قراءتها باعتبارها ردود فعل تتمرد على واقع متردي. وهي إذن بمثابة تعبيرات حقيقية عن طموحات وآمال تريد جعل الجامعة ميدانا للفكر الحر، لا يجوز تقييدها بانتماء عقائدي او ايديولوجي محدد يخضعها للشعار العتيد: "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة"! او أي غطاء آخر بل قطب جاذب ومحرك للتجديد والتغيير والتنمية والعصرنة. فقد لاحظنا وبالملموس كيف تم التعامل مع هذه التحركات ومع المشاركين فيها، فقد تم النظر إليهم، من زاوية المقاربة الامنية اللعينة، كمتمردين أو مشاغبين مزعجين للنظام المحاصصي، ومحاصرتهم بترسانة من التدابير القمعية (ضرب المتظاهرين، الاعتقال، التوقيع على تعهدات بعدم القيام بأية نشاطات في المستقبل، مراقبة تحركات النشطاء منهم، وتوجت أخيرا في أحداث الديوانية بفصل مجموعة من طلبة الجامعة هناك تحت تهم باطلة). وبقرار الفصل هذا تكون بعض السلطات الجامعية في هذه الجامعة، قد خضعت لمنطق المقاربة الأمنية، متخلية بذلك عن دورها التربوي، لتسجل بذلك سابقة "سيخلدها" التاريخ وسيشار بالبنان لمن اقدم عليها!!

هكذا اذن، وبدلا من أن يتم تفعيل مبدأ استقلالية الجامعات وصيانة الحريات العامة فيها، خصوصا حرية الطلبة في التعبير عن مطالبهم وطرح مشاكلهم، وفي اختيار ممثليهم، وعلى ترسيخ ثقافة التعدد واحترام الرأي الآخر، ونبذ الاقصاء والتهميش، ورفض التعصب والتطرف بكافة أشكالهما واحترام الحريات الأكاديمية، ها هي الجامعة تعاني اليوم من هيمنة بعض المجموعات والقوى المتحاصصة التي تحاول أن تجعل من الجامعة معقلا مطلقا لها، ومنطلقا لترويج طروحاتها ومواقفها وفرض "رؤيتها" للعالم على الآخرين حتى لو تطلب الامر استخدام السلاح!

احد المخارج من أزمة الجامعة العراقية.. إعادة بناء العلاقة مع محيطها

ولا بد من الاشارة ايضا الى ان العلاقة المتبادلة بين المؤسسة الجامعية ومحيطها ما تزال ضعيفة، بل منعدمة في العديد من الاحيان. إن هذا هو ما يؤكد كون أزمة الجامعة ليست أزمة خاصة بها، وإنما هي أزمة مركبة تطول النسق الاقتصادي – الاجتماعي برمته. فما يخترق هذا النسق والجامعة من علاقات من قبيل: تضارب المرجعيات، المحسوبية والزبائنية والقرابة، والتهميش واعتماد المحاصصة في التوظيف، أزمة المناهج، الترقيات العلمية... الخ، كل هذا أصبح يشكل عوائق حقيقية أمام انفتاح المؤسسة الجامعية عموما على محيطها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، ليجعل من أزمة النظام التعليمي، وخصوصا الجامعي منه، أزمة مركبة متعددة الأبعاد.

ولتجاوز هذا الواقع المُرّ لا بد من اعتماد استراتيجية تقوم على قيم المواطنة وتعزيز الفكر التنويري والجدل الفكري الحر، الأمر الذي يتطلب اعادة النظر في نظام ومناهج التعليم وطرق التدريس بما يتفق وتأمين مستلزمات التقدم العلمي والمادي وإرساء قاعدة تعليمية متطورة وتشجيع البحث والابتكار وحث الطالب على التفكير النقدي واعتماد العقل الناقد كبديل عن العقل الناسخ الذي هيمن لقرون، وربط العملية التعليمية بعملية التنمية الشاملة في البلاد، وضمان وضع الطالب في مركز العملية التربوية، وترسيخ احترام الهيئات التدريسية ودورها، وضمان الاجواء السليمة لإشاعة العلم والممارسة الديمقراطية في الحياة الجامعية.

ومن جهة اخرى، فان الاستثمار في قطاع البحث العلمي والتقني من الأمور التي لا تحتمل التأجيل تحت أية ذريعة كانت، لأنه يشكل بالإضافة إلى تربية وتكوين الكوادر، أحد الأعمدة الضرورية لأية سياسة تنموية. ويمكن للجامعة العراقية أن تقوم بمهمتها كقاطرة للتنمية شريطة أن تخضع تصوراتها وفلسفتها ومناهجها وآليات اشتغالها وممارساتها إلى إصلاح جذري شامل وليس شكليا.

وأخيرا، لا بد من التأكيد مجددا على وجوب مراعاة خصوصية الجامعة ودورها في المجتمع من قبل جميع الشركاء الاجتماعيين - برلمانا وحكومة وأحزابا سياسية ومنظمات المجتمع المدني - ففي حالة فقدانها لاستقلاليتها، وعدم ابقائها مفتوحة على كافة العراقيين والعراقيات من دون قيد او شرط، ستعجز عن اداء رسالتها المهمة والمؤثرة في المجتمع، وفي إعداد الكادر المؤهل والمسلح بالعلم والمعرفة والثقافة.

مقـــــالات

"الخصخصة" ... سجالات حول مفهوم ملتبس بين المقاربة العلمية والمقاربة الايديولوجية

د. صالح ياسر
باحث اقتصادي

مدخل

بداية، يتعين الاشارة الى أنه ليس هناك من مفهوم ثابت وجامد وناجز وقابل للاستخدام في كل زمان ومكان، حتى تلك المفاهيم التي تبدو لنا كذلك. فالمفهوم مرتبط بتاريخ نشأته، أي بالمشكلات المطروحة في وقت نشوئه، كما هو مرتبط بالاشكاليات النظرية التي رافقت هذه المشكلات أي بنوعية المناظرة الفكرية التي دارت حول المشاكل المطروحة والطريقة التي حاول بها المفكرون مواجهها. فهو بالضرورة ابن بيئة تاريخية اجتماعية محددة وهو ابن فكر محدد أيضا. ثم إن المفاهيم لا تولد في النظرية فقط وعبر التفكير أي لا يستل واحدها من الآخر بصورة منطقية ورياضية، ولكن ظهورها وتطورها يرتبطان بالصراع الاجتماعي، أي بنوع من الاستخدام الاستراتيجي لها. ويبدو أنه ليس هناك من مفهوم تنطبق عليه كل العوامل التي تجعل منه مفهوما ديناميكيا جدا ومتحولا وملتبسا في الوقت نفسه أكثر من مفهوم الخصخصة.

فيما يتعلق بالجدل بشأن ضرورة وصحة سياسة الخصخصة في حد ذاتها، بين المؤيدين والرافضين لها؛ اعتمد المؤيدون على أنها سياسة متبعة في عدد كبير من بلدان العالم وأنها "حل ضروري" لمواجهة تردي أداء القطاع العام وانتشار الفساد فيه، بينما أكد الرافضون أن هذه السياسة "فرضت" على العديد من البلدان المدينة من قبل الدول الدائنة لها ومن قبل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذين يعملان كوكيلين للدول الدائنة. وان انتشارها لا يعني صحتها. كما أن عملية فرضها اتسمت بطابع آيديولوجي تعسفي لم يراع الظروف الاقتصادية والاجتماعية لكل دولة، حيث تم بيع أفضل الشركات الرابحة في عملية الخصخصة وبالتالي فإن الشركات متردية الأداء لم تكن هي المقصودة بالخصخصة. ويلح الرافضون على أن الخصخصة انطوت على مستوى مروع من الفساد، ثم أن التعامل الأفضل مع القطاع العام هو إصلاحه ومنع الفساد فيه وليس إهداره. كما انصب الجدل أيضا حول أفضل الآليات لتنفيذ سياسة الخصخصة ومنع الفساد فيها.

ولا بد من الاشارة الى ان الخلاف ما بين المؤيدين والمعارضين لعملية الخصخصة

ليس شكليا إذا فهمناه بالعمق، بل انه يتعلق بأسئلة مهمة تحتاج الى إعمال العقل للإجابة عليها. ومن بين هذه الاسئلة (وليس وحدها طبعا):

• هل فشلت حقاً قطاعات الدولة من أداء مهماتها؟ وأين تكمن الأسباب؟

• وهل يمكن لعملية الخصخصة والقطاع الخاص أن ينتشل اقتصاديات ضعيفة ومتدهورة ومتخلفة بالدول النامية من الركود والفساد والانهيار؟

• وهل أصبحت الخصخصة و"الإصلاحات الاقتصادية" وفق منظور صندوق النقد الدولي والبنك الدولي هي القدر و"الحلم المنشود" للدول الفقيرة؟ أي هل هي ضرورة لا مندوحة منها ام مجرد خيار من جملة خيارات؟

هذا مع العلم ان مصطلح "الاصلاحات الاقتصادية" هو مفهوم "معاصر" بدأ استخدامه في أوائل الثمانينات من القرن العشرين كبديل أو كرديف عن مفهوم "التنمية Development". وكان أول من استعمل هذا المفهوم – أي "الاصلاحات الاقتصادية" كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في تقاريرهما "البريئة عادة"، وسرعان ما سرى المفهوم كالنار في الهشيم، في تقارير ومذكرات الحكومات ووسائل الإعلام، وكذلك الدوائر الأكاديمية ومراكز البحوث وغيرها.

يتعين علينا، إذن، ونحن نسعى لضبط اشكالياتنا، أن نقوم بضبط المفهوم أولاً. وينطرح هنا سؤال:

ما هي الخصخصة privatization؟ (1).

ينبه التداول الواسع لمفهوم الخصخصة في الخطاب المعاصر، وخصوصا في الخطاب النيوليبرالي، الى ضرورة العمل على المستوى المفاهيمي لتأصيل المفهوم عبر اعادة صياغته وتحديد مدلولاته النظرية والعملية، مما يستدعي رصد مكوناته المعرفية، والعودة الى الفضاء الزماني الذي شهد ولادته، ورسم الملامح العامة للتطورات والتمايزات التي طرأت عليه في سياق الفكر النيوليبرالي (2).

منعا لأي التباس لا بد من الاشارة، في البداية، الى كثرة تعريفات "الخصخصة" والتي تباينت من باحث لآخر، فاختلفت التوجهات في تعريفها.

فمنهم من تناولها على المستوى الجزئي Micro ومنهم من تناولها على المستوى الكلي Macro، ومنهم من يراها وسيلة ومنهم من يراها غاية. ونحاول هنا اجراء جردة سريعة لبعض التعريفات المطروحة، والهدف من وراء ذلك ليس مشاكسة كاتب بعينه، فليس الأمر خلافا فرديا مع أي كان بل نسعى هنا لاستنطاق التعاريف المختارة من اجل كشف المسكوت عنه أو "المنسي" بشكل عفوي أو مقصود! ولا ينبغي أن يتوقف الجهد هنا عند الحدود الظاهرية لنصوص هذه التعاريف، بل يتعداه الى مساءلتها (أو قل مشاكستها) عن المضامين الفعلية، لكي تكشف عن حقيقتها، أي فتحها نحو أفق المساءلة والنقد.

سجالات حول المفهوم

1. الخصخصة عبارة عن عملية تحويل الملكية العامة الى القطاع الخاص!

هناك من يعرف (الخصخصة) على انها عملية نقل الملكية. ويقصد بها هنا على انها "تحويل الملكية العامة إلى القطاع الخاص،

إدارة او ايجارا أو مشاركة أو بيعا وشراء في ما يتبع الدولة او تنهض به او تهيمن عليه، في قطاعات النشاط الاقتصادي المختلفة أو مجال الخدمات العامة" (3).
ويلاحظ على هذا التعريف قصوره في الاحاطة بكل أبعاد وأغراض الخصخصة والنظر إليها على أنها مجرد نقل للملكية من القطاع العام الى القطاع الخاص. كما ان هذا النوع من التعاريف يحمل في طياته وجوب التخلي الكلي عن القطاع العام وترك الباب مفتوحا أمام القطاع الخاص للتصرف في جميع أوجه النشاط الاقتصادي.
والواقع انه وعندما يجري الحديث عن الخصخصة – باعتبارها عملية نقل الملكية – فإن الامر أبعد من اجراء حقوقي – شكلي بل هو عملية مزدوجة الطابع. فمن جهة هو تعظيم الملكية الخاصة لوسائل الانتاج، ومن جهة اخرى تحجيم الملكية الاجتماعية لهذه الوسائل، الأمر الذى يترتب عليه انتقال الادارة الرئيسية للإقتصاد القومي الى ايدي القطاع الخاص وإعمال آليات السوق واطلاق قوى العرض والطلب. وبالتالي تمكين رجال الاعمال من السيطرة على مقدرات الاقتصاد الوطني، وتخصيص الموارد الانتاجية بين مختلف الانشطة الانتاجية بما يعظم العائد الاقتصادي الخاص (الفردي) لرجال الاعمال في الاجل القصير، على حساب العائد الاجتماعى للإقتصاد الوطني في الاجل الطويل. بهذا المعنى فانه لا بد هنا من النظر الى عملية نقل الملكية بمعناها السياسي/ الطبقي وليس بمعناها الشكلي – الحقوقي، لأن عملية النقل هذه يترتب عليها اصطفاف طبقي – سياسي جديد بكل ما يحمله ذلك من استحقاقات.

2. الخصخصة مجموعة من السياسات !

بالمقابل، هناك من يرى ان الخصخصة لا تقتصر على مجرد بيع مؤسسات القطاع العام الى القطاع الخاص، بل إنها أوسع من ذلك لتشمل "مجموعة السياسات المتكاملة الهادفة التي تحقق التنمية للمجتمع وذلك بفكر ومبادئ القطاع الخاص وآليات السوق والتخلص من القيود والمعوقات التي يتميز بها القطاع المملوك للدولة" (4).
هذا التعريف يهتم بالخصخصة من الجانب الكلي "مجموعة السياسات المتكاملة" ولا يهتم بآليات وتقنيات تحقيقها إلا عبر "فكر ومبادئ القطاع الخاص وآليات السوق". بهذا المعنى فإن هذه المقاربة منحازة وتفصح عن نفسها من خلال تأكيدها على العناصر التالية:
• الخصخصة هي "مجموعة السياسات المتكاملة الهادفة التي تحقق التنمية للمجتمع".
• ان هذه السياسات تتحقق "بفكر ومبادئ القطاع الخاص وآليات السوق".
• هدف تلك السياسات هو "التخلص من القيود والمعوقات التي يتميز بها القطاع المملوك للدولة".
إن تفكيك التعريف المذكور الى مكوناته يسمح باكتشاف طابعه المتناقض، فهو يشير من جهة الى ان الخصخصة هي "مجموعة السياسات المتكاملة الهادفة التي تحقق التنمية للمجتمع"، ولكنه من جهة اخرى يؤكد أن تحقيقها لن يتم إلا من خلال "فكر ومبادئ القطاع الخاص واليات السوق".

3. الخصخصة سياسة للتحرير الاقتصادي!

كما ان هناك من يعرف الخصخصة على انها "سياسة للتحرير الاقتصادي من خلال الاعتماد على آليات السوق (العرض والطلب) عن طريق بيع بعض وحدات القطاع العام من اجل تطوير الاعمال، وذلك من خلال التحويل من النظام الشمولي الى نظام السوق، وفتح اسواق جديدة محليا وخارجيا" (5).

وبداية لا بد من الإشارة إلى أنه من غير المقبول منهجيا المطابقة بين الخصخصة و"التحرير الاقتصادي" لأن أحدا لا يمكنه أن يدعي أن الاقتصاد البريطاني قبل (مارغريت تانشر) التي قادت عملية الخصخصة هناك، أو الاقتصاد الأمريكي قبل (رونالد ريغان) الذي انطلق بدوره بعملية الخصخصة في الاقتصاد المذكور، كانا اقتصادين اشتراكيين! أو قائمين على التخطيط المركزي، فهما ببساطة كانا أكثر اقتصادات العالم تحررا بمعنى إتاحة الحرية الكاملة للقطاع الخاص للعمل في كافة المجالات مع تحرير العلاقات الاقتصادية الخارجية بدرجة عالية.

وفي ضوء الملاحظات أعلاه فإن اعتماد سياسة الخصخصة في الدول الصناعية المتقدمة لم يكن تحولا نحو تحرير تلك الاقتصادات لأنها كانت حرة منذ البداية، وإنما كان تحولا باتجاه تهميش الدور الاقتصادي المباشر للدولة (والقوى الاجتماعية المرتبطة بها) لصالح تعظيم هيمنة القطاع الخاص على الاقتصاد، بعد أن أثبت القطاع الحكومي قدرته ولسنوات طويلة على تحقيق الأهداف الاقتصادية للدولة في الداخل والخارج، وعلى تعظيم القوة الاقتصادية كمكون رئيسي للقوة الشاملة للدولة، فضلا عن الالتزام بالأعباء العامة المتمثلة أساسا في سداد الضرائب.

إن تفكيك التعريفين اعلاه: الخصخصة "مجموعة من السياسات"، والخصخصة "سياسة للتحرير الاقتصادي"، يتيح القول ان الخصخصة تهدف الى تهميش دور الدولة في النشاط الاقتصادى وتعظيم قوى السوق الطليقة، الأمر الذي يفرض بالضرورة سياسات تتفق وآليات اقتصاد السوق، يمكن أن يتمثل أهمها فيما يأتي (6):

- تقليص سلطات واختصاصات اجهزة التخطيط المركزية، بل والعمل على الغائها، كذلك إضعاف سلطات البنك المركزي ومختلف الاجهزة الرقابية.
- اضعاف دور السياسة المالية التي تختص بوضعها وزارة المالية، والتي تشمل السياسة الضرائبية والجمركية وسياسات الدعم والإعانات وسياسات الدين العام المحلي وسياسات الانفاق الجاري والاستثماري...الخ، الأمر الذي يهدف إلى تقليص حجم الموازنة العامة في تسيير النشاط الاقتصادي، خاصة العمل على تقليص حجم الانفاق الاستثماري العام على مشروعات البنية التحتية والمشروعات الانتاجية. هذا وتجدر الاشارة الى ان تقليص الانفاق الاستثماري العام لا يؤثر فقط على إنشاء مشروعات جديدة، بل ايضا يؤدي الى انقاص حجم المخصصات المطلوبة لعمليات الاحلال والتجديد. ويعد هذا من اهم أسباب انهيار الخدمة في مختلف مشروعات البنية التحتية، وبالتالي تعرض المواطنين لكثير من الكوارث.
- الاعتماد أساسا على السياسة النقدية Monetary policy والتي يختص بوضعها البنك المركزي – في توجيه

النشاط الاقتصادي، والأداة الرئيسية في هذا الصدد سياسات اسعار الفائدة، اذا يلجأ البنك المركزي الى رفعها او خفضها في ضوء حالة النشاط الاقتصادي بشكل عام، وما اذا كان يعاني من ضغوط تضخمية واتجاهات انكماشية، وبما يتفق اساسا ومصالح القطاع الخاص.

ومن الأهمية في هذا الصدد الإشارة إلى أن القطاع المصرفي في ظل الخصخصة يلعب دوراً مهماً في إثراء رجال الأعمال، إذ أن البنوك تقدم لهم القروض والتي مصدرها اساسا الودائع الادخارية للمواطنين، الأمر الذي يعني ان المواطن العادي يسهم بمدخراته في تمويل مشروعات التنمية التى يقوم بها القطاع الخاص، بينما يحصل رجال الاعمال على الارباح العالية، فان المواطن العادي لا يحصل إلا على عائد بسيط (متمثلاً في الفوائد على مدخراته البنكية) لا يقارن بتلك الارباح العالية.

• فتح الابواب على مصراعيها امام الاستثمارات الأجنبية في مختلف المشروعات الإنتاجية، والسماح للبنوك الاجنبية بفتح فروع لمراكزها الرئيسية في الخارج والسماح لها بالتعامل بالنقد المحلي. ولا يخفي خطورة هذه الاستثمارات والبنوك الاجنبية على الاقتصاد الوطني، اذ تعمل على تحويل ارباحها الى الخارج مما يؤدي الى استنزاف موارد البلد في النقد الاجنبى، ويساعد على ذلك الغاء السلطات النقدية الرقابية على التعامل بالنقد الاجنبي.

• تحرير اسعار السلع سواء السلع الوسيطة او السلع النهائية، استهلاكية كانت أم انتاجية. واخضاع هذه الاسعار لقوى السوق، الأمر الذي يؤدي الى فوضى الاسعار واشتعالها، وبالتالي انخفاض حجم الدخول الحقيقية للمواطنين العاديين.

• تحرير التجارة الخارجية استيراداً وتصديراً، والعمل على الخفض التدريجي للرسوم الجمركية على الواردات، مما يؤدي الى اغراق السوق المحلية بالمنتجات الاجنبية وتهديد الصناعات المحلية بالاغلاق وزيادة اعداد العاطلين.

4. الخصخصة تعني رفع الكفاءة!

هناك من يربط بين الخصخصة والكفاءة، فيرى اصحاب هذه المقاربة ان الخصخصة هي "العمل على رفع كفاءة الادارة وتشغيل المشروعات العامة من خلال تطبيق آليات وقوى السوق والقضاء على التعقيدات الروتينية والبيروقراطية في الاداء" (7).

بالمقابل هناك تعاريف تربط بين الخصخصة وفشل القطاع العام. فهناك من يعرف الخصخصة على انها: "تصفية وحدات القطاع العام التي ثبت فشلها او عدم صلاحيتها للاستمرار لعدم توافر جدوى اقتصادية منها" (8)، أو انها "وسيلة للتخلص من الوحدات الخاسرة في القطاع العام ونعني ايضا انه بتحول هذه الوحدات الى القطاع الخاص ستحقق انتاجية وربحية أعلى حتى لو لم تكن خاسرة من قبل" (9).

ان ما يثار على هذين التعريفين، وما يماثلهما الكثير، هو انهما ينطلقان من تصفية "الوحدات التي ثبت فشلها"، أو "الوحدات الخاسرة" العائدة للقطاع العام، ولكنهما لا يجيبان على السؤال الجوهري وهو ان كثيرا من تجارب الخصخصة تمت فيها تصفية جميع مؤسسات القطاع العام وليس فقط "الخاسرة" منها، لأسباب آيديولوجية (تصفية حساب مع القطاع

العام والقوى الاجتماعية التي يمثلها). ويدلل على ذلك ما قاله احد الباحثين حين جاهر بموقفه قائلا: "الخوصصة في ظل الاسواق المفتوحة تؤدي الى القضاء على الشعارات التي يستخدمها الاشتراكيون والبيروقراطيين" (10). ولا ندري ما هو الاساس أو الفرضية التي انطلق منها الكاتب، وهو يجري بحثا علميا – اطروحة ماجستير– والتي اتاحت له المطابقة بين "الاشتراكيين والبيروقراطيين"!

علما ان التعريفين لا يربطان بين فشل هذه المؤسسات والأسباب التي أدت الى ذلك، وهل هي أسباب موضوعية أم ذاتية أم كليها. ولذلك لا يمكن القبول بهذه التعاريف إلا بعد الاجابة على هذه الاسئلة الاستراتيجية الطابع. فتصفية مؤسسات القطاع العام وتحويلها الى القطاع الخاص بحجة انها "ستحقق انتاجية وربحية أعلى"، إن هذه العملية ليست خيارا فنيا، كما يجادل البعض، بل إن الأمر يتعلق بخيار اقتصادي – سياسي من الطراز الاستراتيجي. انه صراع بين "الكفاءة الاقتصادية" والكفاءة الاجتماعية (العدالة الاجتماعية)، وكل منهما ينتمي الى مرجعية فكرية –اقتصادية تختلف عن الاخرى. وما عدا ذلك من حديث ليس سوى ثرثرة آيديولوجية أي تزييف للوعي.

5. الخصخصة.. مجرد آلية لإعادة هيكلة الاقتصاد!

وهناك من يعتبر الخصخصة بمثابة مجرد آلية لإعادة هيكلة الاقتصاد عبر " تغيير نمط الملكية العامة الى الملكية الخاصة... من خلال آليات السوق لتنشيط المنافسة وتطوير الكفاءة وزيادة الانتاجية والحد من البيروقراطية" (11).

ولا بد من التنبيه هنا الى انه ليس هناك ما يشير جازما الى ان الخصخصة عند تطبيقها في بلد ما، وخصوصا في البلدان النامية، ستؤدي الى توسيع قاعدة الملكية كما أنها لا تضمن توزيعا افضل وعادلا للدخول بل ان تجارب عديدة برهنت على انها – أي الخصخصة – أدت الى تركز وتمركز رأس المال والانتاج، واستبدال احتكار القطاع العام لبعض القطاعات الخدمية والانتاجية الاساسية باحتكار الخواص. ونظرا لأن التجربة في العديد من البلدان النامية تشير الى أن المستثمرين المحليين يفتقرون الى رؤوس الاموال الكافية، لذا فان هناك امكانية كبيرة لسيطرة الاحتكارات المتعدية الجنسيات على الاقتصاد الوطني عبر الخصخصة، والامثلة في هذا المجال كثيرة وتفقأ العين.

– وهناك من يتقدم "خطوة للإمام" في اضفاء "المبررات الموضوعية" و"العلمية" على مقاربته لهذه الاشكالية فيكتب قائلا: "ان ادراك الاخفاق الذي صاحب القطاع العام لم يأت من خلال دراسة حالة او بدراسة قطاع بقطاع آخر وانما جاء الادراك من خلال العدد الكبير للمؤسسات الخاسرة التي ارغمت المفكرين والمسؤولين ان يحكموا بفشل القطاع العام" (12).

هكذا اذن، وبجرة قلم واحدة وبتعميم لا يجوز ان يصدر من باحث علمي، تم اصدار احكام قاطعة تتمثل بـ "العدد الكبير للمؤسسات الخاسرة" دون ان يحدد أين؟ وهل في كل البلدان؟ ولا يتركنا الباحث نلتقط انفاسنا عند قراءة تعريفه هذا حتى يداهمنا باستنتاج آخر هو ان "العدد الكبير" من المؤسسات الخاسرة هو الذي ارغم "المفكرين والمسؤولين ان يحكموا بفشل

القطاع العام". في هذه الفقرة هناك تعميم اضافي تضمن "المفكرين والمسؤولين" ولكن من دون ان يشير لنا أين ومتى؟

ثمة ملاحظة منهجية هنا تطرح نفسها بإلحاح وهي ان هذه المقاربة وفي الوقت الذي تشير الى هذا "العدد الكبير من المؤسسات الخاسرة" لكنها لم تتقدم بالتحليل خطوة مهمة للأمام بالبحث عن الأسباب التي أدت الى هذه الخسارة وما هي القوى المستفيدة من ذلك، وانما استندت الى مقاربتها هذه على ما طرحه "المفكرون والمسؤولون" الذين حكموا "بفشل القطاع العام". وبعيدا عن التمويه الايديولوجي يمكن القول ان هؤلاء "المفكرين والمسؤولين" ليسوا محايدين في مقاربتهم للأمور بل هم انصار أقحاح للخصخصة وآليات السوق الطليقة، وبالتالي فهم في الواقع خصوم اشداء للقطاع العام، ودوره في التنمية الاقتصادية، او حتى في الخروج من الازمات الاقتصادية، فهم مهتمون بفشله وإفشاله لكي يبرروا مقاربتهم هذه.

هذا مع العلم ان الكاتبين يستدركان، في مكان آخر، قائلين ان "تحقيق التنمية الاقتصادية ... لا يمكن تركها لآلية السوق بل لا بد من قيام الدولة بالتصدي لها بما تمتلكه من سلطات ومؤسسات كما مارست حكومات الدول الرأسمالية المتقدمة نفس الدور لمعالجة واصلاح ما نتج من مثالب اجتماعية واقتصادية تتعلق بالاستقرار الاقتصادي وبالتوازن الاجتماعي والكفاءة الاقتصادية" (13).

هكذا إذن ساهمت جملة من الظروف والملابسات في سيادة منطق آيديولوجي في تناول القضية. وقد بدا الأمر أحيانا وكأن القطاع العام خطيئة أو كابوس ينبغي التخلص منه لتحقيق الانطلاق الاقتصادي، رغم أن التجربة الملموسة تشير الى تطور وتعاظم دور القطاع العام في الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة كآلية لمواجهة أزمة الكساد العظيم في ثلاثينات القرن العشرين عندما تدخلت الدولة لاستعادة التوازن الكلي في الاقتصاد ولرفع مستوى التشغيل من خلال الإنفاق العام، بعد ازمة اقتصادية بنيوية طالت النسق الرأسمالي بكامله (14).

كما تعاظم دور القطاع العام في تلك الدول أيضا بعد الحرب العالمية الثانية حينما كان من الضروري أن تتدخل الدولة لإعادة بناء الاقتصاد الذي خربته الحرب ولاقتحام بعض المجالات الحيوية للاقتصاد والأمن القومي.

كما لا يمكن نسيان الدور الذي قامت الدولة به في البلدان الرأسمالية وهي تواجه ازمة 2008. ولا نريد هنا الدخول في تفاصيل كثيرة، بل نود الاشارة هنا الى العديد من "البرقيات" للتدليل على هذا الدور (15):

- فمثلا تدخلت الحكومة الامريكية في سوق المال بمنع البيع على المكشوف لحوالي 799 سهما مدرجة في سوق الأسهم الأمريكية.
- كما قدمت إدارة بوش الإبن خطة إنقاذ بتكلفة 700 مليار دولار. تم إنفاق 350 مليارا منها حتى أواخر شهر نوفمبر/ 2008 كما تم لاحقا الوعد بتقديم 800 مليار دولار أخرى لحل المشاكل المالية المختلفة.
- وتم اللجوء إلى تأميم العديد من المؤسسات المالية مثل إندي ماك – احدى أكبر مؤسسات الرهن العقاري في أمريكا.
- هذا اضافة الى امتلاك الحكومة لحصة 80 % من شركة التأمين الكبرىAIG .

هذا وكانت السلطات الأمريكية قد أعلنت في 25 /11 /2008، مجموعة من الإجراءات الجديدة الهادفة الى دعم قروض الاستهلاك وقطاع العقارات بلغت قيمتها حوالي (800) مليار دولار. وتتضمن هذه الإجراءات شراء بنك الاحتياطي الفيدرالي قروضاً تصل قيمتها الى (100) مليار دولار تمتلكها شركتا "فاني ماي" و"فريدي ماك" للتمويل العقاري ولأسهم لديهما مرتبطة بقروض عقارية تصل قيمتها الى (500) مليار دولار.

اما في أوروبا فقد تم تأميم العديد من البنوك والمؤسسات، فعلى سبيل المثال في أيلول/ سبتمبر من عام 2008 تم تأميم برادفورد & بينجلي، أكبر مؤسسات القروض العقارية في بريطانيا.

كما قامت حكومة أيسلندا بشراء 75% من مؤسسة "جلتنر بنك" (Glitnir Bank) ثالث أكبر مؤسسة إقراض فيها.

وطبيعي الاشارة الى ان هذه الاجراءات، وغيرها الكثير، لم يكن هدفها الدفاع عن مصالح الطبقات الكادحة والفقراء عموما، الذين بلغ عددهم (46.2) مليون شخص (عام 2013) (16)، (والتي تضررت كثيرا بسبب هذه الازمة) بل كان الهدف من الاجراءات انقاذ مصالح الطبقات المسيطرة التي تعمل في العادة على "خصخصة الارباح" و"تشريك الخسائر"!

كما أن القطاع العام نشأ في غالبية الأحوال في الدول النامية نتيجة لعجز القطاع الخاص في هذه الدول عن تنفيذ الاستثمارات الضرورية والمكلفة لتحقيق التقدم الاقتصادي وسد فجوة التخلف مع الاقتصادات المتقدمة وبناء أسس اقتصاد قادر على التفاعل مع الاقتصاد الدولي من موقع قوي. وبالتالي فإن هذا القطاع العام قام ويقوم بدور مهم في الاقتصادات النامية بالذات، ويمكن إصلاحه ومنع الفساد فيه ومكافحته إذا حدث، في حالة وجود نظام ديموقراطي يتضمن تداول السلطة السياسية (17).

6. التوجه نحو الخصخصة والتخلص من وحدات القطاع العام يؤدي الى تزايد المنافسة!

وبالمقابل، هناك من يركز على الدوافع الاقتصادية ويعتبرها الاساس في تطبيق الخصخصة على الصعيد العالمي. فـ "التوجه نحو الخصخصة والتخلص من وحدات القطاع العام ادى الى تزايد المنافسة مما يعمل على رفع معدلات الأداء ومستوى الجودة وتخفيض الأسعار على حد سواء، ولعل المعدلات التي تشير إلى ضعف القطاع العمومي خصوصا في الدول النامية هي انتشار البطالة وارتفاع معدلات التضخم والعجز في الميزانية وهذا ما يبرهن على ان القطاع العمومي عجز عن تحقيق التنمية الاقتصادية المنشودة، هذا بالإضافة إلى أن القطاع الحكومي عجز عن إعادة توزيع الدخل بين طبقات المجتمع توزيعا عادلا" (18).

والواقع ان هذا التعريف يتضمن تعميمات لا صلة لها في الواقع العملي. بل على العكس فإن نتائج تجربة العديد من البلدان برهنت على حقائق وآثار أخرى من بينها الآثار الاجتماعية كالبطالة والاستقطاب الاجتماعي وتفاقم التفاوت في توزيع الدخل بين الطبقات والفئات الاجتماعية. والتجارب الفعلية تشير الى تعمق التفاوتات الاجتماعية، أي تعاظم الفقر من جهة وتعاظم الغنى من جهة ثانية.

نعم، لقد مكّنت برامج التكييف الهيكلي في العديد من الدول من استعادة بعض التوازنات الاقتصادية الكلية، إلا أنها ومن الجانب الاجتماعي أدت إلى زيادة الفقر والبطالة بسبب إجراءات الخصخصة وما ترتب عليها من تسريح للعمال، وبسبب اللبرلة المتعاظمة والتخلي عن دعم الأسعار، وكذلك تخفيض الإنفاق الحكومي تحت حراب هيئتي أركان الخصخصة بطبعتها الرأسمالية، أي الصندوق والبنك الدوليين.

من المعروف ايضا ان من اهم الاختلالات الهيكلية التى تعاني منها غالبية البلدان النامية، هو اختلال هيكل توزيع الدخل بين عائد العمل (الاجور) وعوائد حقوق التملك (الأرباح، الريوع، الفوائد). وفي ظل سياسات الخصخصة واضطلاع القطاع الخاص بالدور الأكبر في النشاط الاقتصادي والذي يهدف أساسا إلى تعظيم الدخول على حساب تحجيم الاجور، فان هذا الوضع يزيد من اختلال هيكل توزيع الدخل، وبالتالي ظهور الفئات الطفيلية الجديدة واشاعة انماط الاستهلاك الاستفزازية. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى انه في مصر مثلا وفي أواخر المرحلة الناصرية بلغت نسبة الاجور حوالي 50% من الدخل، أما في المراحل التي تلتها وفي ظل الخصخصة فإن نصيب الاجور يقدر ان يكون قد هبط الى اقل من 25% من الدخل.

7. الخصخصة باعتبارها استعادة لـ "حق مستلب" !

هناك أيضا من يتعامل مع الخصخصة بمنطق حربي! فينظر إليها – أي الخصخصة – باعتبارها استعادة لحق مستلب! وبموجب هذه الخلفية تُعرّف الخصخصة بانها: "إعادة حقوق الملكية بجميع أوجهها من الدولة إلى المجتمع باعتباره صاحب هذه الحقوق أولا، والمنتفع منها ثانيا، وهذا فيه إنهاء وتحويل للأصول الإنتاجية وما تنطوي عليه من سلطات إلى يد الفرد بعد أن كانت في يد الدولة، أي تحويل ملكية المؤسسات الاقتصادية المملوكة للدولة (جزئيًا أو كليًا) إلى ملكية خاصة" (19).

يبدو هنا ان ثمة التباسا منهجيا يحتاج الى تدقيق. حيث يفهم من هذه المقاربة كما لو أن الدولة (دون تحديد شكلها ومضمونها) على قطيعة مع المجتمع.. وان القطاع الخاص هو "الممثل الشرعي والوحيد" لهذا المجتمع (وحدانية التمثيل!). ولكن الواقع يشير الى العكس من ذلك، حيث تحمل الدولة دائماً وحدة داخلية متميزة، هي وحدة سلطة الطبقة المسيطرة أو الفئة المهيمنة. كما ان القول بأن وظيفة الخصخصة – بحسب هذا التعريف – تتمثل في استعادة الحقوق المسلوبة من خلال "إنهاء وتحويل للأصول الإنتاجية وما تنطوي عليه من سلطات إلى يد الفرد بعد أن كانت في يد الدولة" فيها بعض الخلط. فقد فات على هذه المقاربة حقيقة انه ليس كل مؤسسات القطاع العام كانت مؤسسات خاصة واستحوذت عليها الدولة حتى تتم اعادتها الى "اصحابها الشرعيين". وهنا لا بد من التمييز بين الاصول الانتاجية والمؤسسات التي شيدتها الدولة وهي ثروات وطنية تعود ملكيتها الى المجتمع وبين تلك التي تم تأميمها في بعض البلدان، فالمطابقة بين النوعين من الاصول غير دقيق.

كما ان ثمة حاجة هنا لإعادة التفكير بطبيعة الدولة ومحاولة وضعها في مكانها الطبيعي ضمن تطور التشكيل الإجتماعي

التاريخي الملموس. فللدولة وظيفة سياسية شاملة تسعى الى تحقيق ترابط مستويات التشكيل الإجتماعي وذلك بإعادة إنتاج التناقضات والأوضاع القائمة. ويعني ذلك تعريف الدولة انطلاقا من دورها الإجتماعي والسياسي بالدرجة الأولى. الدولة، إذن، ليست محايدة وحَكما بين القوى المتصارعة، كما تبدو ظاهريا.

ولهذا فان المقاربة الصحيحة لدور الدولة هذا لا تمر عبر وضع "سور صيني" بين الطبقات والدولة بل لا بد من الاهتمام بالعلاقة ما بين الطبقات الاجتماعية وسلطة الدولة. بهذا المعنى فإن الدولة في بنيتها ليست واقعا ثابتا، بل يحتمل شكل الدولة تغيرات هي نتاج ورهان الصراع الطبقي السياسي.

لا تعني الملاحظات السابقة أن الدولة طاقم مفكك الأقسام كتفسير لـ "تقاسم" السلطة السياسية بين طبقات وشرائح متعددة، بل العكس، ففوق التناقضات ضمن الأجهزة وخلفها، تحمل الدولة دائما وحدة داخلية متميزة، هي وحدة سلطة الطبقة المسيطرة أو الفئة المهيمنة، ولكن هذا يحدث بشكل معقد وليس بصيغة مباشرة، بل عبر توسطات.

وإضافة لذلك لا بد من التحذير من أمرين: الأول هو الخلط بين مفهوم سلطة الدولة ومفهوم جهاز الدولة واعتبارهما شيئا واحدا. الأمر الثاني هو عدم التمييز بين الطبقة أو الطبقات المسيطرة سياسيا والطبقة أو الطبقات المسيطرة اقتصاديا، وهو خطأ منهجي واضح. فمثل هذا المفهوم للسلطة مفهوم ميكانيكي لأنه يعتبر السلطة أداة في يد الطبقة الحاكمة، ويعتبر السلطة والثروة وجهين لعملة واحدة. في حين أن السلطة هي، كما ذكرنا، علاقة قوى طبقية وليست أداة طبقية، كما أنها ليست انعكاسا آليا للملكية والثروة، والطبقة المسيطرة اقتصاديا ليست بالضرورة الطبقة المسيطرة سياسيا وفي التاريخ امثلة عديدة على ذلك.

*****

على أية حال، يبدو أن الأزمة المالية والاقتصادية العالمية، التي انطلقت نيرانها في 2008 وما تزال حرائقها مشتعلة، أقنعت الجميع، بمن فيهم أكثر الليبراليين والمحافظين تعصبا لقوانين السوق و"الخصخصة الشاملة"، أنه من الضروري "أحيانا"! القبول بأن تتدخل الدولة لإصلاح "الاختلالات" وتدارك "الأخطاء" التي عجزت "اليد الخفية للسوق – بحسب ادم سميث" عن تقويمها.

وهكذا فإنها لمفارقة أن السوق وخصخصة كل شيء التي حرص "سدنتها" طوال العقود الماضية على إقصاء السياسة تدريجيا من مفاصل رئيسة للشأن العام لم تجد سوى الدولة لتلجأ إليها عند أول أزمة جدّية تواجهها. وبالفعل فإن مصير السوق الآن يتوقف على قرارات سياسية في المقام الأول. لذلك لا يوجد اليوم الكثيرون ممن يطالب بإبعاد السلطات الحكومية عن التدخل في الشأن الاقتصادي على أساس التشبث بالمبدأ الليبرالي العتيد "دعه يعمل... دعه يمر!". إنما الخلاف القائم هو بين من يلتمسون "تدخلا محدودا" من شأنه أن يعيد الأمور إلى مسارها حتى لا يتغير أي شيء في الوضع الذي كان قائما قبل الأزمة، وبين من يطالبون باستعادة التوازن في العلاقة بين السياسي والاقتصادي وصولا إلى إصلاح جدي للخلل الذي تسببت فيه الهجمة الآيديولوجية والعملية للفكر النيوليبرالي والسياسات المرتبطة به.

وهنا يمكن الاتفاق مع ملاحظة (ديفيد هارفي)، المنظر الاجتماعي الماركسي، الذي اشار الى ان الإطار النظري للفكر النيوليبرالي ليس منسجما بكليته، "فالصرامة العلمية للاقتصاد النيوكلاسيكي لا تنسجم مع الالتزام السياسي بمُثل وقيم حرية الفرد، كما لا يتناسب انعدام الثقة المفترضة بجميع سلطة الدولة مع الحاجة لدولة قوية وقسرية إن لزم الأمر تدافع عن حقوق الملكية الخاصة والحريات الفردية وحريات القيام بالأعمال التجارية" (20).

إن ما يجمع التعاريف اعلاه، بغض النظر عن وجود اختلافات شكلية في ما بينها، هو أنها تنادي بانهاء دور الدولة الاقتصادي. ولكن صناع هذه التعاريف يتناسون حقيقة مهمة هي ان القطاع الخاص في البلدان النامية (خصوصا في البلدان الريعية حيث الدولة أكبر رب عمل!)، لجملة اسباب، لا يمكنه القيام بنشاطه دون تدخل الدولة في مجال التشريع والمساعدة في تخصيص الموارد لتحفيز الاستثمار، فالإطار التشريعي والقانوني لقيام القطاع الخاص بالدور المناط به إنما يأتي من خلال دور الدولة (21).

الخلاصة، أنه وبغض النظر عن التعاريف السابقة وما احتوته من جوانب مختلفة، فإنها تحتاج الى مقاربة أبعد مما قيل. فاذا انطلقنا من حقيقة ان الرأسمالية (وخصوصا "مراكزها") ترمم اوضاعها وتتعلم من ازماتها (22)، فقد ادركت القوى المسيطرة هناك ان تنظيم علاقاتها مع دول "الاطراف" ضمن النسق الرأسمالي العالمي في مرحلة التوسع التالية وعلى النحو الذي يجنبها تكرار الوقوع في ازمة المديونية ونتائجها المدمرة، وعلى النحو الذي يؤهلها لاستمرار نقل الفائض الاقتصادي من هذه البلدان، أدركت أن الأمر يتطلب خلق آليات جديدة للسيطرة على مجمل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في تلك البلدان، من بينها نمط التخصص وتقسيم العمل، وتوزيع الثروة والدخول، ودور الدولة، والعلاقات الاقتصادية الخارجية. وهذه جميعها آليات تشكل توجهات النيوليبرالية التي تركز على اضعاف دور الدولة وإبعادها عن التدخل في النشاط الاقتصادي وتحويلها الى مجرد خفير! والاعتماد على آليات السوق والمراهنة على الدور الذي سيلعبه القطاع الخاص، دون تحديد ما اذا كان محليا او اجنبيا، (مع تصفية القطاع العام) والانفتاح بقوة على الاقتصاد الرأسمالي العالمي (23).

وفي هذا الاطار، ومن اجل وضع الأمور في نصابها الصحيح، تجدر الاشارة الى ان محاولة الخصخصة عالميا – كمحطة مهمة واساسية من محطات سياسات "الاصلاح الاقتصادي"– كانت ترمي الى تحقيق عدد من الاهداف السياسية والاقتصادية والايديولوجية التي يمكن بلورتها في القضايا التالية (24):

1. تقويض الاساس الاقتصادي لرأسماليات الدولة في "العالم الثالث"؛
2. تأكيد الانتصار الآيديولوجي للنظام الاقتصادي الرأسمالي القائم على القطاع الخاص والملكية الخاصة على النظم التي قامت على القطاع العام والتخطيط المركزي.
3. الهيمنة على الجانب المهم من الاصول الانتاجية في الدول النامية التي كانت مغلقة امام الاستثمارات الامريكية والاوربية واليابانية.

كل هذه الاهداف، وفي ظل الآليات التي اشرنا إليها سابقا، افضت الى ان عملية

صنع القرار الاقتصادي انتقلت من محيطها المحلي انطلاقا من ضرورات التنمية في الداخل والاحتياجات الحقيقية للمواطنين، الى المستوى الدولي عبر هيئة اركان النظام الرأسمالي العالمي: صندوق النقد الدولي، البنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية (25).

تشير التجربة الى ان لسياسات الخصخصة آثارا سلبية شديدة الوطأة على الأوضاع الاجتماعية؛ حيث أن نسبة السكان الذين يهبطون إلى ما دون خط الفقر في ارتفاع، ويزيد عدد الذين يعيشون في الأحياء العشوائية، وتزداد معدلات الإصابة بالأمراض ومعدلات الوفيات، وكذلك تزداد حالات الطلاق وانهيار الكثير من الاسر الاجتماعية وزيادة عدد اطفال الشوارع وارتفاع معدلات الامية والجريمة...الخ، الأمر الذي يؤدي الى فقدان الاستقرار الاجتماعي والسياسي. هذا وتوضح نشرات التنمية البشرية التي يصدرها برنامج الامم المتحدة الانمائي ومنظمة اليونيسيف، تردي الاحوال الاجتماعية في غالبية البلدان النامية التي تبنت سياسات الخصخصة. ومع ذلك يصر "نسور" الخصخصة على أنها تؤدي الى النمو والفعالية الاقتصادية والرفاه !!!!.

الهوامش:

(1) لم يتم نحت مصطلح موحد بالعربية يقابل مفهوم privatization، حيث نعثر في الأدب الاقتصادي المكتوب بالعربية على تعابير من قبيل: الخوصصة، التخصيص، الخصخصة ..... الخ. إن عدم التوصل الى صياغة دقيقة لهذا المفهوم باللغة العربية يعني أنه لم يتم الوعي بعد على وجه الدقة بالمضامين الفعلية العملية لهذا المفهوم. ومن المعروف أن الإشكالات التي تواجه الباحثين في العلوم الاقتصادية إشكالية ضبط المصطلح وتحته، وهي إشكالية بقيت ملازمة للفكر الاقتصادي المعاصر في بلداننا عموماً. والمتتبع اليقظ يلمس اضطرابا واضحا في وضع المصطلحات وعدم تناسق المقابلات المقترحة للمفردات الأجنبية. فمثلا ينقل المفهوم الغربي الواحد (وهنا privatization كنموذج) بعشرات المصطلحات العربية. وقد نجد لمفهوم واحد عدة مصطلحات مما يؤدي إلى ضبابية المفهوم. لمزيد من التفاصيل قارن: مصطفى عمر التير، "مساهمات في أسس البحث الاجتماعي"، الطبعة الأولى (بيروت: معهد الانماء العربي، 1989)، ص 30 ولاحقا.

(2) لقد عالجت هذه الاشكاليات في عمل مستقل. لمزيد من التفاصيل راجع: صالح ياسر، الخصخصة و"الاصلاحات الاقتصادية" بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع – محاولة في نقد الخطاب والممارسة (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2016).

(3) مصطفى محمد العبد الله، "التصحيحات الهيكلية والتحول الى اقتصاد السوق في البلدان العربية" (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1999)، ص 47.

(4) صلاح عباس، "التطورات المعاصرة للمرافق العامة الاقتصادية"، ط 1 (الكويت: المكتبة العامة لجامعة الكويت، 1999)، ص 12 – 13.

(5) محمود وهبة، "الرأسمالية الجديدة وبيع الشركات للأجانب" (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1994)، ص 21.

(6) قارن: د. الفونس عزيز، "رؤية نظرية لسياسات الخصخصة وكيفية مواجهتها". متاح على الانترنيت.

(7) عبد الحميد صديق عبد البر، "التحليل الاقتصادي لبرنامج الخصخصة المصري"، المجلة العلمية للاقتصاد والتجارة بجامعة عين شمس، العدد الثاني، القاهرة 1998، ص 342.

(8) سامي عفيف حاتم، "الخبرة الدولية في الخصخصة" (القاهرة: دار العلم للطباعة، 1994)، ص 19.

(9) بوعاملي ياسين، "الخوصصة ودور السوق المالية في تفعيلها "دراسة بعض التجارب المغاربية"، مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة قسنطينة (الجزائر)، السنة الجامعية 2009 /2010، ص 6.

(10) المصدر السابق، ص 24. للأسف، هذا الكاتب يرتكب خطأ منهجيا غير مقبول، حيث يطابق هنا بين "القطاع العام" و"الاشتراكية" وهذا غير دقيق. فالاشتراكية نظام اجتماعي – اقتصادي كامل له أساسه الاقتصادي وبنيته الفوقية الخاصة به. في حين ان القطاع العام هو ظاهرة اجتماعية اقتصادية، جزئية، موضوعية، ولدت مع ولادة الدولة وتستمر معها. وبغض النظر عن طبيعة النظام الاجتماعي – الاقتصادي القائم فالدولة ظاهرة اجتماعية معقدة. لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن: عارف دليلة، "بحث في الاقتصاد السياسي للتخلف والتقدم والنظام الاقتصادي العالمي"، الطبعة الثانية (بيروت: دار الطليعة، 1987).

(11) عزت ملوك قناوي، "الأبعاد الاقتصادية للخصخصة"، مجلة مصر المعاصرة، عدد كانون الثاني – ابريل/ 2001، ص 11.

(12) عبد الجبار محمود العبيدي، عامر سامي منير، "أطروحة الخصخصة واتجاهاتها في العراق ما بعد عام 2003"، مجلة العلوم الاقتصادية والإدارية، المجلد 21، العدد 84 لسنة 2015، ص 316.

(13) عبد الجبار محمود العبيدي، عامر سامي منير، "اطروحة الخصخصة ....."، المصدر السابق، ص 315.

(16) لمزيد من التفاصيل حول هذه الازمة قارن: د.صالح ياسر، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي – محاولة في فهم الجذور (بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2011).

(15) كنت قد عالجت، في عمل مستقل، الازمة الاقتصادية العالمية عندما اندلعت في 2008، ولمزيد من التفاصيل قارن: د.صالح ياسر حسن، "الاقتصاد السياسي للأزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي – محاولة في فهم الجذور" ...، مصدر سبق ذكره.

(16) http://www.bbc.com/arabic/worldnews/2013/09/130917_us_poverty

(17) قارن: احمد السيد النجار، "الخصخصة... قراءة نقدية للسياسة والآليات ولصفقات أثارت الجدل"، مصدر سابق، ص 4.

(18) المصدر السابق، ص 31.

(19) انظر: علي حسين حسن، "المتطلبات الاساسية لنجاح برنامج الخصخصة"، مجلة بابل/ العلوم الانسانية، المجلد 20، العدد 1/2012، ص 4.

(20) انظر ديفيد هارفي، "الوجيز في تاريخ النيوليبرالية"، ترجمة وليد شحادة (دمشق: منشورات الهيأة العامة للكتاب، 2013)، ص 33.

(21) قارن: مختار حميدة، "الاسواق المالية وخصخصة المؤسسات الاقتصادية العمومية ودور العملية في احداث التنمية – دراسة حالة بعض المؤسسات العربية"، اطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر 3، السنة الجامعية 2010/2011، ص 30.

(22) لمزيد من التفاصيل قارن: د.فؤاد مرسي، "الرأسمالية تجدد نفسها"، عالم المعرفة (147) (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، مارس 1990).

(23) قارن: احمد السيد النجار، "الاقتصاد المصري من تجربة يوليو الى انموذج المستقبل" (القاهرة: دار المعارف للنشر، 1997)، ص 142.

(24) قارن: محمود عبد الفضيل، "مصر والعالم" (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 2001)، ص 148.

(25) قارن: د.احمد ثابت، "تغيير طبقة ودوران الدولة المصرية في ضوء النمو التابع لصندوق النقد الدولي" (القاهرة، 2000)، ص 132.

السُبُل المَعرفية لمعالجة اخفاقات النظام التربوي العراقي

أ.م. د. فائق يونس المنصوري
مركز علوم البحار/ جامعة البصرة

الدكتور فائق يونس المنصوري، باحث علمي في اختصاص إدارة موارد المياه، يعمل في مركز علوم البحار/ جامعة البصرة. حصل على الماجستير عام 1996 في اختصاص فيزياء التربة والمياه من جامعة البصرة/ كلية الزراعة. وكان موضوع رسالة الماجستير حول (انتقال وتصريف الرواسب في نهر شط العرب جنوب نهر الكارون). كما حصل على الدكتوراه عام 2008 في اختصاص إدارة موارد المياه من جامعة البصرة/ كلية الزراعة. وكان موضوع أطروحة الدكتوراه حول (التخمينات المستقبلية لاستعادة اهوار جنوب العراق).

انجز الدكتور المنصوري أكثر من عشرين بحثا علميا منشورا. وساهم في أكثر من 17 مشروعا علميا داخل العراق لصالح القطاعين الحكومي والمدني. وشارك في أكثر من 30 مؤتمرا علميا داخل العراق. وشارك في عدد من المؤتمرات العلمية والدورات التدريبية خارج العراق بعد عام 2003. كما ساهم في التدريس الجامعي في كليات الزراعة والعلوم منذ العام 1998.

شارك الدكتور المعموري في إلقاء عدد من المحاضرات والبحوث في منظمات المجتمع المدني في البصرة. ونشر العديد من المقالات العلمية والأدبية في مواقع مختلفة على شبكة الانترنيت.

مقدمة:

يقول (غاستون باشلار) محذرا من العقليات المتحجرة التي تتسيد المشهد الثقافي والأكاديمي والتي تخشى وتقاوم أي انتشار للفكر العلمي المتنور والمعرفة العقلانية من انها رغم هزيمتها إلا انها تتحين الفرصة دوما لتعود من جديد يسندها دعاة التخلف المتصدين لكل تقدم ثقافي وعقلاني، فالأفكار البالية تُهزَم ولكنها لا تموت طالما ان الصراع مستمر بين العلم والجهل، بين التقدم والتخلف، وبين مصالح البعض ممن يسيطرون على وسائل وأدوات تشكيل الثقافة والوعي العام وبين طموح

أبناء المجتمع بكافة فئاته وأجياله من اجل مجتمع تسود فيه قيم العدالة والمساواة والعيش الإنساني الكريم.
ولأن المدرسة هي أولى بوابات خلق الوعي والثقافة العامة لذلك أصبحت غرضاً وهدفاً رئيساً لهذه العقليات المتحجرة مما أدى بها لان تصبح والتدريس معها (لأنه الوسيلة والطريق لإيصال الفكر وزرع الوعي)، أصبحا في أزمة؛ فالمدرسة عاجزة عن القيام بمهامها المتعلقة بتكافؤ الفرص، والمدرس بعيد عن الفعالية المدرسية وتفتّح الفكر؛ فبينما يطرح الفلاسفة تساؤلاتهم حول أي مدرسة نريد أن يقدم المدرسون شهاداتهم حول الحاجة إلى ان تسود القيم الأخلاقية والمدنية المتحضرة في العلاقة بين المدرسة والمجتمع.
ويذكر المربي الفرنسي لويس لوغران بأن «الخطوة الأولى في وضع اية سياسة تربوية معينة تكمن في تحديد أهدافها.. ولا يمكن تحديد تلك الأهداف إلا انطلاقا من خيارات جوهرية أخرى، وهي الغايات المعلنة ضمن الخيارات السياسية التربوية.. والتي يقصد بها مجموعة المفاهيم الأخلاقية والفلسفية، التي تشكل الخلفية الكامنة، أو الصريحة، للنشاط الاجتماعي، تلك التي تنطوي على تصور معين للإنسان ومعناه في الوجود ولمصيره المستقبلي.

فلسفة التربية

تساهم الكثير من العوامل الطبيعية كالبيئة الجغرافية والمناخ والطوبوغرافيا والعوامل الثقافية كاللغة والدين والتركيبة الاجتماعية، في بناء النظام التربوي والشخصية التربوية (حيث تؤثر البيئة الجغرافية على طبيعة وسرعة وسعة تفكير وخيال الفرد). وتعد اللغة والدين عوامل رئيسة في تشكيل شخصية الأمة، فيما تساهم المذاهب الفكرية (الفلسفية) في شق الطريق لابتداع الوسائل والمناهج التي تساهم في تحسين الاحوال الاجتماعية.
فالنظام التربوي يتكون من ثلاثة مقومات رئيسة هي المنهج (الفلسفة او الرؤية التربوية) والموصِّل (المدرس او الأستاذ) والمتلقي (الطالب أو التلميذ). ويحيط بهذه المقومات غلاف من الأهداف السياسية للطبقة الحاكمة، كما تحركه العلاقات التربوية من خلال مجموعة من الانظمة الفرعية (كنظام الادارة والتمويل وإعداد المعلمين والامتحانات).
ولقد تعرضت هذه المقومات الثلاث في نظامنا التربوي الى التراجع او التشويه، فقد تعرض المنهج التربوي او الفلسفة التربوية الى اختلالات كبيرة ورجّات مستمرة بسبب اختلاف الرؤية الفلسفية للنظام التربوي حسب النظام السياسي الذي يتحكم بالبلد. فيما تعرض العنصر المهم وهو الموصِّل (المعلم او الأستاذ) الى الاستلاب الفكري والاغتراب الاجتماعي بسبب ظروف القهر والاستبداد التي عاشها ويعيشها البلد مما انعكس سلبا على أدائه ودافعيته للتطور الذاتي او لأداء الاعمال المنوطة به. أما العنصر الأخير وهو المهم الذي من اجله صُممَت العملية التربوية برمتها ألا وهو (الطالَب او التلميذ) المتلقي، فرغم كونه صفحة بيضاء تستقبل ما سيُخَطُّ عليها إلا انه تلوث جزئيا بسبب التطورات التقنية والحديثة عندما اصبح العالم قرية صغيرة عائمة في محيط متلاطم من عالم السيبرينية غثه وسمينه، ولا يجب ان ننسى ان ظروف الارهاب الفكري والجسدي الداخلي والخارجي الذي

يتعرض له الطرفان البشريان في العملية التربوية (الطالب والأستاذ) قد اثرت بشكل واضح وكبير على القابلية الفكرية والجسدية لأدائهما.

تقييم المشكلة التربوية:

اننا نتلقى اليوم ثلاث تربيات متناقضة او مختلفة (حسبما يذكر مونتسكيو في كتابه روح الشرائع)، هي تربية آبائنا وتربية معلمينا وتربية العالم، وما يُقال في الاخيرة ينسف جميع مبادئ التربيتين الاوليتين، وينشأ هذا (من بعض الوجوه) بسبب ما لدينا من تناقض بين الوعود الدينية والعهود العالمية، وهو امر لم تألفه الأجيال السابقة. لذلك اقترح الفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه عام 2002 نوعاً من التحليل يأخذ بنظر الاعتبار تاريخ النظام التربوي، ويساعد على تحديد التناقضات والتوترات والتشابكات بين مختلف مهام التربية وغاياتها، ويتلخص في تقسيم المشكلة التربوية إلى ثلاث «طبقات جيولوجية» تتراكم مثل الرواسب:

1 – طبقة أنثروبولوجية (متعلقة بعلم الإنسان)،

2 – طبقة إبيستيمية (متعلقة بعلم المعرفة)،

3 – طبقة سياسية (وهي الطبقة العلوية الضاغطة).

الطبقة الأولى، الطبقة الأنثروبولوجية:

تستند هذه الطبقة إلى نظرية عمانوئيل كانت: بان «الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يجب تربيته»، وذلك لثلاثة أسباب:

أولاً– لأنه يعيش داخل ثقافة لغوية فيتحتم على الطفل الصغير، حتى يدخل في الحياة أن يتعلم ما يعرفه الآخرون، مما يطبع التربية بسمة متفردة كليا وهي خضوع من يريد أن يتعلم لمن يملك المعرفة. فالعلاقة هنا بديهيا هي علاقة غير متساوية.

ثانياً– وجوب تربية الكائن البشري

وهو ضرورة أن يتعلم الانسان كيف يحكم نفسه بنفسه، وكيف يقوي علاقاته مع الآخرين وفق قانون مشترك، وعليه أن يتقبل (بكامل حريته) القواعد التي وضعت جماعيا.

ثالثاً– يجب تربية الإنسان لأنه كائن مجتمعي، أي انه يسعى إلى التكاثر والبقاء ضمن وحدة جماعية. كما وإن الصفة البشرية (أي الحاجة إلى تلقي التربية) تحتوي في حد ذاتها على مظاهر توتر عديدة.

ويرى (مارسيل غوشيه) أن هذه الطبقة الأنثروبولوجية تشكل ثابتا تاريخيا، سيظل حاضرا في كل زمان ومكان، ويظل بالتالي صالحا حتى اليوم. لكن المجتمعات الحديثة قد أضافت إلى هذه الطبقة الأساسية بعداً ثانياً يسميه غوشيه الطبقة الإبيستيمية.

الطبقة الثانية، الطبقة الإبيستيمية (المعرفية):

لقد حوّلت المجتمعات الحديثة التربية إلى مدرسة، أي إلى مؤسسة تُوكلُ إلى البعض (المدرسين) دور الوسطاء، وفي بداية القرن السادس عشر ظَهَرت اول مواجهة بين التعلّم التقليدي من جهة والتوصيل المدرسي Scholar Transmission من جهة ثانية. فقد ظل التعلم التقليدي يجرى بطريقة تجعل العقول تمتلئ وتمتزج بمضامين يعتبر معيار صلاحيتها الوحيد

هو طول مدة استخدامها (على غرار طريقة التعلّم لدى عمال البناء والحرفيين)، وعلى العكس من ذلك يمر الانسان (المدرسي) من خلال «وساطة تأملية»، بين المتعلم، وما يجب أن يتعلمه.

فالمعلم لم يعد ذلك الشخص الذي يلقن كل شيء، بل ذلك الذي يسأل نفسه عن الكيفية التي تتم بها عملية التعلم، وكيف يسبر أغوار العمليات التي يصبح بها الفرد ومن خلالها قادرا على التعلم بمفرده. وبهذه الصورة يتحول المعلّم من وسيط إلى اختصاصي في شؤون التعلم. وهذه الظاهرة كانت هي بداية ولادة العلوم التربوية، تلك العلوم التي تجعل الفرد حراً نظرا لقدرته على «تعلّم كيفية التعلّم».

ولزمن طويل تعايشت الطريقتان السالفتان (التعلّم التقليدي والتوصيل المدرسي) في اكتساب المعلومات والمعارف، وقد أخلت الطريقة الأولى مكانها شيئا فشيئا للطريقة الثانية إلى أن ازدهرت علوم التربية الحديثة التي رسخت (في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) المفهوم الحديث للتربية: ألا وهو صنع كائن حر قادر على التأقلم مع الأحداث غير المتوقعة في الحياة. وانتهى الأمر، بالمفهوم الحديث للتربية إلى فرض نفسه، جاعلا من الصعب بمكان مجرد التفكير في العودة إلى بعض أساليب التكرار الآلي (كتكرار الحروف عند تعلّم القراءة) أو (التعود الرتيب عن طريق تراكم تمارين القراءة) أو (الترسيخ السلطوي عن طريق فرض قراءة نص مقترح). ورغم مرور أكثر من قرن على ظهور العلوم التربوية الحديثة وعلوم طرق وكيفية التعلّم فإنها ما زالت عاجزة عن تقديم وسائل مؤكدة ترشد لكيفية التعلّم وتحل بصورة فعالة مقام التكرار والرتابة.

الطبقة الثالثة، السياسية:

يصعب في هذه الطبقة (حسب رأي مارسيل غوشيه) الملائمة في ما بين المهام المختلفة المنوطة بالمدرسة والمصالح الطبقية للفئات السياسية الحاكمة او المسيطرة. فالمعروف أنه منذ بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر، تحولت المدرسة إلى أحد أهم الوسائل الدافعة نحو التقدم. ولما كان الهدف السياسي الأسمى لفكرة التنوير يتلخص في جعل الفرد حرا وسعيدا، كان لا بد للفرد، لكي يحقق لنفسه تلك السعادة، أن يتحكم في المحيط الذي يعيش فيه، فأصبحت هذه النظرية هي المنهج الجديد للتربية، مولدة دافعا قويا لدى الطلبة للرفض والاحتجاج لكل ما ومَن يحاول تقييد حرياتهم، ومن هنا كان المنشأ لأولى الانتفاضات الطلابية في العراق عام 1948 وما بعدها او أولى ثورات الطلبة في فرنسا عام 1968 او ثورة الطلبة في الساحة الحمراء ببكين (ساحة تيان آن من أو ميدان السماء- المحرر) عام 1989، علما ان جميع هذه الحركات الثورية رغم ان انطلاق شرارتها كان من الطلبة ومدرسيهم إلا ان استمرارها وتأججها تم بعد دعمها من قبل الطبقة العمالية في تلك البلدان جميعها.

مهام المدرسة:

لقد أقرت معظم حلقات النقاش التي عُقدت حول دور المدرسة والمدرسين بأهمية الحفاظ على تنوع التلاميذ داخل الصفوف لأن «بعضهم يشبع حاجة البعض الآخر»، وذهبت مقترحات عديدة باتجاه مراعاة الصفات الفردية لكل شخص وإيقاع

تفكيره وقدراته الخاصة. فمراعاة الفردية Individuality عند تقديم المساعدة هي أحد الحلول المقترحة التي لا تستهدف تيسير نقل المعرفة بقدر ما تستهدف قبول خصوصية الفرد. ويرى البعض أن «الالتقاء الحقيقي هو أن يشعر المرء بأنه معترف به من قبل المدرّس، وبأنه إنسان وليس فردا ضائعا داخل الفصل. وهذا هو الشرط الذي يصبح فيه الطالب طرفا فاعلا في عملية التعلّم».

وتتجاذب مدرسة اليوم ثلاث مهام يتحتم عليها أن تؤديها وهي:

1. تفتّح الفرد (الطالب أو التلميذ).
2. تكافؤ الفرص.
3. فعالية التحصيل المدرسي.

ما هو دور المدرس؟

المدرس هو ذلك الفرد الممثل للسلطة، والذي يلعب دور الوسيط و«يؤمن الحماية ضد مظاهر القهر التي يمكن أن تتسم بها تلك السلطة، فيجعلها مألوفة، وفي متناول اليد، لها حججها وبراهينها القابلة للتداول والمناقشة». وهنا بالذات يكمن الالتباس الخاص بين سلطة المدرّس وهشاشتها في نفس الوقت. فهذه السلطة لا يمكن ممارستها إلا مع الأخذ بنظر الاعتبار الحرية الداخلية للشخص الخاضع لها.

المدرسة في ازمة:

ويبدو أن مدرسة القرن الحادي والعشرين تمر في أزمة، أو أنها (على الأقل) تجد صعوبة في التوفيق بين أهداف مختلفة (هي في الأصل تناقضات) يساعدنا على فهمها التحليل الفلسفي لوضعية التعليم الذي يرتكز إلى شكلين من أشكال التوتر:

1) توتر بين السلطة والحرية

حيث يرى غوشيه أن «الممارسة الجدلية لسلطة ما في سبيل تحقيق حرية ما» إنما تقوم على مبدأ أساسي الا هو (أنه لا وجود لتربية دون سلطة)، وهي قبل كل شيء سلطة تنبع من المجتمع نفسه طالما أن هذا المجتمع هو الذي عهد إلى النظام التربوي بالعمل على نشر تقاليده وقيمه الأخلاقية. ولكن كيف يمكن تقبل السلطة في مجتمع ديموقراطي حديث تعد الحرية الفردية إحدى قيمه الأساسية؟

والإجابة هي: أن سلطة المجتمع تفرض نفسها بصورة أكثر عمقا واتساعا لأنها توحي لكل فرد بأنه سيظل لا شيء إن لم يكن قادرا على قبول تلك السلطة والانخراط في الأسرة الاجتماعية والثقافية التي يعيش ضمنها.

وبعد العديد من المساجلات (تلك التي جرت في فرنسا) حول مستقبل المدرسة كان على رأس قائمة أكثر القضايا إثارة للجدل السؤال التالي: «كيف يمكن تحفيز التلاميذ ودفعهم إلى العمل بطريقة فعالة؟».

وتُفسر لنا صعوبة تشجيع التلاميذ على التَعلُّم دون فرض ذلك عليهم بالقوة لماذا تثار هذه القضية في 50% من مجموع حلقات النقاش التي تدار حول موضوع التربية، (فالتوتر دائم بين السلطة التي تُمارس والحرية التي تُصنع) ويكفي أن تقع احداهما في الإفراط لكي يؤثر ذلك سلبا على عملية التعليم (أي العملية التربوية برمتها). فهناك إذن أشياء كثيرة من الممكن تعلمها (حسبما يؤكده مارسيل غوشيه)«من دراسة الخصائص المرضية pathological Characteristics لتلك الحرية المصطنعة التي تذيب الدور

الأساسي الذي يقوم به الوسيط (المعلم)، لتترك الأفراد في واقع الأمر مجردين من كل شيء أمام السلطة غير المرئية لعالم لا يفهمونه ويستخف بهم».

2) توتر بين مفهوم العمومية Anonymity ومفهوم الفردية أو الشخصانية Personality.

وهو توتر كبير لوضعية التعليم يتعلق «بتكريس حالة اللاشخصنة (العمومية) Impersonality من أجل تنمية الشخصية الفردية». فالتعليم العام يتميز عن التربية العائلية بكونه يدور داخل مؤسسة وليس في إطار خصوصي Private context، صحيح أن التعليم العام لا يمكنه (حسب قول مارسيل غوشيه) الاستغناء عن العلاقة المباشرة بشخصية الفرد بمعنى «الصوت والبدن والحياة وتلك الهالة التي تسمى الحضور»، لكنه مع ذلك لا يعتبر مواجهة حقيقية (وجها لوجه). فالمدرس بخلاف المعلم الخصوصي Individual School–Teacher يجد نفسه أمام جماعة (وليس ذلك لأسباب اقتصادية وحسب) بل إن الأمر يهدف على منع علاقة التعليم من أن تصبح علاقة تأثير.

إن حالة اللاشخصية (حالة العمومية) في المجموعة وفي المؤسسة تمثل شرطا من شروط الحرية الشخصية في عملية اكتساب العلم، وهنا تكمن المفارقة في عملية التعليم: «إنا أصبح ذاتيا عندما أتصرف مثل الآخرين وأشاطرهم أفكارهم». هذا التوتر بين الفرد والجماعة داخل حلقات الحوار حول مستقبل المدرسة يتجلى في سؤال يحتل المرتبة الثالثة في قائمة الأسئلة الأكثر إثارة للجدل: «هل يعتبر العنف في المدرسة عرضا مرضيا؟».

العنف والسلوكيات الفظة في المدرسة:

يعتبر العنف في المدرسة عرضا مرضيا يُنبئ عن مدى الصعوبات التي تواجه المدرسة في الأنظمة الديموقراطية والجماهيرية. فبينما تؤكد المؤسسة المدرسية في خطابها المعلن أنها «تمنح شهادات البكالوريا لـ 80% من فئة تنتمي إلى مرحلة عمرية معينة»، نجدها تعمد في الخفاء، وفي فروعها المختلفة، إلى انتقاء التلاميذ وتوجيههم، دافعة أقلهم مستوى إلى نيل شهادات أقل قيمة، محملة إياهم كامل المسؤولية، بحجة أن المدرسة الديمقراطية تمنح جميع التلاميذ فرصا متساوية على اعتبار أنهم خُلقوا سواسية، ورغم ان الاحصائيات المذكورة تشير الى فرنسا إلا انها يمكن ان تنطبق على واقعنا العراقي خصوصا بعد تغيير النظام القمعي السابق الى نظام ديمقراطي تداولي.

ومن المهم أن نلاحظ في هذا الصدد أن أحد «الأمراض المتفشية حاليا داخل المدرسة تتعلق بالعنف والسلوكيات الفظة Uncivilized manners وتأتي هذه الظاهرة في المرتبة الثانية مباشرة على قائمة الموضوعات المختارة في أكثر من 20% من المناقشات التي تدور حول مستقبل المدرسة.

وفي النتائج التي أسفرت عنها تلك المناقشات نجد ترابطا جدليا بين اعتبار المدرسة مسؤولة عن ذلك العنف، وبين استياء التلاميذ من سلطة الأستاذ بوصفها نوعا من العنف. وارجع العديد من المشاركين في المناقشات العنف إلى:

– انحدار منزلة المدرسين؛

– تدني درجة ما يستحقونه من احترام.

خاتمة:

ختاما ينبغي للجهات المعنية والمهتمة بديمومة وتطور ونجاح عملية التربية في العراق (إن كانت حريصة فعلا على تطور البلد ونهوضه) عليها أن تعمل ما يلي:

1 – ان تطرح للمناقشة الجادة (على المستويين الأكاديمي والشعبي) قضية التوفيق الفلسفي بين البنى الفكرية التي أُسس عليها النظام التربوي في العراق أو منظومة التربية والتعليم العربية بشكل عام) وبين الإمكانات المادية والبشرية المتوفرة وحدود تلك الإمكانات.

2 – الاستفادة من الكوادر المتمرسة في مجال التربية والتعليم (مع الاخذ بنظر الاعتبار تنحية وإبعاد الديناصورات وأصحاب العقول المتحجرة من الأكاديميين) في عملية الإصلاح التربوي مع إشراك العناصر الفاعلة من الطلبة لإطلاق ثورة ثقافية كبرى في المجتمع عن كيفية اصلاح النظام التربوي بمقوماته الرئيسة الثلاث والتي تحدثنا عنها في بداية الموضوع.

3 – انصح المهتمين بشؤون التربية والتعليم في العراق والساعين في محاولاتهم الجادة لإعادة قطار التعليم الى سكته الصحيحة، بإعادة دراسة (وليست قراءة) دراسات وكتابات الاستاذ الدكتور سامي المظفر التي قدمها ابان تسنمه منصب وزارة التربية والتي حاول جهده ساعيا اصلاح ما يمكن إصلاحه لولا ان أبعدته هَنٍ وهَن.

المصادر:

1 – مارسيل غوشيه وماري كلود بيليفو ودومينيك أوتافي، اوضاع التربية وشروطها. مؤسسة الفكر العربي، بيروت. (2014).

2 – بتصرف عن مقالة: (أية غايات تنشدها المدرسة؟) للصحفية غاتيان شابيل Gaetane Chapelle في مجلة «العلوم الإنسانية». ترجمة: محمد ميلاد. موقع معهد الابحاث والتنمية الحضارية. (2013):
http://www.hadhariya.com/dataarch/dr-mostaqbelai/index04.htm

3 – الاستاذ الدكتور سامي المظفر. التربية والتعليم في العراق تحديات الواقع والمستقبل. مركز الرافدين للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (2013).

4 – غاستون باشلار، ابستمولوجيا (نظرية المعرفة) نصوص مختارة، دار المستقبل العربي، بيروت، (1998).

5 – لويس لوغران، السياسات التربوية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (1990).

6 – مونتسكيو. روح الشرائع–ج1، اللجنة الدولية لترجمة الروائع (بيروت)، دار المعارف، القاهرة، (1953).

التداعيات الاجتماعية والنفسية لأزمة الموصل - رؤية استشرافية

د.اسماء جميل رشيد
مركز دراسات المرأة/ جامعة بغداد

د.اسماء جميل رشيد، من مواليد بغداد 1970، باحثة وكاتبة عراقية مختصة بسوسيولوجيا المرأة، حاصلة على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة بغداد (2006)، وأسهمت في تأسيس مركز "عراقيات" للدراسات. لديها العديد من المقالات والدراسات في موضوعات الجندر والأقليات. من اهم كتبها المنشورة: "العنف الاجتماعي في المجتمع العراقي" (2007)، "المنظور الثقافي للعنف ضد المرأة في العراق" (2013)

في 10 حزيران من العام 2014 سيطر تنظيم داعش على محافظة نينوى ومركزها الموصل ثاني أكبر المدن العراقية.

خلفت سيطرة التنظيم والعمليات العسكرية التي أعقبتها تحديات كبيرة. فثمة شرخ اصاب العلاقات مابين المجموعات المختلفة المؤلفة للنسيج الاجتماعي لهذه المحافظة، يهدد بتصاعد التوتر بين القبائل والطوائف والجماعات العرقية، خصوصا مع توافر الاسلحة التي ستساهم في تعزيز اللجوء الى العنف. وتنذر العديد من المؤشرات باندلاع صراع طائفي بين السنة والشيعة والعرب والاكراد الذين لن يتخلوا عن التوسع الذي حققوه في المناطق المتنازع عليها اثناء حربهم ضد داعش. وهناك فرصة لعسكرة المنطقة على المدى الطويل وخطر حدوث مزيد من الانتهاكات للسكان (1).

كما خلفت العمليات العسكرية بنية تحتية منهارة بالكامل ومستويات معيشية متدهورة سيكون لها انعكاساتها المباشرة على الاوضاع الاجتماعية والنفسية لسكان الموصل.

لقد أحدثت سيطرة تنظيم "داعش" وما رافقها من عمليات نزوح وتهجير قسري تحولا كبيرا في حياة الناس فقلة موارد العيش والانقطاع عن الدراسة بكافة مراحلها وعدم وجود فرص عمل والعقوبات القاسية التي فرضها التنظيم المتشدد وبيئة الخوف والتضييق على مساحات الترفيه، والعزلة عن العالم الخارجي.. كل هذه الظروف ستخلق تداعيات تشكل في مجملها تحديات خطيرة تواجه الحكومات المركزية والمحلية في مرحلة ما بعد داعش.

وكثير من هذه التداعيات ممكن احتواؤها او التقليل من اثارها السلبية فيما لو تم الكشف عن المشكلات المستقبلية المحتمل ظهورها

التي ستنتج عن أزمة الموصل، وتحديد اتجاهات الاحداث وتحليل المتغيرات المتعددة التي يمكن ان يكون لها تأثير على مسارات الوضع في الموصل خلال المستقبل القريب. الامر الذي سيؤدي الى التهيؤ المبكر للمستقبل والتأهل للمشاركة في صنعه قبل ان يتحول الوضع الى كارثة (2).

وفي حين تتجه جميع التحليلات والرؤى الى التنبؤ بالتحديات الامنية والسياسية واستشراف مسارها بعد تحرير الموصل مثل ادارة الحكم في المدينة بعد تحريرها والخلافات العميقة بين المركز واقليم كوردستان وسيناريوهات التقسيم والفدراليات القائمة على اسس عرقية وطائفية. الا ان التداعيات الاجتماعية والنفسية لأزمة الموصل والتي ستشكل التحدي الاكبر، لم تنل الاهتمام الكافي. فهناك مخاوف من ظهور مشكلات اجتماعية ونفسية خطيرة وتزداد هذه المخاوف مع عجز الحكومة عن اعادة النازحين وتلبية احتياجات العائدين وفشل السياسيين في التغلب على خلافاتهم وتعثر عملية اعادة الاعمار بسبب الفساد المستشري.

وتسعى الورقة الحالية الى تحليل التداعيات المستقبلية وتحديد الاحتمالات لتطور الاحداث التي شهدتها الموصل على مدى اكثر من عامين ونصف بغية ارشاد صانعي القرار من خلال توفير مرجعيات مستقبلية واقتراح مجموعة من الطرق الممكنة لحل المشكلات (3). وستركز الورقة على الآثار الاجتماعية والنفسية المعقدة والتي تمثل تحديات مستقبلية ذات طابع جماعي مثل التغييرات الديمغرافية وإعادة رسم الخرائط على اساس اثني ومذهبي، واتجاهات الصحة النفسية والعقلية في ظل التجارب التي عايشها سكان الموصل وأزمة الوثائق التي صدرت اثناء حكم "داعش" والقيم والثقافة التي رسختها سيطرة هذا التنظيم. ومثل هذه المهمة لن تكون سهلة في ظل عدم توافر البيانات وغياب مراكز الابحاث الاستشرافية وضعف نظم المعلومات.

أولا: التغييرات الديمغرافية

تعد التغييرات الديمغرافية من اخطر ما ستواجهه مدينة الموصل بعد زوال "داعش"، وذلك لما تتركه هذه التغييرات من آثار بعيدة المدى على تركيبة المدينة القومية والدينية، وما يرافقها من انقسامات سكانية وتقويض لقواعد العيش المشترك وانتهاكات لحقوق الانسان والشعور بالمظلومية، فضلاً عن ان هذه التغيرات ستكون من أهم اسباب عودة الصراعات وإثارة النعرات الطائفية وروح العداء.

بلغ عدد سكان الموصل قبل سيطرة داعش (3072854) نسمة يتوزع 60.7% منهم في بيئات حضرية و19.2% في الريف (4). وتمتاز المدينة بمعدلات نمو سكاني عالية نسبياً؛ اذ تحتل المرتبة السادسة بين محافظات العراق من حيث معدلات النمو تصل الى 3.2% بحسب اسقاطات السكان لعام 2007 (5). تتألف المدينة من خليط من الطوائف والإثنيات والمذاهب من مسلمين شيعة وسنة ومسيح وشبك واكراد وايزيديين وتركمان، وهو ما يعطيها وضعاً فريداً بين المحافظات العراقية الاخرى.

وعلى الرغم من عدم وجود بيانات دقيقة وموثوقة لحركة السكان في مدينة الموصل إلا ان الاحداث التي مرت بها المدينة إبان سيطرة داعش والعمليات العسكرية التي شهدتها، تتجه الى رسم تصور عما سيكون

عليه الوضع الديمغرافي للمدينة بعد تحريرها.

تشمل الازمة الديمغرافية التي ستشهدها المدينة ما يلي:

1 - انخفاضاً في النمو السكاني للمدينة وتغييرات في تركيبة الهرم السكاني نتيجة لارتفاع عدد الوفيات وانخفاض معدل الولادات والهجرة، اللتين تمثلان أحد الآثار الديمغرافية المباشرة للنزاعات المسلحة التي تشهدها المنطقة.

وتقدر بعض الجهات غير الرسمية عدد الضحايا من المدنيين الذين قتلوا بسبب الاعدامات التي قام بها "داعش" والقصف خلال العمليات العسكرية منذ كانون الاول من عام 2016 وحتى شهر شباط الماضي 1427 شخصا (6)، وهذا العدد لا يشمل الضحايا في الساحل الايمن والذي يمتاز بكثافة سكانية عالية. ويؤكد تقرير مكتب الامم المتحدة لتنسيق الشؤون الانسانية في العراق حول الوضع الانساني في الموصل الذي صدر في كانون الثاني من هذا العام، ان اعداد المصابين منذ انطلاق العمليات العسكرية في تشرين الاول عام 2016 مرتفعة جداً لا سيما في مناطق خط المواجهات العسكرية وصلت الى 817 حالة في الاسبوع (7). هذا فضلا عن الضحايا التي خلفها "داعش" خلال ما يقارب السنتين والنصف من سيطرته على الموصل. ومعظمهم من الذكور في الفئة العمرية 15 – 54 سنة، والقتلى والمعتقلين من صفوف "داعش" انفسهم الذي يشكل الموصليون منهم - وبشكل خاص المنحدرون من القرى - ما مقداره 7000 مقاتل محلي داخل مدينة الموصل، و6500 مقاتل محلي في الأقضية والنواحي (8)، ومثل هذا الوضع سيخلف وراءه تغييرا في الهرم السكاني للمدينة وانخفاضا في نسبة الذكور البالغين، فضلا عن ارتفاع كبير في نسب الفئات الهشة، (الايتام والارامل والمعوقين والمشردين والاسر التي تعيلها نساء) وهي تلك الفئات التي تعاني من قصور في إشباع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية والصحية والتعليمية، ولا تستطيع تحقيق المستوى المعيشي المعقول، وتفتقر إلى وجود مورد ثابت يساعدها في إشباع احتياجات أفرادها الرئيسة، ومن ثم تصبح تلك الفئات بحاجة إلى توفير نسق متكامل من الخدمات المادية والعينية لمواجهة متطلبات الحياة اليومية (9). حيث ستزداد اعداد النساء اللواتي يعلن الأسرة عندما يقتل معيلها، أو يعتقل، أو يختفي قسريا. ويزداد عدد الأطفال الأيتام والمشردين والعاملين، وتزداد أعداد ضحايا الحرب من الأشخاص ذوي الإعاقة وغيرهم بالإضافة إلى ملايين من النازحين واللاجئين، التي ستصبح غالبية في المجتمع الموصلي بسبب الدمار الذي لحق بها من تنظيم "داعش" ومن العمليات العسكرية.

2 - النزوح والتهجير:

دفعت سيطرة "داعش" على مدينة الموصل الى نزوح اكثر من نصف مليون شخص من داخل نينوى خلال صيف عام 2014 وبحلول نهاية 2015 وصل عدد الاسر النازحة من الموصل 175،001 بينها 32،000 اسرة نزحت داخل المحافظة ذاتها (10).

اما عدد النازحين بعد بدء العمليات العسكرية في الموصل في تشرين الثاني 2016 فقد وصل الى 135500 نازح بعد شهر واحد من بدء هذه العمليات (11).

وشهدت العديد من المناطق في الموصل نزوح سكانها خوفا من القصف والعمليات العسكرية أو بسبب الترحيل القسري، ما أدى الى اخلاء اراض ومناطق كاملة من سكانها. وبحسب بعض التقديرات، فان عدد السكان انخفض في المناطق التي سيطر عليها داعش من 60% عام 2014 الى 20% في حزيران عام 2015 (12).

ومن المتوقع ان العديد من هذه الاراضي لن تشهد عودة سكانها ولأسباب عدة بعضها تتعلق بخيار النازحين وظروفهم، والبعض الآخر يعود لأسباب جيوستراتيجية كما يسميها الباحث هشام الهاشمي.

وفي ما يتعلق بخيار النازحين انفسهم، فان نسبة كبيرة منهم سيفكرون بالانتقال الى مناطق اخرى داخل العراق لتلافي الاوضاع غير المستقرة وانعدام الخدمات، خصوصاً وان العديد منهم قد خسروا ممتلكاتهم وعقاراتهم، كما سيؤدي الدمار الذي لحق بالبنية التحتية للمدينة وتدهور الاوضاع المعيشية، فضلا عن البيوت المهدمة الى بقاء عدد منهم في حالة نزوح وداخل المخيمات بكل ما يرافق حالة التهجير من المشكلات كما حدث في حالة الانبار. إذ بقي عدد كبير من النازحين في مخيمات عامرية الفلوجة والخالدية ولم يعودوا الى مناطقهم.

وحتى بالنسبة للعائدين فان نسبة كبيرة منهم لن يعودوا الى مناطقهم الاصلية التي انحدرت منها؛ اذ يجدون أنفسهم مضطرين الى الانتقال الى مناطق اخرى اكثر استقراراً داخل المحافظة.

وتؤكد التجارب السابقة التي شهدها العراق مع النزوح خلال الاعوام 2006-2007 ان 51% من الاسر النازحة استقرت في مناطق هي ليست مناطقها الاصلية التي اتت منها قبل التهجير، وان 49% من الاسر عادت الى مناطقها الاصلية التي انحدرت منها (13).

في المقابل فان هناك مجموعات سكانية اخرى لن تتمكن من العودة الى مناطقها بسبب عمليات الترحيل والتهجير الجماعي التي ستمارس من قبل بعض الجماعات انتقاماً ممن يعتقدون انهم مناصرون وداعمون لداعش، وبهدف خلق مناطق ذات لون قومي او ديني واحد. وهو ما حدث في مناطق تلكيف وسنجار منذ تحريرها قي تشرين الثاني من عام 2015؛ إذ تقوم جماعات غير معروفة بتهجير العرب المسلمين من عشيرة الحديد الذين يمثلون اقلية داخل هذه المناطق بحسب ناشطين مدنيين.

وبشكل عام فان المناطق المتنازع عليها في الموصل بين الحكومة الاتحادية واقليم كوردستان من المحتمل ان تشهد عمليات ترحيل للعوائل العربية المسلمة، ورفض عودتها الى هذه المناطق. وسيتعرضون للطرد او هدم المنازل كما حدث في ديالى - قضاء خانقين، لغرض احداث تغيير ديمغرافي (14).

وسواء كانت الهجرة الداخلية في الموصل اختيارية او قسرية بوصفها جزءا من العقاب الجماعي او لافراغ المناطق من التنوع السكاني، فان خط الهجرة سيتوجه الى التركز في المناطق الحضرية والمدنية ذات الاغلبية العربية السنية، والابتعاد عن المناطق الريفية وهو ما سيخلق مشكلات عدة أهمها: أزمة في الخدمات والبنى التحتية نتيجة لعدم قدرة المدن على استيعاب الاعداد المتزايدة؛ إذ سيخلق التركز السكاني في المدن والحواضر والذي لا يقابله توسع في مستوى الخدمات والبرامج والخطط، ضغطاً كبيراً على المدن وزيادة في عدد ساكنيها، وستنعكس الازمة في الطلب

على المساكن وانتشار ظاهرة العشوائيات وازمة الفقر والتجاوز على الاملاك العامة. كما سيؤدي الى زيادة الطلب والتجاوز على شبكات الكهرباء والماء والطرق والمدارس والمستشفيات مما له انعكاساته على نوعية الخدمات المقدمة (15).

كما ستكون لهذه الهجرة انعكاساتها الاقتصادية على مدينة الموصل؛ إذ ستؤدي الى زيادة في حجم القوى العاملة الحضرية مقابل تناقص في حجم القوى العاملة الريفية والذي يؤدي بدوره الى اعادة توزيع العمل من الزراعة لصالح القطاعات الاخرى، ما سيخلق مشكلتين كبيرتين؛ الأولى تناقص الانتاج الزراعي. والثانية زيادة البطالة في المدن وقلة فرص الكسب الذي يهدد بالافقار (16).

3 - تغييرات في التركيبة السكانية

هناك تغيير كبير سيلحق تركيبة مدينة الموصل القومية والدينية نتيجة للنزوح والهجرة وعمليات الابادة الجامعية التي شملت الاقلية الدينية الايزيدية؛ إذ نفذت "داعش" حملة (تطهير مكاني) لإفراغ الموصل من التنوع الديني والعرقي الذي طالما كان أحد ابرز سمات المدينة الديمغرافية، وواجه كل من المسيحيين والتركمان الشيعة والشبك والايزيديين عمليات نزوح قسري بعد الانتهاكات وعمليات الابادة الجماعية التي تعرضت لها هذه المكونات.

ومع ان القسم الاكبر من الاقليات قد نزحت داخليا متجهة الى اقليم كوردستان، إلا ان اعدادا كبيرة منهم هاجرت خارج العراق، وبشكل خاص المسيحيون.

وقسم كبير من هذه المكونات النازحة داخليا لن تتمكن من العودة الى مناطقها بعد انتهاء العمليات العسكرية بسبب التهديدات الامنية التي لن تختفي والخوف من تكرار التجربة التي عاشوها في المستقبل القريب، فضلا عن الدمار الذي لحق ببيوتهم ومصادرة املاكهم وانهيار البنية التحتية في مناطقهم، مما سيهدد بانخفاض نسبة الاقليات في التركيبة السكانية للموصل بشكل عام ونسبة الاقليات الى بعضها الآخر بشكل خاص.على سبيل المثال سينخفض الوجود المسيحي وربما الايزيدي في سهل نينوى قياسا بالاقلية الشبكية والتركمانية.

4 - الانقسامات السكانية

ستؤدي الهجرة والترحيل الى خلق مناطق مغلقة ذات لون واحد تقوم على اساس اثني أو طائفي ومثل هذا الفرز السكاني سيقضي على نمط المناطق المختلطة وهو ما يساعد على ازدياد حدة التوتر وإذكاء روح العداوة والتعصب تجاه المجموعات الأخرى والمجالات الحيوية الأخرى والمناطق الأخرى (مناطق معادية – مناطق خطر – مناطق تهديد)، من جهة، ويهدد بانحسار الهوية الموصلية بل الوطنية الى مجرد هوية محلية أو طائفية يصاحب هذا الانحسار فقدان مشاعر الانتماء للوطن الكبير من جهة اخرى (17).

والحد من هذه الانقسامات يتطلب من السلطات المحلية والحكومية بذل الجهد لضمان عودة آمنة ومستدامة من خلال الحد من التوترات الاجتماعية والإصلاح الامني ووضع نظم فعالة لحل نزاعات الملكية والتعويض (18).

ثانيا: الآثار النفسية لازمة الموصل

تركت سيطرة تنظيم داعش على الموصل وما رافقها من عمليات تهجير آثارا على

البنية النفسية للموصليين وخاصة الاطفال منهم، قد تفوق الاثار المادية للدمار وانهيار البنية التحتية وتردي الاوضاع المعيشية. فالعيش في بيئة النزاع والإستراتيجية التي استخدمها تنظيم "داعش" لترهيب الناس والحاجات الطبيعية غير الملباة مثل الطعام والماء والأمن واستعمال المدنيين كدروع بشرية وتهديدهم، والانتهاكات التي تعرض لها نسبة كبيرة من السكان والبنية التحتية المدمرة، كل هذه الظروف والتجارب تنتج تأثيرات مدمرة على الصحة النفسية، فضلا عن الضغوط النفسية التي قد تؤدي في وقت لاحق الى مشاكل عقلية على المدى البعيد (19). وتشير جميع الادلة الى ان الصراعات المسلحة والعنف يزيدان من خطر انتشار الاضطرابات النفسية الخفيفة والمعتدلة من (5%-10%) فضلا عن الضغوط النفسية (20).

وعلى الرغم من صعوبة تحديد حجم الاعباء والإجهاد النفسي الذي يعاني منه سكان المناطق التي خضعت لسيطرة "داعش"، إلا ان الانتهاكات التي تعرض لها سكان الموصل والتجارب التي كان عليهم مواجهتها تشكل عوامل خطر على الصحة النفسية والعقلية للأفراد.

وقد اظهر المسح الذي اجراه الجهاز المركزي ان 3615 نازحا موصليا من الذكور 1901 من الاناث، فضلا عن 1586 طفلا ذكرا و 1542 طفلة انثى افادوا بتعرضهم لانتهاكات حقوق الانسان والمتمثلة بالتعرض للقتل والقصف والاختطاف او الاختفاء والتعرض للإساءة والتعذيب، والاستغلال والاضطهاد وهي الاعلى بين المحافظات (21).

كما تكشف التقارير والاخبار التي صدرت اثناء سيطرة "داعش" على مدينة الموصل حجم التضييق والرقابة والعقوبات التي مارسها التنظيم في مدينة الموصل والمناطق الاخرى الخاضعة لسيطرته وبشكل خاص على النساء.

وبحسب الدراسات فأن مثل هذه الحوادث والمواقف الصادمة تعد من مصادر وأسباب حدوث الصدمات النفسية والاضطرابات السلوكية والانفعالية والعقلية، التي قد لا تظهر اعراضها بعد الحدث مباشرة، بل احيانا تمتد لفترة ما بين الاشهر وربما لسنوات من الحوادث التي تعرضوا لها.

وتعد اضطرابات ما بعد الصدمة (التروما) مرضا حقيقيا يصاب به الذين عاشوا او خبروا احداثا صادمة كالحروب ومشاهد القتل والانتهاكات الجسدية، ويؤدي هذا الاضطراب الى شعور الاشخاص بالحزن والغضب والابتعاد عن ممارسة حياتهم اليومية وعملهم ويؤثر على علاقاتهم الاجتماعية (22). وفضلا عن الانتهاكات فقد واجه سكان الموصل خبرات متعددة الأوجه خلال عمليات التهجير الذي رافق سيطرة داعش على مدينة الموصل، كان لها تأثير خطر على الصحة النفسية والتكيف السلوكي.

ويعد التهجير بحد ذاته من اخطر التجارب وذلك لما يتركه من اضطرابات نفسية مصدرها الشعور بالاقتلاع وفقدان المجال الحيوي المألوف والمطمئن والعيش في مجال جديد وغريب يفتقر الى مقومات العيش البسيطة (23).

وقد كان للتهجير آثار نفسية مباشرة على نسبة كبيرة من النازحين؛ اذ بلغ عدد النازحين من مدينة الموصل الى مناطق العراق عدا اقليم كوردستان الذين يعانون من اضطرابات نفسية تتراوح ما بين خفيفة وبالغة الصعوبة ومعيقة 4016 نازحا،

لغاية نهاية عام 2014. وهي الأعلى بين محافظات العراق. وقد افاد 2118 منهم بأن سبب الاضطرابات كان النزوح، فيما اشار 121 منهم، الى ان السبب كان الحروب (24).

ولم تقتصر اثار النزاع والنزوح على المشكلات النفسية والصحة العقلية فحسب بل تعدتها الى تغييرات سلوكية بعضها ضار أو خطر؛ اذ تؤكد التقارير والدراسات التي صدرت عن منظمات دولية ان ظروف النزوح أدت الى زيادة التدخين وتعاطي الحبوب المهدئة والعنف الاسري والزواج المبكر وعمالة الاطفال والسرقة (25).

غير ان من اخطر التحديات التي سيواجهها المجتمع الموصلي هو ما سيظهر بشكل ملموس لاحقا في جيل كامل من الاطفال سيكبرون وهم يعانون من مشاكل نفسية تتراوح خطورتها بحسب قدرة الاهل على استيعاب حاجات الاطفال لتجاوز الازمة التي حلت بهم. اذ سيترك النزاع المسلح اثارا نفسية على الاطفال بعضها مباشر، يظهر على شكل صدمات نفسية ناتجة عن القلق الشديد الذي يصاحب انعدام وسائل الأمن، وعادة ما تكون اعراضه صعوبات كلام – تبول لا إرادي – خوف من الوحدة وتعلق مفرط بالوالدين – صعوبات نوم – صعوبات طعام – خوف من الأماكن الغريبة ومن الغرباء – هياج حركي وعدم استقرار – صعوبات تركيز واستيعاب وقصور الثقة بالنفس. وبعضها الآخر غير مباشر ينتج عن انعكاسات توتر الوضع الاسري على الطفل في ظل ظروف العنف والتهجير والتي تظهر على شكل احساس بالخوف والقلق من الاخطار المفاجئة. كما ان تحول العالم الخارجي من عالم مثير وجاذب للطفل الى عالم مهدد ومليء بالأخطار وانحسار المجال الحيوي وافتقاده الى المسرّات الحياتية والمثيرات الثقافية مثل الحدائق وأماكن اللعب ومناسبات التفاعل الاجتماعي، كل ذلك سيترك اثارا سلبية على نمو شخصية الطفل (26).

وعلى الرغم من عدم وجود بيانات حول مشاكل الصحة العقلية للأطفال والمراهقين في مدينة الموصل حاليا، إلا ان بعض الاحصائيات السابقة كشفت على ان 37.4% من الاطفال الذين يراجعون المراكز الصحية الاولية في الموصل يعانون من اضطرابات في الصحة العقلية ومن المتوقع ان تتضاعف هذه النسب بسبب اعمال العنف وظروف التهجير التي شهدتها المنطقة.

ويعد اضطراب ما بعد الصدمة من اكثر الاضطرابات النفسية المرجح ظهورها عند الاطفال في الموصل بالنظر الى التجارب التي عايشوها في المجتمعات التي تخوض النزاعات، وعادة ما تكون الفئات الاضعف ومنهم الاطفال اكثر عرضة للإصابة بهذه الاعراض لكونهم يظهرون تحسسا اكثر تجاه التعرض للحوادث الصادمة، مما يؤدي الى مجموعة مركبة من المشكلات النفسية. وهذا ما أكدته دراسات (بهذا الشأن) اجريت على طلاب المدارس في العراق بعد احداث 2003 اذ أظهرت ان نسبة عالية من الطلاب يعانون من اعراض ما بعد الصدمة PTSD وصلت الى 20% يرافقها مستويات مرتفعة من السلوك العدواني (27)، وتقترب هذه النسبة من المعدلات المعروفة عالميا في البلدان التي شهدت حروبا ونزاعات 25% .

ويظهر التقييم الذي اجرته منظمة اليونيسيف حول الاحتياجات النفسية للأطفال في العراق عام 2016، ان

الاطفال والمراهقين النازحين يعانون من الشعور بعدم الامان وفقدان الأمل والحزن وقلة السعادة بسبب الظروف المعيشة القاسية. اما اسباب الشعور بعدم الأمان فهي: القذائف والإطلاقات النارية وانقطاع الكهرباء والظلام وحرق الخيام وخطر السقوط من البنايات غير المكتملة والصراعات داخل المخيمات أو المناطق والتحرش الجنسي والتنمر والاعتقالات وهجمات تنظيم "داعش". وقد ضاعفت الانشطة غير المجدية وعدم الأمان والمستقبل غير المضمون من أزمتهم، وان الفتيات لديهن صعوبات بالنوم والكوابيس ويشعرن بأنهن اقل امانا داخل المخيمات، وان عدم الرضا والشعور باليأس والحزن هو السائد بين جميع المراهقين، بينما تشعر الفتيات بالتوتر والعصبية والخوف وغالبية الاطفال والمراهقين يريدون العودة الى بيوتهم ويفتقدون الاقارب والأصدقاء والجيران (28).

وعلى الرغم من خطورة التداعيات النفسية لازمة الموصل على السكان وأهمية تكثيف الجهود لتحسين خدمات الصحة النفسية، غير ان تعزيز هذه الخدمات لا يمثل أولوية لدى الجهات المعنية كما ان هناك ضعفا واضحا في الاستجابة للمشكلات النفسية واضطرابات ما بعد الصدمة في العراق عموما بسبب نقص الكوادر المؤهلة والمدربة على طرق العلاج الحديثة.

فهناك طبيب نفسي واحد لكل ربع مليون شخص واخصائي نفسي لكل مليون شخص واخصائي اجتماعي لكل نصف مليون بحسب أطلس منظمة الصحة العالمية لعام 2014 (29).

وهناك عقبتان رئيسيتان تقفان امام تحسين خدمات الصحة العقلية والدعم النفسي والاجتماعي: الاولى ضعف المؤسسات التي تقدم هذه الخدمات وقلتها. والثانية وصمة العار التي تحيط بقضايا تلقي خدمات الصحة العقلية والدعم النفسي الاجتماعي، التي تمنع الناس من طلب المساعدة. إلا ان الكثيرين قد تغلبوا على وصمة العار بوصفها عائقا بحسب منظمة اطباء بلا حدود احدى المنظمات التي تقدم الدعم النفسي للنازحين، وذلك بسبب حجم الضرر الذي تعرض له النازحون والذين عاشوا تحت حكم "داعش" والافتقار الى نُظم الدعم الاسرية والمحلية (30).

ثالثا: الثقافة والقيم التي رسخها تنظيم داعش

امتدت سيطرة "داعش" على مدينة الموصل ما يقارب السنتين والنصف، وهي فترة طويلة، استطاع خلالها التنظيم ان يبني شبكة حوكمة بهدف احكام سيطرته على السكان واستخدام استراتيجيات مختلفة لدعم رؤيته البعيدة المدى الهادفة الى تطويع السكان لضمان الامتثال لتعاليمه وقوانينه (31).

ومن بين هذه الاستراتيجيات السيطرة على التعليم والتربية، من خلال اعادة افتتاح المدارس الابتدائية بمناهج جديدة، تمجد قيم الحرب، وتغذي سلوك العدوان وتؤصل للافكار السلفية، كما الغى مواد دراسية مثل التربية الوطنية والتاريخ والجغرافية والفنون والموسيقى بهدف بناء جيل من المنغلقين ذهنيا المؤمنين بالآيديولوجيا الاصولية ويدعمونها. كما وضع في الجوامع ائمة وخطباء من عناصره المتشربين بفقه وثقافة ومصطلحات السلفية الجهادية وكانت هذه المنابر من اهم الادوات التي تضخ قيمه وافكاره. بالمقابل توقفت

الحركة الثقافية والفكرية في الموصل بعد منع التنظيم اقامة الندوات والامسيات الادبية الفكرية، ما جعل السكان يعيشون في عزلة ثقافية كبيرة تعززت مع قطع شبكات الانترنيت (32)، ومثل هذه الظروف كانت كفيلة بخلق ثقافة وقيم من الصعب تغييرها حتى بعد زوال التنظيم.

ومن اخطر هذه القيم تلك المتعلقة بالتطرف الديني، وتكفير الآخرين الذي يسوغ ليس فقط قتلهم فحسب بل بجعل قتلهم فرضا يثابون عليه بحسب السيد قطب (33)، والعداء لقيم الحداثة التي تؤسس لحقوق الناس وحرية العبادة والمساواة ما بين الجنسين، ورفض الثقافة الغربية التي تعد تعبيرا عن الحداثة.

كما اشاعت سيطرة "داعش" قيما خاصة بعزل النساء ورؤية تراتبية للعلاقة ما بين الجنسين تعزز وتكرس الهيمنة الذكورية التي كانت سائدة قبل سيطرته وتضع النساء في خانة أدنى بشكل يفوق ما كانت عليه. فعلى مدى سنتين ونصف من حكم "داعش" للموصل، كانت المرأة موضوعا مركزيا تتوجه له خطاباتهم وتنوع عليها اساليب العزل والمراقبة، بهدف اخلاء الفضاء ليصبح فضاء ذكوريا بامتياز، سيكون من الصعب على المرأة اختراقها من جديد.

ومثل هذا العزل والحجب والاحتجاز سواء في اللباس او المكان، انتج قيما اشد انغلاقا حول النوع الاجتماعي، وإشاعة مثل هذه القيم ستؤثر في مكانة المرأة وتقيد حصولها على الفرص في التعليم والعمل والمشاركة بل وحتى الرعاية الصحية، كما ستلغي وتغيب دورها ومشاركتها في بناء السلم وإعادة الاعمار بعد النزاعات التي شهدتها وستشهدها محافظة الموصل.

من جهة اخرى ظهرت مفاهيم جديدة تهدد القيم المشتركة للعدالة والسلام وكرامة الانسان، مثل القيم الخاصة بالسبي والغنائم والمكوس (اي الضرائب)؛ اذ اشاعت سيطرة "داعش" بعض القناعات التي سيكون لها انعكاساتها على الجيل الذي تربى تحت حكمه، منها ان سبي النساء غير الكتابيات (الكافرات) وبيعهن واستعبادهن هو عمل يقع في صلب الاسلام والدين، والفرهود اي الاستيلاء على ممتلكات الغير، وخاصة الاقليات من شبك ومسيحيين وايزيديين وشيعة، اصبحت بمثابة غنائم يحق للمسلمين اخذها والتصرف بها (34).

وفي الاطار ذاته فإن اعمال الابادة الجماعية التي ارتكبها "داعش" بحق الاقليات الدينية من تهجير واستيلاء على الممتلكات واستعباد النساء الأيزيديات ونقل اطفالهن الى معسكرات تجنيد الاطفال، بهدف التدمير الكلي للديانة الايزيدية، ستشكل نقطة تحول في العلاقات بين العرب السنّة والاقليات الدينية الاثنية، من شأنها ان تغذي قيم التعصب ومشاعر الكراهية بين هويات مختلفة في طبيعتها دينيا ومذهبيا واثنيا، وهو ما يترجم حاليا على شكل اعمال انتقام جماعي تقوم بها الفصائل المسلحة التابعة للاقليات الدينية ضد العرب السنّة الذين يمثلون اقليات داخل مناطقهم (35).

كما سيكون لمشاهدة اعمال القتل واعتياد منظر الجثث المرمية، عواقب على القيم التي تحمي حياة الآخرين. فعمليات الذبح والصلب وقطع الرؤوس والايادي والرمي من على البنايات، والجلد التي اجبر الناس على حضورها ومشاهدتها، ستؤدي الى بخس قيمة حياة الانسان وتجعل التجاوز عليها وهدرها امرا اعتياديا وبسيطا وممكنا

وقوعه بسهولة. كما انها تغذي وتنمي مشاعر العداء ورغبة العنف داخل من يشاهدها خصوصا مع احتمال عسكرة المنطقة خلال السنوات القادمة التي ستشيع بدورها ثقافة عسكرية تضفي الشرعية على استباحة الكثير من القيم والضوابط الناظمة للحياة الاجتماعية، كما انها تؤدي الى ارتفاع منسوب العنف لدى الافراد، بسبب ما شهدوه من عمليات قتل وحصارات.

اما الاطفال الذين شهدوا تبخيس قيمة الانسان وعبارات الحقد والكراهية بالتزامن مع مستوى التعليم المتدني بعد ان تأثر التعليم بالصراع، فإنهم مهيئون اكثر من غيرهم لممارسة العنف.

ويشكل موضوع "اشبال الخلافة" او امداد الخلافة وهو برنامج يدرب من خلاله تنظيم "داعش" الاطفال على القتال، من اكبر التحديات التي ستستمر تداعياتها لسنوات طويلة بعد زوال التنظيم ما لم يتم ايجاد حلول جذرية لها. فقد كان من أولويات تنظيم "داعش" بناء جيل من الفتيان الذين يدعمون آيديولوجيته لذلك سعى الى تأسيس منظومة تعليم غير رسمية تتألف من مخيمات للتدريب العسكري، تساعد على تدريب جيل جديد من المقاتلين وتعمل كإطار لعمل الاطفال في صفوف التنظيم في المناطق التي خضعت لسيطرته وتنفيذ مهمات عسكرية مثل ارسال المواد المتفجرة ونقل المعلومات الاستخباراتية وتنفيذ التفجيرات الانتحارية (36).

وقدرت منظمات معنية بحقوق الانسان اعداد الاطفال الذين تم تجنيدهم ما بين 800 – 900 طفل في العام 2015 معظمهم من الايتام وأطفال الاقليات الذين تم اختطافهم أو قتلت وسبيت عوائلهم، أو صبية يتم التقاطهم من ساحات اللعب والطرقات وترغيبهم من خلال عناصر داعش بالانضمام لهذه المعسكرات، وقد افتتح التنظيم مكاتب عديدة مهمتها تجنيد الاطفال سميت اشبال الخلافة.

ويقسم الاطفال ضمن برنامج اشبال الخلافة الى مجموعتين؛ الاولى تضم الفئات العمرية من 5 – 10 سنوات، يتلقى خلالها الاطفال الفكر الديني. والثانية من عمر 11 – 15 سنة؛ حيث يتلقون التدريب على القتال وزرع العبوات الناسفة في معسكرات خاصة (37).

والأطفال الذين جندوا هم ضحايا بالدرجة الأولى وان لتجنيدهم في القتال اثارا نفسية خطيرة على المدى البعيد على الاطفال انفسهم، فضلا عن الخطورة على المجتمع فهم مشروع مقاتلين وأعضاء في عصابات. وتشكل مهمة اعادة دمجهم في المجتمع خطوة بالغة التعقيد.

وتتطلب مواجهة الاطفال المجندين في تنظيم "داعش" الرصد والتوثيق والدراسة لحجم وعدد الاطفال وطرق ودوافع مشاركتهم. كما ان على الحكومة ومنظمات المجتمع المدني اعداد برامج علاجية وتأهيلية لإعادة دمج هؤلاء الاطفال قبل ان يتحولوا الى عناصر في تنظيم أكثر خطورة.

رابعا: مشكلة الوثائق التي صدرت إبان حكم داعش

الوثائق التي صدرت اثناء حكم "داعش" لمدينة الموصل زهاء العامين والنصف ستكون من اهم التحديات ذات الآثار الاجتماعية وربما النفسية في مرحلة ما بعد داعش. فجميع عقود الزواج ووقائع الموت والولادة غير المثبتة في سجلات القيد الرسمية وكل معاملات البيع حتى تلك التي

جرت ضمن صفقات طبيعية سوف لن تعترف بها الحكومة بحسب ما صرحت به جهات رسمية. مما سيخلق ارباكا كبيرا ومشكلات كثيرة قد تصل الى نزاعات بين المتضررين، فضلا عن التكلفة المادية وتبعات مراجعات الدوائر والمحاكم والضغط على الدوائر الرسمية التي ستواجهه ومنذ الان وضعا قانونيا صعبا لا تعرف كيفية التعامل معه في ظل عدم وجود قوانين او تعليمات تتصدى لهذا الوضع الاستثنائي (38).

وتمثل جنسية الاطفال (هوية الاحوال المدنية) واحدة من اهم التحديات التي ستواجه الاطفال المولودين اثناء سيطرة داعش؛ اذ تمتنع الحكومة عن اصدار اوراق ثبوتية لهؤلاء الاطفال بحجة انهم قد يكونوا من عائلات "داعش" (39)، هو ما سيخلق ازمة انسانية وانتهاكا لحقوق هؤلاء الاطفال.

يضاف الى ذلك الاطفال الذين ولدوا اثناء النزوح ولم تصدر لهم شهادة ميلاد بسبب رفض بعض مناطق اقليم كوردستان (السليمانية تحديدا) اصدار شهادات ميلادهم لمنع تسجيلهم في داخل هذه المحافظة، وتتم احالتهم بدلا من ذلك الى كركوك للحصول على شهادة، ما جعل الاسر تعزف عن محاولة اصدار جنسية، بسبب الكلفة المادية التي لا يستطيع النازح تحمل اعبائها (40). مثل هذه الحالات وغيرها تهدد بأن يصبح هؤلاء الاطفال بلا جنسية ويحرمون من حقوقهم في الرعاية الصحية والتعليم، وسيكبرون دون ان يكون لهم اي وجود رسمي في سجلات الدولة وبلا حقوق واوراق ثبوتية تثبت هويتهم (41).

إلا ان المشكلة الاكبر ستواجه الاطفال المولودين عن الزواج بعناصر التنظيم (الذين لم تقدر اعدادهم بعد). فخلال اكثر من عامين ونصف تم عقد عشرات وربما المئات من الزيجات بين نساء عراقيات ومقاتلي التنظيم سواء كانوا اجانب ام عراقيين. والعديد من هذه الزيجات جرى بالإكراه. ومع ان الزواج اثناء سيطرة "داعش" كان يعقد داخل محاكم "شرعية" حيث انشأ التنظيم 7 محاكم موزعة على انحاء متعددة من محافظة الموصل، وخصص لها قضاة عرب واجانب، إلا ان من المستبعد جدا ان تعترف الجهات الرسمية بهذه الزيجات أو تقوم باثباتها. في المقابل لا نتوقع ان تحاول الامهات تسجيلهم خوفا من ملاحقة الجهات الامنية لهن بتهمة التواطؤ مع "داعش"، مما سيترك الاطفال وامهاتهم امام مشاكل جمة، فهؤلاء الاطفال (ضحايا تزويج النساء من عناصر داعش) سيحرمون من حقوقهم في التعليم والرعاية الصحية والارث، وسيصبحون من الناحية الاجتماعية اطفالا غير شرعيين ويتعرضون للنبذ الاجتماعي ويعانون من الوصمة الاجتماعية بأنهم لقطاء (كما حدث في ديالى والرمادي إبان سيطرة "القاعدة" في الاعوام 2006 و2007، وهو ما قد يجعلهم عرضة للاستغلال ويهيئهم ليكونوا اشد عدائية وشعورا بالظلم والكره للمجتمع والدولة. وسيهدد بانخراطهم في مجموعات ارهابية ما لم يتم احتضانهم واحتضان عوائلهم وتقديم الرعاية لهم.

على الدولة ان تستحدث قوانين جديدة لتكيف قوانينها بشكل يضمن الاعتراف بهؤلاء الاطفال (ضحايا زواج العراقيات من عناصر داعش) وبمنحهم الجنسية العراقية بما يمكنهم من الحصول على حقوقهم الاساسية ويضمن لهم حياة وتنشئة سوية حتى لا يكبروا ليصبحوا جيلا في تنظيم جديد اشد تطرفا من تنظيم "داعش".

التوصيات:

– ان الحلول الامنية غير كافية للقضاء على التطرف، وان مواجهة التطرف لا تتم إلا من خلال حلول تتعامل مع جذور المشكلة والأسباب التي أدت إليه.

– رفع مستوى التنمية وتنفيذ خطة التنمية المكانية لمحافظة نينوى 2010 – 2020.

– ضمان التحاق جميع الاطفال والطلاب المتسربين من الدراسة بمدارسهم والاستثمار في التعليم من خلال خلق بيئة جاذبة للطلاب. فالمدرسة لا يقتصر دورها على انتاج رأس مال معرفي وثقافي وإنما ايضا انتاج رأسمال اجتماعي؛ فهي معنية برعاية وتنمية قيم المواطنة والانتماء. وتسهم في اثراء المجتمع ككل عبر تعزيز مقومات نموه وأمنه وقيمه وقدرته على تجاوز التحديات.

– برز "داعش" في سياقات اجتماعية كان يشعر خلالها (العرب السنّة) في العراق بالمظلومية وبسياسات تمييزية ضدهم وهناك حاجة الآن لإرساء مفاهيم سياسية جديدة وتمثيل سكان هذه المناطق وتمكينهم من ادارة مناطقهم.

– ضمان عودة النازحين الطوعية لمناطقهم الاصلية والتأكيد على ذلك في جميع الاتفاقيات والتسويات السياسية.

– حماية الممتلكات الخاصة والمحافظة على مستندات الملكية وإيجاد بدائل قانونية للحفاظ على صلاحيتها.

– التخلّص من تبعات تجنيد الاطفال "اشبال الخلافة" وهذا يستدعي وضع خطط فاعلة لإعادة تأهيلهم، وإعادة تنشأتهم فكريا من خلال إعادة صقل مفاهيمهم الدينية وغيرها من القيم الإنسانية والاجتماعية وضمان انخراطهم في المجالات الاجتماعية بغية بناء ذاتهم من جديد.

الهوامش:

(1) مركز سيسفار لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الاقليات: أزمة النزوح في العراق الامن والحماية، 2016.

(2) ابتهاج يونس: الاستشراف الحاجة والمعوقات. متاح على الرابط
http://alroya.om/ar/understanding/123699

(3) المصدر السابق نفسه.

(4) مضر خليل عمر: تقييم البيئة المحلية في محافظة نينوى في ضوء أهداف الالفية الثالثة. متاح على الرابط –www.muthar alomar.com

(5) حازم داود سالم: التباين المكاني لمعدلات النمو السكاني في العراق للمدة 1977 – 2007، مجلة كلية الاداب، العدد 98.

(6) مقابلة مع مصطفى سعدون، مدير المرصد العراقي لحقوق الانسان بثته قناة العربية الحدث في 21 شباط 2017.

(7) مكتب الامم المتحدة لتنسيق الشؤون الانسانية في العراق: الاستجابة الانسانية للموصل، تقرير الوضع الانساني رقم 152 (8 كانون الثاني/ يناير 2017).

(8) فايز الدويري: معركة الموصل.. الأطراف المشاركة والتداعيات المنتظرة، متاح على الرابط.http://www.aljazeera.net/home/print/6c87b8ad

(9) احمد رضوان: مفهوم الفئات الاولى بالرعاية متاح على الرابط التالي:
https://ar-ar.facebook.com/socilogy/posts/414507195256910

(10) مركز سيسفار لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الاقليات: أزمة النزوح في العراق الامن والحماية، مصدر سابق.

(11) مكتب الامم المتحدة لتنسيق الشؤون الانسانية في العراق: الاستجابة الانسانية للموصل، مصدر سابق.

(12) مجموعة باحثين: النزوح الكبير أزمة النازحين في العراق بعد حرب داعش، مركز بلادي للدراسات والابحاث (بغداد 2016) ص86.

(13) اللجنة الوطنية للسياسات السكانية: تحليل الوضع السكاني في العراق 2012، التقرير الوطني الثاني حول السكان بغداد 2012.

(14) مركز سيسفار لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الاقليات: أزمة النزوح في العراق الامن والحماية، مصدر سابق.

(15) مجموعة باحثين: النزوح الكبير، مصدر سابق ص65.

(16) اللجنة الوطنية للسياسات السكانية: تحليل الوضع السكاني في العراق 2012، مصدر سابق.

(17) كامل مهنا: لا مكان للأطفال في الحرب "حالة لبنان"، بحث ألقي في عمان، تشرين الثاني 2008، فندق كمبنسكي. متاح على الرابط www.amel.org.lb

(18) مركز سيسفار لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الاقليات: أزمة النزوح في العراق الامن والحماية، مصدر سابق.

(19) منظمة الأمم المتحدة للطفولة: تقييم الاحتياجات النفسية – الاجتماعية في العراق، التقرير النهائي آب 2016.

(20) المفوضية السامية لشؤون اللاجئين 2013.

(21) وزارة التخطيط الجهاز المركزي للإحصاء: المسح الوطني للنازحين في العراق 2014: بغداد 2015 ط2.

(22) ناتالي دير ساهاغيان: ما هي اضطرابات ما بعد الصدمة. متاح على الرابط /.../afkar.omsar.gov.lb/English/Documents/Intervention%20Nathaly%20(Arabic).doc

(23) كامل مهنا: لا مكان للأطفال في الحرب "حالة لبنان"، مصدر سابق.

(24) وزارة التخطيط الجهاز المركزي للاحصاء: المسح الوطني للنازحين في العراق 2014، مصدر سابق.

(25) منظمة الأمم المتحدة للطفولة: تقييم الاحتياجات النفسية – الاجتماعية في العراق، مصدر سابق.

(26) كامل مهنا: لا مكان للأطفال في الحرب "حالة لبنان"، مصدر سابق.

(27) أحمد لطيف جاسم: اضطرابات ما بعد الضغوط الصدمية وعلاقته بالسلوك العدواني لدى تلاميذ المدارس الابتدائية، مجلة الاداب، العدد 106 سنة 2013.

(28) منظمة الأمم المتحدة للطفولة: تقييم الاحتياجات النفسية – الاجتماعية في العراق، مصدر سابق.

(29) المصدر السابق نفسه.

(30) تنامي مشكلات الصحة النفسية في العراق. متاح على الرابط: http://www.irinnews.org/ar/تحقيق/16/01/2017/تنامي مشكلات الصحة النفسية في العراق.

(31) لينا الخطيب: استراتيجية تنظيم الدولة الاسلامية – باقية وتتمدد. معهد كارينجي للدراسات 2015.

(32) ذونون... الموصل بين احتلالين 2016.

(33) جيم مويربي بي سي نيوز: تنظيم "الدولة الإسلامية": القصة الكاملة. متاح على الرابط: www.bbc.com/arabic/middleeast/2016/04/160427_islamic_state_group_full_story

(34) ذونون... الموصل بين احتلالين 2016.

(35) مركز سيسفار لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الاقليات: أزمة النزوح في العراق الامن والحماية، مصدر سابق.

(36) داعش صورة عن تنظيم ارهابي.

(37) المؤسسة العراقية للتنمية: ترسيخ افكار التطرف لدى الاطفال من خلال التأثيرات والتغييرات النفسية. تقرير 2016.

(38) وثائق داعش: جريدة الشرق الاوسط. متاح على الرابط:
http://aawsat.com/home/article/788471/ وثائق/ داعش.

(39) المصدر السابق نفسه.

(40) مركز سيسفار لحقوق المدنيين والمجموعة الدولية لحقوق الاقليات: أزمة النزوح في العراق الامن والحماية، مصدر سابق.

(41) دلوفان برواري وسلام جهاد، أطفال مقاتلي القاعدة في العراق: ضحايا بلا هوية يهددون بظهور جيل جديد من المتطرفين. جريدة الحياة اللندنية 2012.

حوكمة الحكومة وإمكانية مكافحة الفساد الاداري والمالي

أ. د. حاكم محسن محمد الربيعي

حاكم محسن الربيعي دكتوراه في فلسفة إدارة الأعمال، عمل رئيسا لقسم إدارة الاعمال – كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة كربلاء لمدة ثمان سنوات، وعميدا للكلية لمدة زادت على خمس سنوات. عضو الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية في القاهرة، وجمعية الاقتصاديين العراقيين والنقابة الوطنية للصحفيين العراقيين. شارك في العديد من المؤتمرات العلمية العربية والدولية. كما نشر اكثر من 80 بحثا ودراسة ومقالة في مجلات محلية وعربية ودولية. وله خمسة مؤلفات في حقل الاختصاص. أشرف الدكتور الربيعي على العديد من اطاريح الدكتوراه والماجستير، وهو عضو العديد من الهيئات الاستشارية في مجلات مختلفة.

مقدمة:

الحوكمة هي مدخل يركز على الضبط الذاتي وفقا للأسس والمبادئ الأخلاقية، والالتزام بالقوانين والتعليمات المنظمة لمختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، وان أي منظومة تقوم بالعمل وفقا لهذه الأسس سيكون ما لها النجاح في العمل وتحقيق الأهداف المطلوبة طالما هي سائرة في الطريق السليم، ويمكنها من الاستغلال الكفوء للموارد الاقتصادية المتاحة ووفق منهاج استثماري رشيد يعكس نتائجه على جميع جوانب الاقتصاد الوطني، ويشعر المواطن بالثقة في ما تقوم به الحكومة من إجراءات باعتبارها المسؤولة عن إدارة الاقتصاد الوطني بكفاءة وتحقيق نتائج ملموسه في الارتقاء بمستويات الرفاه الاقتصادي والاجتماعي للناس. وبالمقابل سيؤدي عدم الضبط وعدم التحكم بجوانب وأركان الحوكمة وإتاحة حرية التلاعب بمصالح الشعب ستكون له ابعاد خطيرة على الحكومات، و يؤدي الى اثارة الاحتجاجات والتظاهرات من قبل الشعب بسبب تلاعب في أمواله العامة دون حساب وبسبب ذلك معاناته من الفقر والعوز المادي، وبروز البطالة كظاهرة عامة في البلد. وكثيرا ما عملت مشكلة البطالة على اهتزاز كيان الحكومات، حيث تواجه الشعوب مشكلات وتحديات كبيرة يصعب على هذه الشعوب القضاء عليها في المدى القصير، لاسيما اذا كانت هذه المشكلات والتحديات متأصلة في أصحاب القرار النافذ، وبالتالي تتأثر توجهات الدولة في مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، مما ينعكس أيضا على الشعوب ذاتها، لاسيما اذا كانت

الحكومات لا تعير اهتماما للحوكمة بأبعادها المؤسساتية مما يؤدي الى التراجع السياسي والاقتصادي والاجتماعي ويعرض الدولة الى مشكلات مجتمعية متفاقمة، ابرزها الفساد الإداري والمالي وما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة. لذلك يحتاج هذا الموضوع رغم كثرة ما كتب عنه الى استمرار المتابعة وتذكير اصحاب الشأن من اجل الوصول الى نتائج ايجابية. وتأتي اهمية ما يتناوله هذا الموضوع ليس على مستوى منظمات الاعمال فقط بل وعلى مستوى الحكومات وبالتالي ان حوكمة الحكومات سبيل الوصول الى النجاح في انتهاج سياسات اقتصادية واجتماعية وثقافية ناجحة تعكس نتائج ايجابية على شعوب هذه الدول، مما يوفر الرضا والولاء لمواطني الدول التي تعمل وفقا لسياسات الحوكمة والضبط الذاتي حسب التشريعات القانونية المنظمة للحياة الاقتصادية والاجتماعية. لذا سيتم تسليط الضوء على الالتزامات الحكومية تجاه الشعب في أي دولة كانت باعتبارها الهيئة الفوقية المسؤولة عن إدارة الدولة، بمختلف أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفقا للدستور والقوانين الصادرة فيها والمستندة الى الدستور، مما يشكل التزاما أخلاقيا على الحكومة ان تعالج المشاكل التي تظهر في أجهزتها الإدارية وبالتالي ستكون البداية في الضبط الحكومي باتجاه الإصلاح والقضاء على الظواهر الشاذة، كظاهرة الفساد الإداري والمالي التي أصبحت مشكلة تعاني منها اغلب الدول وبنسب متفاوتة، وربما في بعضها اصبحت او تصبح كثقافة سائدة وهذا هو الاخطر في موضوع الفساد بكل اشكاله.

اولا - الحوكمة:

أ. مفهوم الحوكمة: هي الاحتكام الى التشريعات القانونية السائدة، في إدارة الاعمال والنشاطات الاقتصادية سواء اكان ذلك في القطاع الحكومي المركزي او مؤسسات القطاع العام ولا يقتصر ذلك على أجهزة الدولة بل يشمل أيضا القطاع الخاص الذي يجب ان يعمل وفقا لسياسة الدولة العامة، وهي تشريعات أصدرتها الحكومة ويفترض ان تكون حريصة على تطبيقها وإلزام كل الوحدات الاقتصادية والمؤسسات بتطبيقها (1).

وان العمل على وفق قواعد وابعاد الحوكمة له نتائج إيجابية على كافة المستويات وإشاعة العدالة الاجتماعية من خلال التطبيق السليم لقواعد وأبعاد الحوكمة، اذ ان مجمل الابعاد والمبادئ تؤكد على الرؤية السياسية للحكومة وعلى الشراكة وسيادة القانون والسيطرة على الفساد والمسائلة والمحاسبة، وهي مجموعة الابعاد المؤسسية للحوكمة.

ب - الابعاد المؤسسية للحوكمه: للحوكمة المؤسسية ستة ابعاد هي:

1 - الرؤية السياسية والاقتصادية: (Political and Economic Vision)

يفترض ان تكون للحكومات ايا كان مصدر ورودها الى السلطة رؤية سياسية واقتصادية مبنية على مذهب سياسي واقتصادي تبين النهج والسياسة التي يستلزم من الحكومة السير في إدارة البلاد وفقا لها، وتتضح هذه الرؤية من خلال برامج توضع لبناء الديمقراطية وبناء اقتصاد فاعل وخال من الفساد الإداري والمالي، ومن خلال اتاحة الفرصة للجميع ممن تتوفر فيهم شروط الترشيح والانتخاب كل في مجاله لضمان الكادر الذي تحتاج اليه الحكومات لا إدارة الموارد الاقتصادية بأحكام وانضباط دون تشويه او هدر للمال العام.

2 - التصويت والمساءلة
(Voice and accountability)

يقاس هذا البعد من الناحية السياسية من خلال مستوى تمتع الشعب في دولة معينة بالحقوق الانتخابية، بما فيها الترشيح والتصويت، لمن تتوفر فيه شروط الترشيح كما توضحها التشريعات القانونية مع الاستفادة من تجارب الدول الديمقراطية في كيفية التعامل مع الناس في موضوع حيوي كهذا. وهو موضوع حيوي ويجب ان يتلازم مع الشفافية والنزاهة لضمان الحيادية في فرز النتائج الانتخابية، ولإرساء المساءلة والشفافية في الحكومة سواء الداخلية او الخارجية الضاغطة والتي تظهر اليها الحاجة من خلال اطار التعاون بين الإدارات العليا وعامة الشعب من خلال الضغط الجماهيري (2).

3 - الاستقرار السياسي والعنف
(Political Instability and violence)

الاستقرار السياسي وغياب العنف من متطلبات الحياة السياسية المستقرة وعامل ضمان للوحدة الوطنية، اذ ان هذا الاستقرار يعني غياب الصراعات السياسية والحزبية والدينية وإشاعة الامن والأمان بين الناس، فكثيرا ما تنعكس الخلافات على الناس بنتائج سلبية، لذا يعد الاحتكام الى الدساتير التي أعدتها الحكومات ذاتها يجنب هذه الجهات الانتهاكات والاضرار المترتبة على ذلك.

4 - فعالية الحكومة
(Government effectiveness)

فعالية الحكومة تقاس بمستوى كفاءتها وقدرتها على تقديم الخدمات العامة للشعب. ومن خلال التحقق مما قدمته الحكومات لشعوبها حيث أظهرت بعض الدراسات وفي بعض الدول العربية مثلا ان الانفاق على التسليح فاق الانفاق على الخدمات العامة بأضعاف فأين هذه الحكومات من دساتير هي شرعتها وضمّنتها حقوق الناس في عيش مرفه وإدارة فاعلة للموارد الاقتصادية. ان فعالية الحكومة تأتي من خلال تعزيز الديمقراطية، ومن خلال حكومة ديمقراطية لها قوة الالزام للمؤسسات الحكومية في الدولة (3).

5 - العبء التنظيمي
(Regulatory burden)

هو عبارة عن سياسات الحكومة المتعلقة بالسياسات الاقتصادية والسوق وما ينطوي عليه هذا المفهوم من حيث علاقته بالتجارة الداخلية والتجارة الخارجية وانعكاس هذا النشاط ككل على الاقتصاد الوطني بقطاعاته المختلفة من حيث التنظيم والإدارة. وان هذا العبء يحتاج الى جهود متميزة من اطر كفوءة وذات خبرة لتسهيل تنفيذ المهمات المتعلقة بهذا النشاط.

6 - سلطة القانون – (Rule of Law)

ان سيادة القانون وفرض سلطة القانون وسيادته على الجميع تحتكم في النزاعات الى القانون في حالة وجود النزاعات، مؤشر على ان هناك دولة مؤسسات تمارس مهامها من خلال دوائر او مؤسسات متخصصة وذات الصلة بفرض القانون كالشرطة والمحاكم و مدى قدرتها على ردع العنف والتقليل من الجرائم او القضاء عليها.

7 - السيطرة على الفساد
(Control of corruption)

بما في ذلك حلقات الفساد الكبيرة والصغيرة والاستيلاء على الدولة. فهي ممارسة السلطة العامة لتحقيق مكاسب او منا فع معينة ذات صلة بالمنفعة (4)، وبالتالي فان السيطرة على الفساد يكسب الدولة الهيبة

والسيادة والاعتبار، باعتبارها الضامنة لحقوق الشعب والمحافظة على المال العام الذي هو مال الشعب. وهو بُعد من أبعاد الحوكمة الهامه.

ج- مقومات الحوكمة:

طالما ان الحوكمة تعني الانضباط في السلوك السياسي والمالي والإداري، لذا تحتاج الحوكمة الى مقومات داعمة لمسيرة النشاط المحوكم حيث الحوكمة الجيدة تلعب دورا مهما في عملية التطور والتنمية والى معايير عالية في مجالي الإفصاح والشفافية وبالتالي يجب توفر مجموعة من المقومات:

- المشروعية السياسية المتزامنة مع الديمقراطية والانتخابية:

في النظم الديمقراطية، تقوم الحكومات بأجراء انتخابات حرة وديمقراطية بعيدة عن التزوير، وهذا يكسب الحكومات الشرعية القانونية، وفي هذه الحالة هي ليست حكومة جاءت بانقلاب عسكري او وراثي، وانما بانتخاب ديمقراطي ويعني ذلك انها حظيت بالنسبة الأكبر من مجموع الشعب في بلد ما. لأنه ليس هناك حكومة تحظى بقبول عام من الشعب مهما بلغت من درجة الكمال هناك من تتعارض أفكارهم ورؤاهم عن السلطة او الحكومة، وفي هذه الحالة يمكن ان تكون هذه الجماعات معارضة في نظام ديمقراطي.

- المساءلة:

مهما بلغت حرية الانسان وتوفرت له الديمقراطية هناك من يخطئ، و يترتب على هذا الخطأ أبعاد او آثار سلبية أحيانا تكون آثارها كبيرة لا تنعكس على فرد او جهة معينة وإنما على شعب بكاملة، كسرقة المال العام وان تفشي مثل هذه الظاهرة ينعكس على التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي تعطيلها تماما كما حصل في بعض الدول منها دول عربية، لذا ان المساءلة للفاسدين وفقا للقانون ستكون له آثار إيجابية في التقليل من ظاهرة الفساد وردع الفاسدين.

- الشفافية:

الشفافية ليست مهمة صعبة على الناس العاملين في الدولة ومؤسساتها المختلفة، بل هي تعبير عن مصداقية وثقة لمن يمارسها في عمله وكشف للمعلومات والبيانات التي تحتاج اليها الجهات الرقابية او الدوائر المسؤولة والأعلى في المسؤولية والتدرج الإداري، وهي من ناحية أخرى تشخيص للأخطاء وإبلاغ المخطئ الذي يتلقاها بروح وطنية ويقبلها ويعمل على معالجتها. ان ذلك يوفر القناعة والرضا لدى الجهات المعنية في المسئولية ويوفر الثقة للناس في الجهات التي تمارس الشفافية.

- الرقابة الداخلية والخارجية:

الرقابة أداة متعارف عليها في كل المفاصل وفي كل دولة وتعني بالمطابقة بين الأداء المتحقق والمخطط بكل مؤشراته وأدواته وهو داخلي وخارجي. نعم، هو كذلك في كل دولة، رقابة داخلية من داخل منظمات الاعمال ذاتها ورقابة خارجية من خارج هذه المنظمات، وهناك رقابة على الدولة من منظمات دولية كمنظمات الشفافية الدولية وحقوق الانسان وان الاخلال بأي منها يضع الدولة في خانة الدول الخارجة عن السياق الدولي المقبول ليس في مجال معين وإنما في مختلف المجالات.

- استخدام وسائل فعالة لمحاربة الإرهاب

تفشى الإرهاب في بعض الدول وان ابرز حالة هي حالة الدول العربية ضمن ما سمي بالربيع العربي الذي اخرج بعضها من التصنيفات الدولية في مجالات مختلفة. وبفعل قوى دولية ارادت لهذه الدول ان تكون

كذلك رغم احقية شعوبها في التغيير ولكن ليست بالطريقة التي يريدها الآخرون حيث الاقتتال للوصول الى السلطة. ولذلك ينبغي على الحكومات إعادة النظر في سياساتها تجاه شعوبها أولا والنظر في وضع الخطط اللازمة لردع الإرهاب ثانيا ولكن ابرز ما يجب عمله هو تعزيز الوحدة الوطنية.

ثانيا: الفساد المالي والإداري

أ- مفهوم الفساد المالي والإداري

1 – مفهوم الفساد: الفساد مشكلة تواجه جميع الحكومات في أي مستوى من مستوياتها، ويعرف بأنه، إساءة الموظف العام لاستخدام الوظيفة العامة او المركز الوظيفي لتحقيق منافع ذاتية او خاصة له او لا صدقائه او لجماعة سياسية يرتبط بها. وترتبط بضعف الحوكمة، أي حيث يوجد الفساد معنى ذلك ان الحوكمة ليس بالمستوى الجيد وبالتالي عندما تكون الحوكمة ليست بمستوى القوة يعني ذلك توفر بيئة مناسبة للفساد.

وينطوي الفساد الحكومي على ثلاث طبقات واسعة هي:

1–1 – الفساد داخل النظام السياسي وعلى نطاق واسع ويشمل غياب متطلبات الديمقراطية الانتخابية واستخدام او اعتماد المحسوبية في اغتنام الفرص وتوزيعها وفق أسلوب المحاباة السياسية والحزبية والاجتماعية ويبرز دافع الدعاية الانتخابية في مقدمة أسبابها. ان ارتفاع مستويات الفساد تقلل النمو الاقتصادي ويشوه تحصيل الإيرادات وأداء الحكومة بطرق مختلفة.

1 – 2 – الفساد في القطاع العام – يركز هذا الفساد على ثلاث مشاكل هي: تحديد الأداء المتلكئ وتشخيص العاملين الذين يثبت تقصيرهم وكذلك تحديد السلوك اللامشروع، والمشتريات الحكومية التي تشوبها الشكوك بقانونيتها.

1 – 3 – الفساد في مؤسسات محدودة، هو فساد متفشي في مؤسسات او منظمات بشكل منفرد او لحالات معينة لكن الفساد فيها له نتائج عكسية وسلبية بشكل واضح ومؤثر.

1. ابعاد الفساد:

2 – 1 البعد السياسي

Political dimension: البعد السياسي يستمد قوته او ضعفه من قوة وضعف الحكومات، وبمعنى آخر ان الحكومات القوية لا يمكن للفساد ان يظهر او ينموا معها بفضل سلطة قانون سائدة وتطبق احكام القوانين بشكل سليم دون تلكؤ ودون خوف من أي جهة كانت ويستند ذلك على قوة الحكومة والقانون السائد، عكس الحكومات التي تكون الى جانب قوتها قوة أخرى داخل البلد وفي بعض الحالات تكون هناك تغطية سياسية لهذه القوة وينتج ذلك التنافس السياسي بين اطراف متعددة.

2–2 البعد الاقتصادي

Economical dimension: ان البعد الاقتصادي للفساد يتضح فيما يتركه من اثار ونتائج عكسية على مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية، كما تشير الى ذلك تقارير البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وقد اتضح ذلك في بعض البلدان التي تعرضت الى تغيير نظم الحكم فيها وتسلط نظم جديدة فيها ليست لها الخبرة والدراية في إدارة الدولة، الامر الذي أدى ازدياد حجم الانفاق فيها بشكل كبير حيث زاد على حجم الإيرادات، مما أدى الى شكل حركة التنمية وتقلص الإيرادات فيها وتردي مستويات المعيشة وتراجع مستوى الخدمات. وقد

يثير ذلك غضب الجماهير وربما يؤدي الى التظاهر ضد سياسة الحكومة، كما حصل في بعض دول الشرق الاوسط وشمال افريقيا.

2 – 3 – البعد الاجتماعي Social dimension: تقاليد وعادات المجتمع لها اثر واضح في سلوك افراد المجتمع وبالتالي لها قوة النهي عما هو خلافي للمجتمع ويتعارض مع تقاليده وسلوكياته التي ترفض مظاهر الفساد الاداري والمالي. ووفقا لذلك يفترض ان يكون مجتمع من هذا النوع متحصن أخلاقيا وسلوكيا مع مساهمة فاعلة من بعض الجهات المعنية بتأطير ثقافة راعية للنزاهة ومقاومة للفساد الإداري والمالي، وتعزيز ثقافة رعاية مصلحة الدولة باعتبار المال العام هو للجميع، وبالتالي اهمال المحافظة عليه لها نتائج عكسية على الفئات الفقيرة في المجتمع وذلك بتعطل برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية (5).

2 – 4 البعد الثقافي Cultural dimension: الثقافة تراث حضاري ومعرفي للشعوب وبشكل يميزها عن غيرها من الشعوب الأخرى، كما ارتبطت بالحضارة وتشير الى ما هو مثالي او يقترب من المثالية وبمعنى اخر ما يجمع عليه المجتمع ولذلك تصنف المجتمعات بان هذا المجتمع مجتمع بدوي وآخر يطلق عليه مجتمع ريفي، وثالث يقال عنه انه مجتمع حضاري، مع الاختلافات بين هذه المجتمعات، فما هو مقبول في المجتمع الحضري قد لا يكون مقبولا في المجتمع الريفي وبالعكس ما يكون مقبولا في المجتمع البدوي ربما يكون غير مقبول في المجتمع الريفي.

وخلاصة القول: لكل مجتمع من هذه المجتمعات ثقافته وبالتالي هناك خلاف في مستويات القبول والرفض لبعض الظواهر، فبعض الشعوب تنظر للفاسدين بازدراء.

أنواع الفساد المالي والإداري:

1 - الفساد المالي:

1-1 الرشوة Bribery:

الرشوة هي الحصول على مقابل من قبل شخص يسهل قضاء عمل معين لشخص او جماعة أخرى هي المنتفعة، وبمعنى آخر هو اتفاق بين طرفين احدهما المنتفع من الرشوة (المستلم) والطرف الاخر (المسلم) للرشوة، وكليهما منتفع ولكن الأخير اذعن لتسليم الرشوة وقد يكون حصوله على الخدمة التي قدم عنها الرشوة مقابل الحصول عليها هي حق قانوني له ولكن المسؤول اصر على عدم تسهيل استلامها إلا بمقابل أو قد يكون ليس ذات حق لمسلم الرشوة المنتفع منها والذي قدم الرشوة. ومثل هذه الحالات شائعة في بلدان تعرضت الى الاحتلال والتغير في أنظمة الحكم فيها، بحيث اصبح الفساد ظاهرة.

1 - 2 الابتزاز Extortion:

الابتزاز هو تهديد من شخص او جماعة تشترك بالابتزاز لا اشخاص او شخص معين بان المهدد او المهددين سيكشفون معلومات بحوزتهم تخص عمل قام به الشخص المهدد او يتعلق بسيرته الماضية مثلا، مما يترتب عليه آثار قد تكون مؤثرة بشكل كبير في مسيرته او حياته الوظيفية ومثل هذه الحالات أيضا شائعة حتى في البلدان المتقدمة. وربما الكشف عن هذه المعلومات يصب في مصلحة الدولة ولكن المبتز يبقى يبتز الشخص المعني مقابل مبلغ من المال وربما أشياء عينية ثمينة وبالتالي هي تعد أيضا رشوة ولكنها على نحو اخر.

1 - 3 الاحتيال Fraud:

الاحتيال او النصب هو تضليل الضحية بمعلومات غير صحيحة بهدف الحصول على منافع سواء أكانت مالية أو مادية بمختلف اشكالها كالاحتيال في المؤسسات العامة

او دوائر الدولة وذلك بتضليل المسؤول او لجان معينة من اجل الكسب المادي او الحصول على منفعة معينة كالحصول على وظيفة قد تكون هي استحقاق لآخر، والاحتيال يأخذ اشكال مختلفة واصبحت اكثر شيوعا مع تطور الاتصالات وتطور اجهزه الاتصالات.

1 - 4 محاباة الأقارب Nepotism :

محاباة الأقارب هي واحدة من اشكال الفساد الإداري التي تمكن الأقارب من الحصول على ما ليس لهم فيه حق بفعل محاباة المسؤول مع هذه الجماعات نتيجة صلات القربة بين المسؤول وهذه الجماعة المستفيدة. وعلى هذا النحو أصبحت بعض دوائر ومؤسسات بعض الدول وكأنها مؤسسات عائلية وذات صلات مجتمعية في غياب المحاسبة وضعف دور القضاء الذي كان احد أسبابه هو احتواء القضاء من قبل الحكومات واشتراك اغلبية أعضاء الحكومة في الفساد.

1 - 5 استغلال النفوذ
Influence peddling:

احد أوجه الفساد الإداري والمالي، هو استغلال المسؤول في أي موقع كان لنفوذه من خلال وظيفته التي يشغلها وعلى مستوى قيادات ولاسيما من الجماعات التي تتولى مسئوليات ذات صلة بالمشروعات الاستثمارية او الخدمية او الاستيراد او التصدير او مقاولات او غير ذلك، فيعمل المسئول على استغلال نفوذه وتمكين آخرين هم ليسوا افضل من غيرهم وربما غيرهم، هم الأفضل بالوصول الى هذه المشروعات واحالتها عليهم وبالتأكيد لن يكون ذلك امرا سليما بل يتعارض مع القوانين والتعليمات المنظمة. ولكن هناك جهات داعمة او حامية. وقد عرف البنك الدولي الفساد بانه "إساءة استعمال الوظيفة العامة" (6).

1 - 6 الاختلاس Embezzlement :

الاختلاس يرتبط بشاغلي الوظيفة العامة والذين بحوزتهم المال العام، يرتكب البعض ممن بحوزتهم المال العام جريمة اختلاس مبالغ من المال العام ، وقد حدثت حالات كثيرة ولم يشمل البعض العقاب، ان اختلاس المال العام ليس جديدا بل تمت الإشارة اليه منذ زمن بعيد، لذك تضمنت شريعة حمورابي مواد قانونية صارمة ضد مرتكبي جرائم الفساد.

1 - 7 تزوير السجلات
of Falsification Records:

يميل البعض من المسؤولين عن مسك السجلات الى التزوير كطريقة للحصول على المال فيعمل على تزويرها وربما استبدالها ليظهر الرصيد خلافا للرصيد الحقيقي، وهذه طريقة شائعة ومعروفة في بلدان الشرق الأوسط. وهي جريمة حالها حال جرائم الفساد المنوه عنها في الفقرات السابقة، لكنها من جرائم الفساد الشائعة.

1 - 8 العمولات Kickbacks :

العمولات يطلبها طرف معين من طرف آخر لقاء تسهيل او تقديم خدمة معينة او تسهيل رسو مزايدة او مناقصة على طرف يرغب الحصول عليها لذلك يلجا الى منح العمولة الى شخص باستطاعته تقديم التسهيلات ممن مارس هذا العمل لعدة سنوات فأصبحت لديه الخبرة التي تمكنه من الحصول على العمولات التي تصل أحيانا الى ارقام خيالية، وكثيرا ما تحصل في مشروعات الاستثمار العامة وهي مشروعات الانفاق العام، وبالتالي قد تتعرض الى الاستغلال من قبل جماعات سياسية او دينية (7) .

2 - النتائج المترتبة على الفساد

الفساد مشكلة من مشاكل الأجهزة الإدارية في مختلف الدول، وان اختلفت هذه الدول في مستوياته، لكنه ومهما كان مستواه يعد آفة المجتمعات الحديثة، لتأثيره في مجالات مختلفة، واهم المجالات التي تتأثر هي التالية:

- انحسار الاستثمارات المحلية والأجنبية: يعكس الفساد اثاره على تقليص المشروعات الاستثمارية بسبب انخفاض مستوى التمويل الناتج عن هدر المال العام بأحد اشكال الهدر وهو الفساد الإداري والمالي. ومن ثم تردد المستثمرين عن الاستثمار الذي يكثر فيه الفساد.
- تأثر التنمية الاقتصادية والاجتماعية: بالتأكيد انحسار الاستثمارات يعكس اثره على برامج التنمية، وهناك حالات عديدة حصلت في بعض الدول.
- ازدياد معدلات البطالة بسبب انخفاض التوسع في المشاريع الصناعية والإنتاجية.
- ارتفاع مستوى الفقر نتيجة فقدان فرص التوظيف.
- انخفاض مستوى الخدمات - تركز اغلب الحكومات الانفاق على الدفاع ولذلك يفوق الانفاق على الختمات وهذا يعني تدني مستوى الخدمات التي يحتاج اليها المواطنين.
- تقييد نمو القطاع الخاص - يأتي تأثر القطاع الخاص كحصيلة لشيوع ظاهرة الفساد، لأن الانفاق الحكومي على مستوى الدولة يؤثر على كل القطاعات ومنها القطاع الخاص.
- اضعاف سيادة القانون - شيوع ظاهرة الفساد يشير الى ضعف سيادة القانون، وهذا يخرج الدولة من ان تكون دولة المؤسسات (8)، حيث لا سيادة للقانون.

رابعا: الخلاصة والاستنتاجات

هنالك قواعد ومبادئ للحوكمة في مختلف البلدان، وتستند هذه القواعد الى التشريعات القانونية، ابرزها الدساتير والقوانين الصادرة بموجبها، ولكن هذه القواعد تحتاج الى تفعيل ويعنى بالتفعيل تطبيق هذه القواعد والأحكام التي تضمنتها التشريعات القانونية. يترتب على ذلك انكماش لفرص التنمية الاقتصادية والاجتماعية بسبب تفاقم الفساد لغياب المحاسبة باعتبارها احد ابعاد الحوكمة التي تساهم بتفعيلها، حيث يتوقف تنفيذ المشروعات التي تم البدء بتنفيذها. والأمر الآخر لن تكون هناك مشروعات جديدة لعدم توفر التمويل بسبب هدر المال العام الناتج عن تفشي الفساد. حيث ان ظهور الفساد الإداري والمالي وتفاقمه دون تطبيق للتشريعات القانونية، ربما يتحول الى ظاهرة وثقافة مجتمعية، تعكس آثارها بشكل سلبي على المجتمع بالكامل. مما يؤدي كما ذكر الى انكماش فرص التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي عدم وجود مشروعات استثمارية وعدم توفر فرص عمل سيزيد من تعاظم ظاهرة البطالة وهي ظاهرة لها ابعاد خطيرة، من حيث ازدياد الجرائم باختلاف اشكالها وقد اكدت الكثير من الدراسات على ذلك. ان عدم الالتزام بقواعد الحوكمة ومبادئها من جانب مختلف مؤسسات الدولة او ضعف الالتزام سيضاعف الفساد المالي والإداري، ويهمش دور المؤسسات الرقابية. ويأتي هذا التهميش أحيانا من دوائر ذات شان كبير في اتخاذ القرارات، الامر الذي يوجب على الدوائر المعنية ان تراعي امكانية العمل على ما يأتي:

1. إعادة هيكلة الأجهزة الإدارية التي تعاني من مشاكل خارجه عن الضبط والاستحكام

السلوكي المخالف للتشريعات القانونية.
2. إشاعة ثقافة الحوكمة في عموم مؤسسات الدولة المختلفة سواء اكانت تشريعية او قضائية او تنفيذية.
3. تفعيل دور المؤسسات الرقابية، كدواوين الرقابة المالية وهيئات النزاهة والشفافية لتأخذ دورها كل في مجال عملها.
4. تفعيل دور القضاء في محاسبة المتجاوزين على قواعد ومبادئ الحوكمة، اذ تعد المحاسبة احد ابعاد الحوكمة المهمة، وفي جميع المجالات.
5. تكريم المؤسسات المتميزة في تطبيق قواعد ومبادئ الحوكمة ودعمها ماليا ومعنويا ليكون حافزا للمؤسسات الأخرى.

مراجع البحث

1 – الربيعي، حاكم محسن محمد. حوكمة الحكومة والحكم الرشيد، مجلة "الثقافة الجديدة"، العدد 383، تموز/2016، ص 18–9.

2– Prevention : An Effective Tool to Reduce Corruption Global program، AGA، AGAINST Corruption، Conferences، 1999.UN .

3–Ministry of Foreign affairs، Denmark ، good Governance Support Program m 2008=2013، May، 2008

4– Balba ، Jenny& Medallak.M ،Erlinda، Anti–Corruptions and Governance : The Philippine Experience، APEC، study Center Consortium Conference ، Ho chiminn City، Vietnam–22–24 ، May، 2006

5 – زين الدين وجابر، بروش .دهيمي، دور اليات الحوكمة في الحد من الفساد المالي والإداري – الملتقى الوطني – حوكمة الشركات كآلية للحد من الفساد المالي والإداري، جامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر.

6 – بوعشة مبارك، الميكافيلية والفساد الاجتماعي، الفساد اشكاله وطرق معالجته، مجلة "البحوث والدراسات الإنسانية"، الجزائر، العدد 1 2007.

7–Vitao، Tanzi، Governance، Corruption ، and public Finance : An overview، 2013.

8 – الربيعي والاسدي، حاكم محسن محمد . بشرى محمد سامي، الفساد الإداري والمالي واثاره الاقتصادية والاجتماعية، مجلة "المستقبل العربي"، عدد آذار 2013.

علاقات الإنتاج.. مدخل في المفاهيم والمنهجية

د. مجيد مسعود

الدكتور مجيد مسعود، حاصل على درجة الدكتوراه في التخطيط الاقتصادي من جامعة براغ عام 1968. عمل خبيراً لدى هيئة تخطيط الدولة في سورية، ثم عضواً في الهيئة التدريسية في جامعة وهران في الجزائر، وعضواً في الهيئة العلمية في المعهد العربي للتخطيط بالكويت. كما عمل خبيراً لدى الأمانة العامة لمجلس التخطيط في قطر، ومديرا تنفيذياً لدار المدى للثقافة والنشر في دمشق. صدر له عدد من الكتب في التنمية والتخطيط.

الظواهر الاقتصادية – الاجتماعية تجسدها مفاهيم تُعبر عن وجود مادي في الواقع الذي نعيشه. ولاسيما الجانب الذي يهمنا في هذا السياق، وهو علاقات الناس فيما بينهم من خلال الأشياء المادية الملموسة أثناء عملية الإنتاج وتوزيع وتبادل ثمراته.

ومن متابعتنا لمجرى أو مسار التطور العام، يمكن أن نلاحظ بأن العمل قد كان وما يزال ضرورة حياتية، لايمكن للناس الاستمرار بدونه في جميع الأساليب الإنتاجية. إلا أن شكله وظروفه هي التي تتغيّر، وذلك تبعاً لتبدل أشكال تنظيم وتوزيع الأنشطة الإنتاجية والتوزيعية، أي بتبدل تقسيم العمل في المجتمع. فالجانب الفني منه يعمق التخصص ويّولد فروعاً جديدة باستمرار، بينما الجانب الاجتماعي لتقسيم العمل يفرز التناقض المحرك للتغيير الاجتماعي. وبالتالي يمكن القول بأن هذه المفاهيم تتغير كلما حصل تغير من أسلوب إنتاجي إلى أسلوب إنتاجي آخر.

وقبل توضيح ما نعنيه بعلاقات الإنتاج، في ظروفنا الراهنة بوجه خاص، نحاول التعرف بالمنظار الشمولي الى مكانة هذا المفهوم في مجموعة المفاهيم المتسقة معه في إطار التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية، كما هو مبيّن في الشكل المبسط التالي لغرض الإيضاح (1):

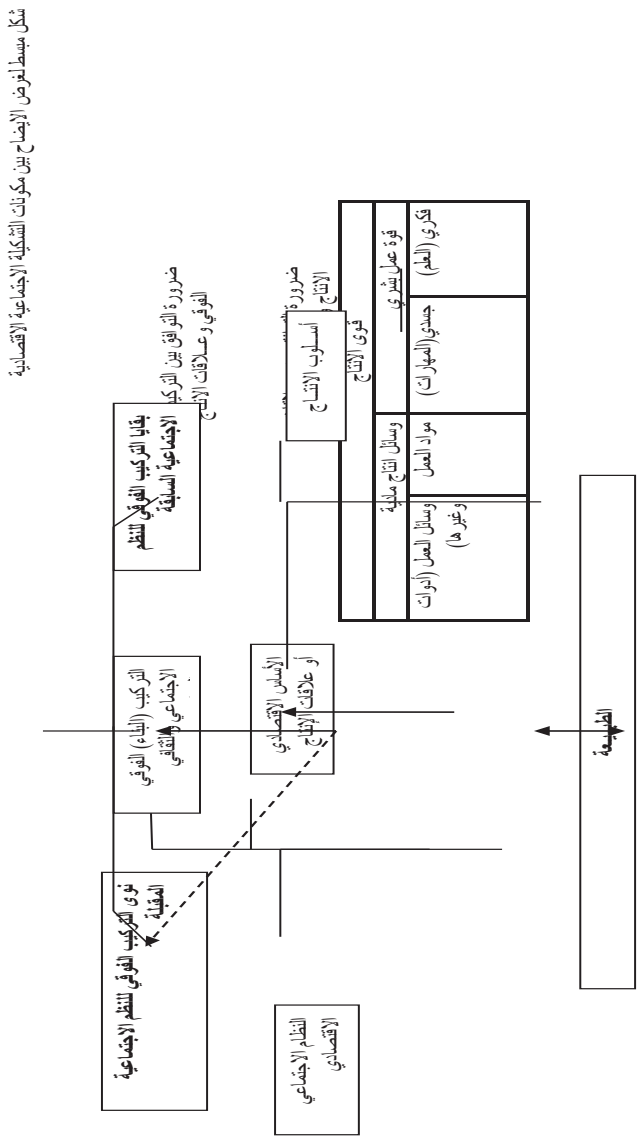

إن العنصر البشري، أي قوة العمل الفكري والجسدي، والعنصر المادي، أي وسائل العمل، لابد من توحيدهما، كما هو مبيّن في الشكل التوضيحي، باعتبارهما قوى الإنتاج، وذلك لكي تتحقق عملية النشاط الإنتاجي المجتمعي، التي تختصر بمفهوم الإنتاج.

وقد اختلف مضمون وشكل هذا التوحيد عبر مراحل التاريخ المختلفة، ومن هذا الاختلاف تولّد تنوّع أساليب الإنتاج، وبالتالي اختلاف التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية.

إن العمل البشري كان وما يزال وسيظل هو الأساس وهو السبب في وجود معظم

هذه الخيرات (الطيبات) المادية والخدمية والثقافية التي تُجسد حاجات الإنسان الفردية والمجتمعية.

وقد كانت النقلة النوعية من أسلوب إنتاجي إلى آخر قد تحققت، وعبر مرحلة انتقالية دائماً ، بفعل عوامل عديدة ، كان أهمها التطور النوعي في أدوات العمل المادية، والتي هي من عمل الإنسان.

وفي هذا السياق استنتج كارل ماركس: "بأن العلاقات الاجتماعية مرتبطة أوثق ارتباط بقوى الإنتاج، فإذا أصبح في أيدى الناس قوى إنتاجية جديدة، تغيرت طريقة إنتاجهم وتغيرت بالتالي طريقة ربحهم ومعيشتهم، وتغيرت كذلك علاقتهم الاجتماعية" (2).

ويمكن أن نلاحظ وللأخيرة تأثير في الأولى كذلك ضمن هذه العلاقة الجدلية المتبادلة.

وهذه الحقيقة كان قد اشار إليها عبد الرحمن بن خلدون (1332 – 1406) في مقدمته بقوله: "إن أحوال العالم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال"، مُعللاً ذلك بقوله: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش" (3).

ونظراً لهذا التدويل المتزايد للاقتصاد، نجد أن المعرقل لتطور قوانا الانتاجية المحلية في اقتصادنا الريعي، يتمثل بالعلاقات الانتاجية المحلية المتخلفة، والعلاقات الانتاجية مع الخارج غير المتكافئة في إطار تقسيم العمل الدولي الراهن. فالعلاج مطلوب على الصعيدين المحلي والخارجي.

ولمزيد من الايضاح حول مفهوم علاقات الإنتاج، فإننا نلاحظ بأن الناس (افراد المجتمع) لهم حاجات متعددة من حيث كمها ونوعها وهي تتطور وفقاً لمستوى تطور المجتمع، حيث "الحضارة تخلق حاجات" كما أكد ذلك عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته. ويقابل هذه الحاجات وسط جغرافي محدود نسبياً، لأسباب طبيعية مكانية وزمانية أو لعوامل تنظيمية. وللحصول على هذه الحاجات من الطبيعة وتحويرها بشكل يلائم استعمالهم الفردي والمجتمعي نراهم يندفعون إلى العمل المنتج. فيدخلون سوية باحتكاك مع الطبيعة، مؤثرين فيها ومتأثرين بها. وكلما تطور هؤلاء الناس المنتجون وتطور عملهم وتطورت وسائل عملهم وخبراتهم التطبيقية، تزداد سيطرتهم على الطبيعة، بشرط المحافظة على نظافة البيئة وحقوق الأجيال القادمة بهذه المصادر الطبيعية.

وهؤلاء الناس (أفراد المجتمع) يعمل بعضهم لبعض، ويعتمد نجاح عمل الفرد على عمل الآخرين. ولهذا نراهم يدخلون في علاقات اجتماعية اقتصادية متباينة، تعكس التعاون أو الاكراه حسب نوع علاقات الملكية السائدة وتقسيم العمل خلال عمليات سياق الانتاج وتجديده، أي خلال الانتاج وتوزيعه وتبادله واستهلاكه، وهي التي نعنيها هنا مجتمعة بعلاقات الانتاج. أن مالكي وسائل الانتاج هم الذين يقررون أهداف الانتاج ووسائله والتحكم في توزيع ثماره. وبالتالي فهم يقررون أهداف نشاط العاملين المحرومين من ملكية وسائل الانتاج.

وهذه العلاقات التي قد تبدو وكأنها بين الانسان والشيء (السلعة)، إلا أنها في الواقع علاقة اجتماعية بين الإنسان والإنسان من خلال الشيء.

وتظهر هذه العلاقات في العملية الاقتصادية باعتبارها الربّاط بين العمل المصروف وكمية المنتجات الناشئة، أي إنتاجية العمل، كما وتظهر في عملية التوزيع بوصفها الرباط بين الحاجات البشرية والمنتجات

المتنوعة باعتبارها تعبر عن منفعة أو قيمة استعمالية (4) .

إن العامل الحاسم في قيام أو انهيار أي علاقات إنتاج، وبصورة أوسع أي نظام اجتماعي، هو عامل انتاجية العمل البشري، باعتبار أن النظام الذي يوفر بعلاقاته الانتاجية، إنتاجية عمل تفوق ما كان يوفره النظام القديم، فيكون هو النظام الاكثر قبولاً للتقدم الاقتصادي والاجتماعي، كما كتب الفقيد الدكتور فؤاد مرسى، وأضاف بأنه قد كان الشكل الاقتصادي المعني الذي يستوعب به الفائض الاقتصادي أم يختص به العمل الفائض وغير المدفوع أجره، الذي يؤديه المنتجون المباشرون، يحدد العلاقة المباشرة بين مالكي وسائل الانتاج والمنتجين المباشرين (5).

من الممكن أن نستنتج مما تقدم بأن العلاقة الاجتماعية الاقتصادية المتبادلة التي تستند أساساً على العمل وشكل الاستحواذ على ثمراته، أي بتعبير اقتصادي حقوقي غالب هو الملكية لوسائل الانتاج كعلاقة اجتماعية.

ولكن مع اهمية العامل الاقتصادي، كما يوضح انجلز: "أن التطور السياسي والحقوقي والفلسفي والديني والأدبي والفني والخ، يرتكز على التطور الاقتصادي. ولكنها جميعاً تؤثر كذلك بعضها في بعض وفي البناء التحتي الاقتصادي. ولكن ليس من الصحيح إطلاقاً أن الوضع الاقتصادي وحده دون غيره هو السبب، وإنه هو وحده دون غيره الفعال، بينما الباقي كله لا يعدو أن يكون نتيجة منفعلة. كلا فهنا يوجد تفاعل على أساس الضرورة الاقتصادية التي تشق لنفسها دائماً طريقاً في آخر المطاف" (6).

لقد أصبح للدولة في الوقت الراهن، من خلال قدرتها التشريعية دور متزايد في التأثير على علاقات العمل. ويمكن أن يزداد هذا الدور الايجابي، كلما كان الانسجام مُتوفراً مع نقابات العمال والمنظمات المهنية الأخرى، ومع بقية منظمات المجتمع المدني المعنية بهذا الشأن، لصالح العاملين، عمالاً وفلاحين، وفي بقية مواقع العمل الانتاجي والخدمي الأخرى.

المراجع:

1 – أوسكار لانجه، الاقتصاد السياسي، ترجمة الدكتور محمد سلمان حسن، دار الطليعة، بيروت، 1967، ص 91.

ملاحظة: أخذ هذا الشكل من الاصل بتصرف، لغرض الإيضاح.

2 – الدكتور فؤاد مرسي، التخلف والتنمية – دراسة في التطور الاقتصادي، دار الوحدة، بيروت 1982.

ملاحظة: النص أصلاً من كتاب كارل ماركس "الرأسمال" نقلاً عن الدكتور فؤاد مرسي.

3 – ابن عمار الصغير، التفكير العلمي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1971.

4 – اوسكار لانجه، مصدر سبق ذكره، ص 70 – 71.

5 – الدكتور فؤاد مرسي، مصدر سبق ذكره ، ص 205.

6 – سربست نبي، كارل ماركس – مسألة الدين، قدم له د. نصر حامد أبو زيد، دار كنعان للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق 2002م.

ملاحظة: النص مستمد من رسالة انجلز إلى بور غيوس بتاريخ 25 يناير 1894، ملحق 5، ص 326.

* د. مجيد مسعود، علاقات الانتاج والاعتماد على الذات في الوطن العربي، من اصدارات المعهد العربي للتخطيط بالكويت، الناشر: دار الشباب للنشر والترجمة والتوزيع، قبرص 1987.

ملاحظة: بعض الأفكار عن تعريف علاقات الانتاج مستمدة بتصرف من هذا المصدر.

دور القائد في صنع السياسة الخارجية

د. أثير ناظم الجاسور
كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية

الدكتور أَثير ناظم الجاسور، من مواليد 1982، **بكالوريوس علوم سياسية/ كلية العلوم السياسية/ جامعة بغداد** (2004)، **ودبلوم عالي علوم سياسية/ معهد البحوث والدراسات العربية/ جامعة الدول العربية/ القاهرة** (2007)، **ماجستير علوم سياسية من المعهد أعلاه** (2008). **حاصل على دكتوراه علوم سياسية/ كلية العلوم السياسية/ جامعة بغداد** (2014). **وهو تدريسي في كلية العلوم السياسية/ قسم السياسة الخارجية والعلاقات الدولية/ الجامعة المستنصرية منذ عام** 2010. **نشر الدكتور الجاسور العديد من المقالات والدراسات والابحاث سواء في العراق أو في بعض البلدان العربية. كما انه عضو في العديد من اللجان داخل الكلية وخارجها، ومشارك في العديد من الحلقات النقاشية. وهو أيضا مدير تحرير "المجلة السياسية والدولية" التي تصدر عن كلية العلوم السياسية/ الجامعة المستنصرية. آخر اعماله، كتابه الموسوم: (التصدع الكبير: استراتيجية حلف شمال الاطلسي تجاه منطقة البلقان)، الصادر في عام** 2015.

المقدمة

تتطلب عملية صنع القرار في السياسة الخارجية متمرسين محترفين ذوي خبرة عالية ودراية وأن يكونوا على قدر من المسؤولية لترجمة الافعال وردود الافعال والعمل على كيفية التأقلم مع الاحداث الدولية والاقليمية التي بدورها تحدد مسارات عمل الدول. كما يجب ان يكونوا مدركين لمفهوم الصراع وبناء الاستراتيجيات لا سيما الاستراتيجيات التي ترسم خرائط طريق وطنية، وتترجم مخرجاتها من خلال القرارات المتخذة من قبل صانعيها لتعكس حالة الوعي السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يتمتع به المسؤول من خلال وضع مقدمات سليمة للعمل السياسي الخارجي وتفاعله مع البيئات المحيطة به بمختلف اشكاله وتوجهاته لتكون تلك القرارات حاضرة تضع خطوطاً عريضة لمنهاج محدد تسير عليه الدولة وفق معايير تحددها الاولويات والاهداف التي ترغب الدول في تحقيقها. بالتالي فأن أولويات القائد هي تامين اراضي بلده وابعاده عن التهديدات الخارجية من خلال السيطرة على الداخل بما يتوافق مع متطلبات المجتمع واعداد

الظروف الملائمة لتحقيق الخطط المتاحة التنفيذ ودعم العلاقات الدولية من خلال المساهمين في علمية صنعها.
في هذه الدراسة سوف نتطرق للبحث حول توضيح مفاهيم السياسة الخارجية وصنع السياسة الخارجية وتحسينها بين جميع الاطراف واتخاذ القرار، من ثم التطرق لدور القائد واهميته في عملية صنع القرار في السياسة الخارجية.

1 – مفهوم السياسة الخارجية.
لقد قدم الكثير من الباحثين تعاريف حول السياسة الخارجية، البعض حدد هذا المفهوم والبعض الاخر اتفقوا على ان السياسة الخارجية لا يجمعها تعريف محدد. أما الدكتور محمد السيد سليم فقد قدم موضوع التحليل العلمي للسياسة الخارجية الذي تضمن ابعاداً اساسية وهي وصف ظاهرة السياسة الخارجية التي ترصد الابعاد الاساسية المكونة لظاهرة العمل السياسي الخارجي، انطلاقاً من ابعاد محددة سلفاً، وتفسير السياسة الخارجية الذي من خلاله يكون التفسير العلمي لها في صلب علم السياسة الخارجية من خلال تحديد مجموعة من المتغيرات التي تؤثر على السياسة الخارجية، وصياغة السياسة الخارجية بمعنى الصياغة الايديولوجية للأهداف والتحديد الفني للوسائل (1).
إن الكثير من الدراسات قد خلطت بين السياسة الخارجية والعلاقات الدولية وقد عرف البعض العلاقات الدولية على أنها "المجموع الاجمالي للسياسة الخارجية لكل الدول أو على الاقل لدول تعنيهم من الناحية العملية" ، وإن السياسة الخارجية لهذه الدولة أو تلك لها جذورها الداخلية بغض النظر عن مدى البعد الدولي عن هذه السياسة، عدا إن السياسة الخارجية تصنع من داخل الدولة بينما العلاقات الدولية تجري خارج إطار الدولة (2). أما (جيمس روزيناو) فيعرف السياسة الخارجية على أنها "تلك التي تعني بالتصرفات السلطوية التي تتخذها الحكومات أو تلتزم باتخاذها أما للمحافظة على الجوانب المرغوبة في البيئة الدولية أو لتغيير الجوانب غير المرغوب فيها" (3)، في حين عرفها محمد السيد سليم بأنها "برنامج العمل العلني الذي يختاره الممثلون الرسميون للوحدة الدولية من بين مجموعة من البدائل البرنامجية المتاحة من أجل تحقيق أهداف محددة في المحيط الخارجي" (4).

وهناك ثلاث مقاربات للسياسة الخارجية هي (5):
1 – ترى ان السياسة الخارجية ما هي إلا رد فعل نظام فرعي على النظام السياسي الدولي، ويتبنى ذلك الرأي (مرتن كابلان)، (ريتشارد روزكرانس) و (مودولسكي).
2 – هذه المقاربة تحاول الربط بين مخرجات سلوك نظام السياسة الخارجية بالمدخلات التي تأتيه من المحيطين الداخلي والخارجي للدولة، وترى أن عملية اتخاذ القرار في السياسة الخارجية تحدث داخل علبة سوداء*.
3 – وركزت هذه المقاربة على جانب واحد من نظام السياسة الخارجية ولجأت إلى بناء نماذج لجزء من النظام وذلك من أجل الوصول إلى بناء معرفة تجريبية حول الجزء من النظام وكذلك حول العلاقات بين مكونات النظام ككل.

السياسة الخارجية لبلد ما هي مجموعة الأهداف السياسية التي تحدد كيفية تواصل هذا البلد مع البلدان الأخرى في العالم. وبشكل عام تسعى الدول عبر سياساتها الخارجية إلى حماية مصالحها الوطنية وأمنها الداخلي وأهدافها الفكرية الأيديولوجية وازدهارها الاقتصادي، وقد تحقق الدولة هذا الهدف عبر التعاون السلمي مع الأمم الأخرى أو عبر الحرب والعدوان والاستغلال للشعوب الأخرى، وقد شهد القرن العشرون ارتفاعاً ملحوظاً في درجة أهمية السياسة الخارجية وأصبحت كل دول العالم اليوم تعتمد التواصل والتفاعل مع أية دولة أخرى بواسطة صيغة دبلوماسية ما، ويتولى تحديد السياسة الخارجية للبلد رئيس هذا البلد أو رئيس الوزراء (6).

اما الدكتور احمد النعيمي فيعرف السياسة الخارجية على أن " السياسة الخارجية لأي دولة تعكس وجود عملية ديناميكية تأخذ بالاعتبار المصلحة القومية والظروف البيئية والدولية، والتي تترجم إلى واقع ملموس ومن خلال الاداة الدبلوماسية"، أما الدكتور فاضل زكي فيعرف السياسة الخارجية على أنها "الخطة التي ترسم العلاقات الخارجية لدولة مع غيرها من الدول" (7)، ويعرف حامد ربيع السياسة الخارجية على انها "جميع صور النشاط الخارجي حتى لو لم تصدر عن الدولة كحقيقة نظامية، إن نشاط الجماعة كوجود حضاري أو التعبيرات الذاتية كصور فردية للحركة الخارجية تنطوي وتندرج تحت هذا الباب الواسع الذي نطلق عليه اسم السياسة الخارجية (8).

2 - اتخاذ وصنع القرار

في مرحلة من مراحل التحول في البيئتين الاقليمية والدولية هنا تحدد لكل دولة استراتيجيتها التي تتضمن الاهداف الموضوعة بغية تحقيق مجموعة من المصالح الوطنية، ويتم ذلك وفق الامكانات المتاحة للدولة المادية منها والمعنوية. وعملية اتخاذ القرار هي أن يصل متخذ القرار سواء كان فرداً أو بالتعاون مع مجموعة من المؤسسات الحكومية وغير الحكومية من أجل التوصل لمجموعة من القرارات بعد طرح البدائل المعقولة لغرض تحقيق الهدف المنشود.

واتخاذ القرار هو عملية الاختيار بين عدد من البدائل المتاحة التي تتسم بعدم اليقينية، لكن هذا لا يعني أن صانع القرار يضع أمامه سلسلة من البدائل ويبدأ بدراسة آثار كل منها طبقاً لمقاييس محددة، حيث أن البدائل في السياسة الخارجية تكون محدودة بل ربما لا يكون هناك بدائل وأن جوهر نظرية اتخاذ القرار تشير إلى أن الاختيار بين عدد من الممكنات لا على اساس تجريدي ولكن على اساس عملي مرتبط بالظروف القائمة (9). ان نظرية اتخاذ القرار ليست بالجديدة على حقل العلوم السياسية، فقبل 24 قرناً كتب المؤرخ اليوناني (ثوكوديدس) عن حرب البلوبونيز حول العوامل التي تؤثر على زعماء المدن اليونانية لاختيار قرار الحرب والسلام أو التحالف أو بناء الامبراطورية طبقاً للظروف التي تواجههم، وبالتالي فان (ثوكوديدس) يُعد أول من كتب في نظرية اتخاذ القرار (10).

وعند البحث حول اتخاذ أو صنع القرار يجب أن نميز بين عملية صنع القرار وعملية إعداد القرار، فعملية صنع القرار

ناتجة عن اختيار خطة ضمن عدد محدود وذوي طابع اجتماعي من البدائل التي تهدف إلى صياغة وتحديد الموضوعات المستقبلية التي يعالجها صانع القرار، وهي المرحلة المحورية في العلمية السياسية، أما عملية اعداد القرار فتشير إلى وضع منهج للنشاط الاداري والعلمي بغية تحقيق الاهداف الوطنية بحيث يشمل هذا المنهج تحديداً زمنياً لتحقيق هذه الاهداف (11).

على هذا الاساس يمكن اعتبار عملية صنع القرار بانها وظيفة من وظائف هيئة معينة ويتشكل سلوك او حركة النظام طبقاً لهذه الوظيفة. ويجب الاشارة إلى التباين الحاصل بين الانظمة الشمولية والديمقراطية، وحتى في الانظمة الديمقراطية نجد هناك تباينا في اتخاذ القرار. وقد حدد ديفيد استون في البحث عن التوزيع السلطوي للقيم في المجتمع وهو في الواقع جوهر عملية اتخاذ القرار، فقد تطورت هذه النظرية بعد التأثر بأفكار عصر التنوير ومبدأ النفعية عند (بنثام) من خلال التركيز على العقل والتعلم، واختيار القرار لدى الفرد وانطلاقاً من ذلك كان يعتبر الفرد عقلانياً إذا كان على وعي بالبدائل المتاحة أمامه وكان قادراً على تحديد النتائج المترتبة على كل منها (12).

ان لكل نظام سياسي اسلوبه في اختيار قراراته وهناك طرق مختلفة حسب طبيعة النظام وهذا بالتأكيد ينعكس على سلوك صانع القرار على اعتباره يتأثر بالبيئة التي يعمل بها وما تتضمنه من واقع اجتماعي وسياسي واقتصادي، ويدخل ضمن متغيرات داخلية وخارجية (13). إن صناع القرار يتأثرون بشكل بديهي بالبيئة التي تحيط بهم سواء الداخلية أو الخارجية ووفقاً للظروف والمعطيات التي تحتم عليهم اتخاذ القرار على الرغم من أن قد تكون البدائل شحيحة أو غير موجودة تبعاً لمقتضيات المرحلة التي يتطلب فيها من صانع القرار اتخاذ قراره بما يتماشى مع واقعه الاقليمي والدولي، وأن صانعي القرارات في اختيارهم للسياسات لا يختارون من بين كل السياسات البديلة الممكنة، انما المنظور من البدائل يكون اختيارهم على اعتبارها الاكثر قبولاً من بين كل السياسات (14)، ويتبين أن الدقة والخبرة والتجربة مطلوبة لاتخاذ القرار وصنعه. فصنع القرار يعني تحديد البدائل للحركة المتاحة لمواجهة المشكلة أو موقف معين. وجوهر تلك العملية يتمثل في الوظيفة المعلوماتية للأجهزة السياسية المسؤولة عن توصيل المعلومات، والتقارير الكامنة والسليمة إلى أجهزة اتخاذ القرار في التوقيت السليم والملائم (15).

إن صناعة القرار السياسي الخارجي تتطلب من صانع القرار أن يكون له تصور واضح عن الواقع الذي يحيط به وفق قراءة متأنية ومنطقية وعلمية وتجمع بين الخبرة والكفاءة والتراكم المعرفي والتجارب التي خاضها صانع القرار، إلى جانب معرفته التامة لقدراته وقدرات دولته خصوصاً وإذا كان القرار تليه عواقب قد لا يستطيع تداركها في المستقبل، ناهيك عن قدرة القائد على ادارة وتنظيم عمل الدولة من خلال تفاعله مع المؤسسات المعنية بالمشاركة في عملية صنع القرار، وعليه فأن صانع القرار أو القائد يجب أن يتعامل مع المتغيرات الاقليمية والدولية والاهم الداخلية بعقلانية عالية ويُدرك

أن هذه التغيرات مهما بلغت بساطتها أو جسامتها فأنها بالنتيجة مرتبطة ببناء الدولة والنظام السياسي والمجتمع. على القائد أن يتبنى استراتيجيات وسياسات معتدلة وعقلانية من خلال الاعتراف بحقائق الواقع الذي يعيشه والأخذ بنظر الاعتبار أن الاحداث السياسية مرتبطة ببعضها بشكل عضوي، وبالتالي على القائد أن يوظف ادواته من أجل الولوج داخل هذه الاحداث والوصول لهدف معين.

ويقسم محمد السيد سليم المتغيرات القيادية إلى نوعين (16):

1 – متغيرات قيادية موضوعية، التي هي مجموعة من المتغيرات المرتبطة بالدوافع الذاتية والخصائص الشخصية للقائد.

2 – المتغيرات النفسية، وهي متغيرات ارتبطت بالبيئة النفسية للقائد.

مما لا شك فيه فإن السياسة الخارجية تسير وفق نظريات محددة ومذاهب متباينة وتتعدد هذه النظريات والمذاهب وفق تعدد وجهات النظر، وعلى الرغم من هذا التعدد والتباين إلا انها بالنتيجة وضعت اسس العمل السياسي الخارجي وكيفية إدارة الدولة وفق معطيات الواقع. مع ذلك يبقى القائد اسير سلوكياته وعقائده وتوجهاته. فمهما بلغت حكمة القائد نجده في بعض الحالات يميل باتجاه ما يعتقد، مبيناً جوانب كان لها دور في بلورة افكاره ومعتقداته، فالبعض تلعب الانتماءات الحزبية دوراً كبيراً في صناعة القرار لديهم على اعتبار الاخذ بتوجهات هذا الحزب أو ذاك، أو قد تكون قراراته قد بُنيت على تصوراته الشخصية مع الاخذ بالاعتبار درجات التوازن لذلك القائد، إلى جانب بعض المؤثرات الداخلية والخارجية التي تُعد محفزة أو معرقلة لصناعة القرار السياسي الخارجي. فداخلياً نجد مجموعة من العوامل الاجتماعية التي تؤثر على القائد في عملية صنعه للقرار مثل الرأي العام المحلي وما له من تأثيرات كبيرة من حيث النسق المتبع، ايضاً نجد للأحزاب السياسية دوراً كبيراً سواء القابضة على السلطة أو تلك التي تأخذ جانب المعارضة فكلاهما يستخدم نفوذه من موقعه من أجل التأثير على القائد. ايضاً نجد جماعات المصالح وما لها من قدرة سواء خارجية أو داخلية. هذه العوامل لم تكن لوحدها عوامل مؤثرة على صنع القرار بل هناك عوامل خارجية تتمثل بالرأي العام الدولي والتكتلات الدولية والمنظمات الدولية والشركات المتعددة الجنسيات.

إن الشخصية القيادية تلعب دورا مؤثرا في تصوير السياسات الخارجية وفي عملية صنع القرار الخارجي وذلك إلى جانب عوامل قوة الدولة الأخرى حيث إنه من الصعب تحديد عامل بعينه ليكون من وراء السياسات الخارجية للدول حيث تتداخل تلك العوامل معا وذلك انطلاقا من نسبية تلك العوامل (17).

هناك تجارب كثيرة توضح دور القائد في صنع السياسة الخارجية ابتداءً من البدائل الموضوعة بمساعدة المؤسسات المعنية، بوضع تلك البدائل مروراً بالاختيار المبني على الإدراك والتصور العقلاني الواقعي انتهاءً بعملية تنفيذه، فسواء كان هذا القرار صائباً أو غير صائب فالقائد هو من يتحمل الجزء الاكبر منه على اعتبار أنه هو المحرك لتلك العملية. ان هذه التجارب تعطي اشارات على مدى ادراك القائد للبيئة التي تحيط

به ومدى تعمقه في احداثها التي تتطور بطريقة توضح أن هذا القائد مدرك لذلك أم لا، لكن هذا لا يعني أن القائد في صنعه للقرار يستند على ما تم ذكره فقط لا بل العامل السايكولوجي والضغوطات التي يتعرض لها تلعب دوراً مهماً في جوانب متعددة من عملية صنع القرار. فالرأي العام بشقيه الداخلي والدولي والاحزاب السياسية وجماعات الضغط والمنظمات الدولية كلها عوامل تؤثر على القائد، فكل عامل من هذه العوامل له مساحته التي يستخدمها للتأثير.

إن السياسة الخارجية لأي بلد تُعد بمثابة وجهة نظر من يحكمها وفق المحركات الفكرية والفلسفية التي يستند عليها. فعلى سبيل المثال نجد ان السياسة الخارجية المتبعة للرئيس الامريكي (باراك أوباما) تختلف عن سياسة سلفه (جورج بوش الابن) لأنها تستند إلى نظرة وتصور للأحداث العالمية غير تلك التي بنى عليها بوش سياسته، فأوباما حاول ان يجري عمليات تصحيحية في السياسة الخارجية الامريكية مثل غلق سجن غوانتانامو وتحقيق المصلحة الامريكية من خلال كل ما له علاقة بتحسين العلاقات مع العالم، ومحاولة منه لدراسة الواقع السياسي بحذر اكبر مما جعل العديدين ينظرون إلى سياسته على أنها ستؤدي إلى اضعاف الدولة، أما البعض الاخر فوجدوا شبيه مُخطط السياسة الخارجية النمساوي مترنيخ أتسمت سياسته بالواقعية وكان لها الاثر الكبير في الحفاظ على مفهوم توازن القوى (18).

وإذا ما اردنا أن نبين دور القائد أو الرئيس في هذا الجانب تحديداً نرى أيضاً حادثة اسقاط الطائرة الروسية في تركيا على الرغم من السجال الواسع والتكهنات الكثيرة التي راودت اذهان المحللين في العالم، في اللحظات الاولى من الحادثة إلا أن الرد الروسي كان متوافقاً مع ضرورات المصلحة الروسية، فقد وقع الرئيس الروسي (فلاديمر بوتين) مرسوما رئاسياً يتناول المواد التي يُحظر استيرادها من تركيا، ونشاط الشركات التركية في روسيا، والأتراك الذين يعملون لصالح شركات روسية في داخل البلاد، ودعا المرسوم أيضا إلى وقف الرحلات السياحية التجارية بين البلدين (19). لقد ربط (بوتين) بين هذه الحادثة وكل القضايا التي من الممكن لروسيا أن تكون لها مصلحة فيها ابتداءً من قضايا البحر الاسود وانتهاءً بقضايا تصدير الغاز وكيفية استغلالها.

ومهما كان القرار المتخذ في السياسة الخارجية لأي دولة فان للقائد ذي الخبرة والمعرفة بالواقع الاقليمي والدولي اللذين يحيطان به اثراً كبيراً، فهو يقوم بدراسة مدخلات ومخرجات القرار مع عرض مجموعة البدائل المتاحة حسب الازمة او القضايا، ومعالجة كل قضية على حدة وفق ما تتطلب من ادوات تساعده في ادارة هذا النزاع أو تلك المبادرة. من جانب اخر فان للقائد دوافع ذاتية تؤثر بشكل أو باخر على طريقة تفكيره بواقعه وكيفية التعامل مع الوحدات الدولية الاخرى وقياس مديات التفاعل. وهذا يجرنا إلى دراسة سيكولوجية القائد ومدى تأثير العامل النفسي على القرارات المتخذة من قبله، وتحديد اسلوب تعامله مع السياسة الخارجية لبلده ومدى خبرته في التعامل في هذا المجال.

الهوامش:

(1) محمد السيد سليم، تحليل السياسة الخارجية، مكتبة النهضة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1998، ص ك.

(2) ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية، دار النهضة العربية، بيروت، 2008، ص 354.

(3) James n. Rosenau، " Comparing foreign policies: theories، finding، methods"، New York، SAGE، poblications، 1974، p7.

(4) محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص 12.

(5) مقاربات السياسة الخارجية، Ikhlef.yolasite.com

× العلبة السوداء تعتبر مركز اتخاذ القرار وفي إطاره يتم تحويل المطالب والتأييدات إلى قرارات سياسية او تدابير تنفيذية جزئية، أحمد نوري النعيمي، السياسة الخارجية، السنهوري، بغداد، 2005، ص 103.

(6) Syrian International Academy for Tranining and Development . sia-sy.net/ sia/ view.

(7) مثنى المهداوي، واقع تدريس السياسة الخارجية في كلية العلوم السياسية – جامعة بغداد، مجلة العلوم السياسية/ كلية العلوم السياسية/ جامعة بغداد، العددان 38 – 39، ص 107.

(8) السياسة الخارجية، اعداد قسم الدراسات والأبحاث، الاكاديمية العربية المفتوحة، الدنمارك، 2007 – 2008، ص 18. وينظر ايضاً محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص 7.

(9) جيمس دورتي وروبرت بالستغراف، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، ترجمة وليد عبد الحي، كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، 1985، ص 305 – 306.

(10) المصدر نفسه.

(11) احمد نوري النعيمي، مصدر سبق ذكره، 118.

(12) جيمس دورتي وروبرت بالستغراف، مصدر سبق ذكره، ص 320

(13) طه حميد حسن العنبكي، النظم السياسية والدستورية المعاصرة: أسسها ومكوناتها ومعايير تصنيفها، مكتب الغفران للطباعة، بغداد، 2016، ص28.

(14) أحمد نوري النعيمي، مصدر سبق ذكره، ص 130.

(15) أمين دبور، السياسة الخارجية، 2015، الرابط الالكتروني iugaza.edu.ps

(16) محمد السيد سليم، مصدر سبق ذكره، ص 371.

(17) القيادة، www.kingkhalid.org.sa

(18) احمد سالم علي، السياسة الخارجية لأوباما بين المثالية والواقعية، مجلة السياسة الدولية، مؤسسة الاهرام/ القاهرة، العدد 178، 2009، ص 138.

(19) إسقاط الطائرة الروسية: بوتين يفرض عقوبات اقتصادية على تركيا، www.bbc.com

مشاكل أنهار العراق وأثرها الاقتصادي

عادل عبد الزهرة شبيب

عادل عبد الزهرة شبيب، بكالوريوس تربية/ جغرافية/ كلية التربية/ جامعة البصرة، عضو النقابة الوطنية للصحفيين العراقيين، وكاتب مقالات اقتصادية في جريدة "طريق الشعب".

قام اول المراكز الحضارية في العالم في بلاد ما بين النهرين في العراق القديم وعلى امتداد 8000 سنة (1). وكان لنهري دجلة والفرات الأثر الكبير في قيام الزراعة والاستقرار وبالتالي نشوء أولى الحضارات الإنسانية ألا وهي حضارة وادي الرافدين. يمتلك العراق العديد من الانهار التي يمكن تصنيفها الى أنهار طويلة مثل دجلة والفرات وأنهار صغيرة مثل روافد دجلة المتمثلة بالخابور والزاب الكبير والزاب الصغير والعظيم وديالى، اضافة الى شط العرب الذي يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات في منطقة كرمة علي في محافظة البصرة وحتى مصبه في الخليج العربي. ولكن يلاحظ أن منابع النهرين الرئيسين دجلة والفرات تقع في دول الجوار، مما يشكل تهديدا كبيرا لضمان امكانية الحصول على موارد المياه بشكل مستمر. وهذا ما نلاحظه اليوم من خلال اقامة تركيا وسوريا العديد من السدود على النهرين دون مراعاة القوانين الدولية التي تضمن الحقوق العادلة للدول المتشاطئة، وكذلك ما تفعله ايران من تغيير مجاري الانهار التي تصب في شط العرب اواقامة السدود مما سبب انحسار مياه شط العرب وارتفاع نسبة الاملاح في مياهه.

يمتد نهر الفرات في تركيا وسوريا والعراق بحدود 2946 كلم، منها 1176 كلم في تركيا و610 كلم في سوريا و1160 كلم في العراق. أما نهر دجلة الذي ينبع أيضا من الجبال التركية فيبلغ طوله 1718 كلم ومعظم جريانه في الاراضي العراقية ولمسافة 1400 كلم وله خمسة روافد قادمة من ايران وتصب فيه كما اشير اليها آنفا. وللنهرين أهمية كبيرة في الحياة الاقتصادية للعراق، الا أن تركيا ترى أن من حقها الاستفادة منهما من خلال اقامة السدود والتي ستحرم العراق من حصته المائية خلافا للمواثيق الدولية والتي يمكن أن تشعل هذه السياسة المائية لتركيا حربا اقليمية حول الماء في هذه المنطقة (2).

تراجع مصادر المياه في العراق:

لقد شهدت مصادر المياه في العراق تراجعا كبيرا، وذلك للأسباب الآتية:

1. عدم اهتمام الحكومات المتعاقبة بالمياه كمصدر مهم ترتكز عليه حياة الانسان الاجتماعية والاقتصادية، ما أدى الى زيادة تلوث المياه وما ترتب على ذلك من مخاطر كبيرة.
2. انعدام الاستراتيجيات لتطوير الأسس لتوفير مياه نظيفة، حيث تميزت السنوات العشرون الأخيرة بتدهور البيئة الطبيعية ابتداء من تلوث الهواء وانتهاء بتلوث التربة والمياه، اضافة الى تردي نوعية المياه في العراق وذلك لتعدد مصادر التلوث فيه.
3. افتقار العراق الى الاهتمام بالبيئة وحمايتها من التلوث.

مشاكل الأنهار في العراق:

تواجه أنهار العراق العديد من المشاكل التي تحد من أهميتها الاقتصادية ومن أبرزها:
1. تلوث مياه الأنهار: حيث يلاحظ تعدد مصادر التلوث والتي أدت الى تخريب الموارد المائية والتأثير على جودتها. ومن أهم مصادر التلوث لأنهار العراق:
أ- التلوث الناجم من النشاط الصناعي: كالصناعات البترولية والكيمياوية وصناعة المواد الغذائية ومعامل الدباغة والاسمدة والنسيج وغيرها الكثير والتي تلقي بمخلفاتها في الانهار مباشرة دون معالجتها في ظل انعدام الرقابة.
ب- التلوث الناجم من الصناعات الزراعية: مثل أملاح النترات والفوسفات والتي تتصف بذوبانها الكبير في الماء وانتقالها بسهولة الى المياه السطحية والجوفية ويؤدي الى تلوثها .
ت- التلوث الناجم من الاستعمالات المنزلية: وهي عديدة وقد ازدادت نسبتها بسبب زيادة عدد السكان وزيادة عدد التجمعات السكانية قرب الانهار في المدن والارياف ما زاد من تلوث الانهار.
ث- المبازل: وتعتبر المصدر الرئيسي لزيادة الملوحة في نهري دجلة والفرات لما تحويه من أملاح تصل الى 20%.
ج- استخدام المبيدات الكيمياوية، مما يعد مصدرا مهما لتلوث النهرين.
ح- مياه المجازر: تسهم مياه المجازر المطروحة في النهرين دون معالجة بزيادة التلوث خاصة وان معظم المجازر لا تحتوي على منظومات معالجة، اضافة الى انتشار العديد من المجازر العشوائية غير المرخصة رسميا.
خ- مياه الصرف الصحي: للفعاليات المدنية في العراق دور في زيادة تلوث الانهار من خلال القاء مياه الصرف الصحي في الانهار مباشرة دون معالجتها كما تلقي التجمعات السكنية في مدن وقرى العراق المختلفة نفاياتهم الصلبة في الانهار دون معالجتها بشكل صحي في مواقع نظامية (3).

2. تدني مستويات مياه الانهار وارتفاع نسبة الجفاف:

حيث أن انخفاض مناسيب المياه في دجلة وفروعه وكثرة الإلتواءات سبب في بطء جريان المياه وزيادة الترسبات وظهور عدد من الجزرات الوسطية في كثير من مناطقه ونموكثيف للطحالب والقصب والبردي وشوك البحر في حوضه وعلى ضفتيه (4).
كما انخفضت مناسيب نهر الفرات بشكل كبير حيث عللت وزارة الموارد المائية في العراق هذا النقص الكبير في مياه النهر بسياسات الاحتكار للموارد المائية التي تنتهجها الدول المتشاطئة لنهري دجلة والفرات وفروعهما اضافة الى انحسار تساقط الأمطار للسنوات الاخيرة والتي

ادت الى حدوث مشكلة الجفاف. كما اثرت شحة المياه على انخفاض مساحة البحيرات الكبرى في العراق (الثرثار والحبانية والرزازة) الى النصف بسبب شحة المياه الواردة الى العراق وبعد قيام كل من سوريا وتركيا ببناء سدود على نهري دجلة والفرات اوالسعي لتغيير روافدهما المتجهة للعراق. وتشير الدراسات الى أن موجة الجفاف وتقلص فترات هطول الامطار ادى الى تضاؤل كمية المياه الجارية في الانهار وجفاف الابار والعيون وتحول كثير من المجاري المائية الى مواضع للنفايات ومراتع للحشرات والقوارض ومصدرا للروائح الكريهة (5).

أما بالنسبة الى شط العرب فهو الآخر يعاني من التلوث وانخفاض مناسيب مياهه بسبب السياسات المائية الجائرة لدول أعلى النهرين التي أدت الى قلة الواردات المائية من نهري دجلة والفرات وسياسة بناء السدود في تلك الدول وتحويل مجاري الانهار المشتركة من قبل ايران الى داخل اراضيها ما أدى الى تدهور الوضع البيئي في البصرة حيث ادت الشحة المائية الى جفاف الاراضي الزراعية وبساتين النخيل ومزارع الحناء اضافة الى نفوق الحيوانات الداجنة وتدمير احواض تربية الاسماك (6).

هناك علاقة بين التغير المناخي ونقص مياه الانهار في العراق فمع ازدياد درجة الحرارة تزداد نسب التبخر في المسطحات المائية الى جانب قلة الامطار. وتعد شحة المياه في العراق من اهم التحديات التي يواجهها الانسان والبيئة في ظل سياسة بناء السدود من قبل تركيا وسوريا اضافة للدور الايراني والذي يعمل على احتكار المياه بدلا من مشاركتها والحفاظ عليها للأجيال القادمة (7).

ان انشاء السدود في تركيا وخاصة سد (اليسو) ضمن مشروع جنوب شرق الاناضول المعروف اختصارا بـ (مشروع الغاب) قرب حدود سوريا والعراق والذي يتضمن (22) سدا و(17) محطة كهربائية على نهري دجلة والفرات، هذا المشروع الكبير سيؤدي الى التالي:

- نقص كمية المياه التي ستوفر سنويا للعراق وسوريا. ما سيترتب على ذلك من تلوث خطير.
- نقص في قدرة توليد الطاقة الكهربائية لما سيؤثر سلبا في اقتصاد العراق وسوريا وتنميتهما (8).

3. مشكلة ارتفاع نسبة الملوحة في مياه الانهار:

يتوقع الخبراء أن العراق سيخسر حوالي 40% من أراضيه الزراعية بسبب ارتفاع معدلات الملوحة في مياه نهر الفرات (9). كما تعاني مياه شط العرب من شدة الملوحة بسبب السياسة المائية للدول المجاورة (ايران، تركيا، سوريا) التي أدت الى قلة الواردات المائية، هذا الى جانب قلة الامطار وارتفاع درجات الحرارة. وحسب وزارة الموارد المائية فان ارتفاع نسبة الملوحة في مياه شط العرب يعود ايضا، اضافة للأسباب اعلاه، الى قلة الاطلاقات الواردة من مياه نهر دجلة الى محافظة البصرة نتيجة الاستهلاك العالي للمحافظات الاخرى على طول حوض النهر وصولا الى شط العرب. وكذلك من الفرات حيث تناقصت حصص مياه دجلة والفرات بنسبة الثلثين على مدى العقدين الماضيين، كما أن غلق ايران لمياه نهر الكارون الذي كان يمد شط العرب بأكثر من 33% من مياهه حيث تسبب ذلك بإيصال مد مياه الخليج العربي المالحة الى منطقة ابي

فلوس شمال نقطة المصب السابق لنهر الكارون بمسافة 130 كيلومتر، وهذه تعتبر من اخطر المشكلات التي تواجه محافظة البصرة لما تسببت من خسائر فادحة للقطاع الزراعي، ويعتبر قضاء الفاوجنوب البصرة المتضرر الاكبر من ازدياد تملح شط العرب (10). كما ارتفعت نسبة الملوحة ايضا في اهوار العراق وهي لا تخرج عن الاسباب العامة المتمثلة بالتغيرات المناخية التي طرأت على دول المنطقة من بينها ظاهرة الاحتباس الحراري وتناقص كميات الامطار والثلوج المتساقطة (11).

أما بالنسبة للملوحة في نهر الفرات فهي اعلى منها في دجلة وخاصة أملاح الكبريتات، كما أن الملوحة عالية في بحيرة الثرثار لكونها بحيرة مغلقة تدخل المياه اليها فقط لدرء الفيضانات عن بغداد وبقية المحافظات وتم فتح قناة للفرات ومن ثم قناة من القناة السابقة الى نهر دجلة (12).

وبهذا الصدد فقد اشارت وزارة الموارد المائية الى أن اسباب ارتفاع تركيز الاملاح في نهري دجلة والفرات تعود الى قلة الايرادات المائية الواردة من تركيا وسوريا وان شط العرب تأثر كثيرا بإغلاق نهر الكارون من الجانب الايراني.

ومن الاسباب الاخرى التي أشارت اليها الوزارة المذكورة آنفا تأثيرات التغيرات المناخية المتمثلة بارتفاع درجات الحرارة وما يرافقها من شدة التبخر في فصل الصيف ومصادر التلوث المختلفة التي تصب في مياهها من دون معالجات، هي من الاسباب الاخرى (13).

4. من المشاكل الاخرى التي تعاني منها انهارنا فإن شط العرب يعاني من كثرة الغوارق (السفن الغارقة) اضافة الى النفط المتسرب من ناقلات النفط وتعرض القنوات والأنهر الصغيرة في البصرة الى الدمار بفعل الحروب التي شهدتها المنطقة.

الآثار الاقتصادية لمشاكل أنهار العراق :

اثرت المشاكل التي تعاني منها انهار العراق من تلوث وجفاف وانخفاض مناسيب المياه وارتفاع نسبة الملوحة وغيرها على الواقع الاجتماعي والاقتصادي للعراق وقد اثرت هذه العوامل بشكل واضح على الزراعة وتقلص المساحات المزروعة وانخفاض الانتاجية الزراعية وهجرة الفلاحين من اراضيهم الى المدن وكذلك فإنها قد اثرت على صيد الاسماك وتوليد الطاقة الكهربائية وانخفاض المناطق الخضراء في المدن ليهدد الاحزمة الخضراء ويزيد من التغيرات المناخية البيئية المحلية ونفس الأمر على عمل المحطات الكهرومائية واداء السدود القائمة اذا ما استمرت الدول المجاورة بنفس سياستها المائية (14).

اضافة الى ذلك فإن تغاير خصائص مياه الأنهار كالعسرة والملوحة وتراكيز العناصر المختلفة وتذبذب درجة حرارة المياه مما يؤثر على الاستفادة من مياه الانهار باعتبارها غير صحية، تؤثر على صحة المواطنين وتخل بالجانب الجمالي للنهر (15).

وفي تقرير لـ(لمنظمة الدولية للبحوث) أشار الى تناقص حاد بالحصص المائية الواصلة ضمن حوض نهر الفرات، والتي ستصل الى 32 مليارا و140 مليون متر مكعب في الثانية بحلول عام 2040 مقابل احتياجات العراق التي ستبلغ حينها 23 مليار متر مكعب وحاجة سوريا وتركيا تصل الى 30 مليار متر مكعب وان الواردات النهائية للنهر لن تكفي لتغطية

الاحتياجات الكلية لها، الأمر الذي يؤدي الى خسارة العراق موارد النهر بالكامل. كما توقعت (منظمة المياه الاوربية) جفاف نهر دجلة بالكامل في ذات التاريخ بسبب السياسة المائية لتركيا. ولذلك فان العراق مقبل على كارثة حقيقية ستلحق بملايين الدونمات الزراعية في البلاد وهذا يعني تحول العراق لجزء من صحراء البادية الغربية خلال فترة لن تتجاوز الخمسة والثلاثين عاما المقبلة كما سيؤثر نقص الحصص المائية سلبا في مجالات مياه الشرب وتوليد الطاقة والصناعة وبدرجة كبيرة في انعاش الاهوار والبيئة (16).

يمثل السهل الرسوبي سلة غذاء العراقيين وان 80% من مساحته تعاني من درجات مختلفة من التملح الذي يؤثر بدرجة كبيرة على الزراعة .

وتشير تقارير الخبراء العراقيين الى أن خسارة كل مليار متر مكعب من مياه الفرات في العراق تؤدي الى نقصان 26 ألف دونم من الأراضي الصالحة للزراعة (17).

المعالجات :

1. للحد من تلوث الانهار فانه من الضروري توجيه المنشآت الصناعية المشيدة على ضفاف دجلة والفرات وشط العرب بنصب وتحسين وحدات معالجة المياه الملوثة قبل طرحها الى الانهار، ويشمل هذا الأمر المستشفيات ايضا مثل مدينة الطب التي تطرح مياهها الملوثة الى نهر دجلة مباشرة.
2. الاهتمام بدراسة التلوث الناجم من المياه الداخلة الى العراق من دول الجوار.
3. الاهتمام بكري الأنهار وهذا من مسؤولية وزارة الموارد المائية.
4. فحص مياه الشرب دوريا ومراقبتها صحيا.
5. توعية الشعب والمسؤولين بالمشاكل والحلول.
6. معالجة مياه الصرف الصحي والاستفادة منها بعد معالجتها (18).
7. وبهذا الصدد فقد شخص برنامج الحزب الشيوعي العراقي المقر من قبل مؤتمره العاشر ضرورة "الالتزام بمخرجات الخطة الاستراتيجية للمياه والاراضي واستثمار المياه السطحية والجوفية والاستعانة بالمعاهدات والاتفاقيات الدولية الخاصة بمجاري المياه الدولية وعرض موضوع المياه على هيئة الامم المتحدة والمنظمات الدولية الاخرى والانسانية، لغرض حل النزاعات المائية بين العراق ودول الجوار ولضمان حقوقنا المائية العادلة، وكذلك حماية مجاري الانهار كافة والحرص على نظافتها وابعاد اسباب التلوث عنها خاصة المياه الثقيلة ومخلفات المصانع والمؤسسات الصحية والنفايات الكيمياوية، واكد ايضا على البحث عن اساليب جديدة لاستصلاح الاراضي بالاستفادة من التجارب العالمية الحديثة ونشر تقنيات الري والبزل الحديثة واعادة تقييم المعالجات والحلول لمشكلات سد الموصل . كما اكد ايضا على انشاء محطات تصفية وتدوير النفايات لحماية المياه والاجواء من التلوث بالنفايات الكيمياوية والمياه الثقيلة وغيرها والاهتمام بالطمر الصحي" (19).
8. يرى البعض أن غياب الاطار القانوني الشامل للعلاقات بين الدول المتشاطئة وعدم الالتزام بالقواعد القانونية هوالسبب في تفجر المشكلة. في حين يرى اخرون ان العوامل السياسية تلعب الدور

الاكبر في هذا السياق اعتمادا على توفر الارادة السياسية لدى الدول المتشاطئة. وتتمثل الاطر القانونية لاستغلال مياه الانهار الدولية في مجموعة من المعاهدات والاعراف الدولية والأحكام القضائية ودراسات القانون الدولي. وتحدد هذه الاطر مجموعة من القواعد القانونية الدولية اهمها:

أ- لكل دولة متشاطئة الحق في حصة عادلة ومعقولة من مياه المجرى الدولي.

ب- وجوب احترام الحقوق المكتسبة الناجمة عن الاستخدامات القائمة لمياه المجرى المائي الدولي.

ت- عدم جواز قيام أية دولة متشاطئة بإجراءات اوانشاءات على المجرى المائي الدولي أوفروعه إلا بعد اخطار الدول المتشاطئة معها والتوصل الى اتفاق بشأن ذلك.

ث- عدم جواز الحاق الضرر بالدول المتشاطئة الاخرى سواء من حيث كمية المياه أونوعيتها.

ج- وجوب التبادل المستمر للمعلومات والبيانات بين الدول المتشاطئة في كل ما له علاقة بمياه المجرى المائي المشترك (20).

الهوامش والمصادر :

1) ويكيبيديا/ الموسوعة الحرة.

2) مشاكل الماء بالعالم kenana on line .

3) د. منتظر فاضل البطاط، تلوث المياه في العراق وآثاره البيئية، مجلة القادسية للعلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد 11، العدد 4 لسنة 2009، دورية فصلية علمية محكمة تصدر عن كلية الادارة والاقتصاد/ جامعة البصرة.

4) المهندس رسول عبد علي عباس/ نهر دجلة في ميسان.. انخفاض مناسيب المياه وتنوع الملوثات، في 22/5 /2011.

5) مدونة المعرفة/ جفاف نهر الفرات.

6) العراق/ ويكيبيديا / الموسوعة الحرة.

7) انقاذ نهر دجلة والفرات واهوار العراق من الاثار السلبية لتغير المناخ والسياسات غير المستدامة لإدارة المياه . في 16 /11 /2016.

8) أ. د. ابراهيم خليل العلاف/ حرب السدود على نهري دجلة والفرات/ ميدل ايست اون لاين/ مركز الدراسات الاقليمية، جامعة الموصل.

9) مدونة المعرفة/ جفاف نهر الفرات.

10) جريدة الصباح/ ارتفاع ملوحة شط العرب الى 2000 جزء من المليون خلال شهر، في 30 /7 /2013.

11) مناف الساعدي/ الاهوار مدونة مختصة بالأخبار والتقارير الصحفية عن البيئة العراقية.

12) منتديات العراق/ حقائق عن دجلة والفرات.

13) الحرة حدث/ من هي الدول المسؤولة عن ارتفاع الاملاح في دجلة والفرات؟ في 16 /7 /2016.

14) مدونة المعرفة/ جفاف نهر الفرات.

15) المهندس رسول علي عباس/ نهر دجلة في ميسان.. انخفاض مناسيب المياه وتنوع الملوثات، في 22 /5 /2011.

16) تقارير دولية: جفاف نهري دجلة والفرات في العراق بحلول 2040، في 12 /6 /2009 .

17) العراق/ ويكيبيديا/ الموسوعة الحرة.

18) نفس المصدر السابق/ د. منتظر فاضل البطاط .

19) برنامج الحزب الشيوعي العراقي للمؤتمر الوطني العاشر.

20) مشكلة المياه في نهري، في 25 /11/ 2009.

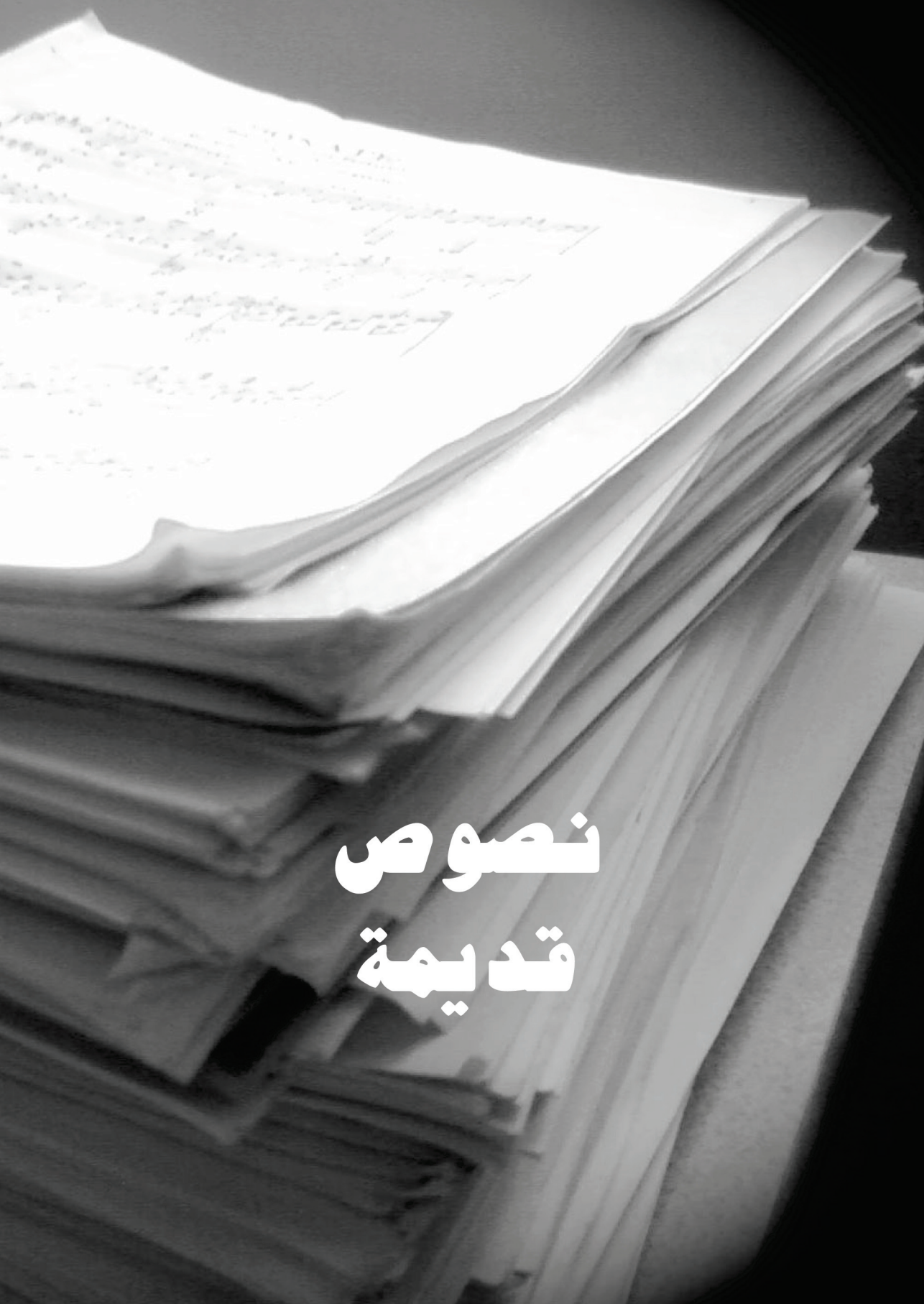

نصوص قديمة

في السياسة التربوية
الواقع، الاثار، مهام البديل*

غانم حمدون

الطفل الذي استقبلته المدرسة الابتدائية هذا العام سيعيش النصف الاول من القرن الحادي والعشرين كانسان، ومواطن، وشغيل. وتأهيله لتلك الحياة يعتمد كثيراً على المعرفة، والمهارة، والانماط السلوكية التي تقدمها المنظومة التربوية – التعليمية (1). فهي لذلك تلعب دوراً اساسياً في صياغة مستقبل البلاد.

هذه المنظومة باتت تضم أكثر من ربع السكان بصورة مباشرة. فالمصادر الرسمية تفيد بان مؤسساتها استقبلت هذا العام 4.8 مليون من الناشئة والشبيبة. ويتولى تعليمهم نحو 200 ألف من الكوادر (2). كما ان المنظومة التربوية تهم عموم الاسرة، فقلما نجد اسرة لا ترسل ابناءً الى هذه المؤسسات، او سترسلهم اليها عما قريب.

ومن ناحية أخرى فان قسماً غير قليل من جمهور هذه المؤسسات يمكن ان يلعب دوراً مباشراً اساسياً في الحياة السياسية. فبالاضافة الى الكوادر التعليمية والادارية والخدمية، وإلى الراشدين في مدارس محو الامية، تضم الجامعات والمعاهد والثانويات بانواعها زهاء المليون من الشباب الذين يؤهلهم السن للمشاركة في النشاط السياسي المباشر. ولدى الشباب نزوع إلى المثل العليا يتجاوز المصالح الطبقية في كثير من الاحيان.

وفي هذه المرحلة من الحياة لا تكبلهم المهنة أو اعباء العائلة فتقعدهم عن الكفاح والتضحية في سبيل القناعات. فضلاً عن ذلك فان جمهور المؤسسة التعليمية الواحدة كثيراً ما يفوق حجم العمالة في أي من المؤسسات الانتاجية والخدمية في المنطقة المعنية.

لكل ما سبقٍ تستحق المنظومة التربوية اهتماماً كبيراً من القوى الطامحة الى البديل الديمقراطي. فهي، قبل كل شيء، تحتاج الى جرّ الشبيبة الطلابية الى النضال ضد الدكتاتورية. ثم ان عراق الغد لا يمكن ان يمارس الديمقراطية ويرسّخها دون تربية الناشئة على الديمقراطية. فالبديل الديمقراطي بحاجة الى سياسة تربوية جديدة تناسب توجهاته وتعالج ما خلّفته السياسة الحالية من تأثير سلبي على قيم الجيل الجديد وسلوكه. وكما سنرى فان النظام قد فاق القوى الأخرى ادراكاً لخطورة الدور الذي تلعبه المنظومة التربوية، فدأب على اخضاعها لمصلحته الآنية والبعيدة، ولا سيما من حيث الممارسة السياسية والأدلجة. ان دراسة هذه السياسة ضرورية ليس فقط لمعالجة آثارها بل كذلك لتفادي وقوع التربية ضحية لسياسة مشابهة في المستقبل.

عام 1980 استعرضنا على صفحات هذه المجلة (3) ملامح التسييّس والأدلجة في

المنظومة التربوية منذ انقلاب 1968. ثم عالجنا، في مقالات لاحقة، جوانب أخرى من السياسة التربوية. غير ان الثمانينات مازالت تشهد تطورات ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالتربية. وأهمها الحرب مع ايران التي شارك فيها مئات الالاف من شباب كانوا على مقاعد الدراسة منذ الانقلاب، حاملين معهم تأثيرات السياسة التربوية، فضلاً عن تأثيرات نهج النظام في الجالات الاخرى. ولا بد لحرب شرسة دامت ثمانية اعوام من التأثير العميق في القيم والانماط السلوكية داخل المنظومة ومن حولها. وبتأثير الحرب ايضاً تباطأ نمو التعليم، وتقلّصت مجانيته. وعام 1987 أعيد القطاع الخاص الى التعليم العالي.

وبالنسبة لغالبية عوائل الطلبة تلاشى الرفاه النسبي وأخذ مستوى المعيشة بالهبوط منذ عام 1983 تحت وطأة العبء الاقتصادي والدمار المادي للحرب (4). وأثناء الحرب تصاعد الارهاب الشامل الذي استحق تسمية (الحرب الداخلية). وبوجه عام تلاشت التوجهات الايجابية التي كان النظام، اواسط السبعينات، يزايد بها، وتكامل اصطفافه الى جانب الرجعية داخلياً وخارجياً، حتى بات رئيسه يتبرأ علناً من الثورية.

كل هذه التطورات ينبغي أخذها بالاعتبار لدى تدقيق ومتابعة الاحكام والاستنتاجات الواردة في معالجاتنا السابقة للسياسة التربوية، وفي رسم السياسة المقبلة، آخذين بالاعتبار ما حصل من تقدّم معرفي بشأن العمليات الاقتصادية – الاجتماعية الجارية في بلادنا ومثيلاتها. فمحكّ التجربة المريرة لم يزك طروحات الماضي المتفائلة حول آفاق تطورها. كما ساعدت العلنية المصاحبة للبريسترويكا على تبديد أكثر الاوهام التي كان إعلام ومنظرو البلدان (الاشتراكية) يشيعونها حول العمليات الجارية في بلدانهم، وكذلك في البلدان النامية، خاصة في تلك التي زعمت انها تبني اشتراكيتها الخاصة، فاقتبست من تجربتهم سلبياتها القتّالة.

****

تمهيدا لمعاينة التسييس والأدلجة في المنظومة التربوية، كنا قد استعرضنا تشكل النظام السياسي الذي يتحكم بها. ثم استعرنا لهذا النظام لاحقاً (5) صفة "الفاشية من طراز خاص" التي كان توليباتي قد اطلقها في الثلاثينات على انظمة مشابهة في بلدان شرق وجنوب اوربا المختلفة عن المانيا وايطاليا؛ حيث سادت الفاشية الكلاسيكية. ففي المانيا وايطاليا، .. استندت الفاشية الى رأسمالية بلغت مرحلة الامبريالية. ورغم تخلف القاعدة الاقتصادية – الاجتماعية في بلدان المجموعة الاولى، فان المكونات الفاشية لبنائها الفوقي وممارساتها كانت شديدة الشبه بما كان قائما في ايطاليا والمانيا، نقصد بذلك الحزب الفاشي، الايديولوجيا الفاشية، التنظيم الفاشي للجماهير، الارهاب الشامل، الديماغوجيا الفاشية، وذلك في اطار نظام كلياني (توتليتاري). وبطبيعة الحال تتكيف هذه المكونات في كل بلد تبعاً لخصوصياته، بما في ذلك طاقاته الاقتصادية، وبالتالي يتباين تأثير هذه المكونات على الوعي والقيم والانماط السلوكية للناس، وكذلك، بالضرورة، على تربية الجيل الجديد ابتداء من البيت. فكيف تجلت "الفاشية من طراز خاص" في التربية المدرسية العراقية منذ انقلاب 1968؟

اخضاع الطلبة وتأطيرهم

عكفت سلطة الانقلاب مبكراً على اجتثاث التعددية السياسية في الوسط الطلابي ادراكاً

لأهمية دوره في الحياة السياسية. وهنا ايضاً لجأت الى الارهاب الذي شمل، تباعا، جميع القوى الطلابية المستقلة عن السلطة. واستخدمت الارهاب ايضاً في مسعاها لتأطير جمهور الطلبة داخل الاتحاد الطلابي التابع لها. فسارعت الى منحه احتكارا مطلقا للنشاط العلني داخل المؤسسات التربوية رغم ضآلة نفوذه، حسب ما اظهرت نتائج الانتخابات الطلابية قبيل الانقلاب. وعلى غرار ممارسات السلطة اخذ اتحادها يمارس دكتاتورية شرسة مطعمة بالديماغوجيا في محاربة الاتحادات الاخرى وجر الطلبة الى صفوفه. (ومن العلائم المبكرة لشراسته تعيين ناظم كزار رئيساً له قبل ان تسند اليه مديرية الامن العامة، برتبة لواء، وهناك استحق لقب الجلاد بامتياز). وبمزاوجة الترهيب والترغيب وضع الاتحاد جمهور الطلبة عملياً امام الخيار بين "العصا والجزرة". فبات الزوغان من كماشته ينطوي على الدهاء احيانا وعلى ضربٍ من البطولة احياناً اخرى.

وفي ممارسته الديماغوجيا استند الاتحاد الى ما وفرت له السلطة من امكانات مالية كبيرة، تضاعفت اثناء الحقبة البترولية، واستثمر ما منحته من صلاحيات واسعة للتحكم بمصالح وحياة الطلبة، والتدخل في شؤون الادارة والمدرسين ومراقبتهم. وبذلك اتخذ تسلطه على الوسط الطلابي مظهر الادارة الطلابية الذاتية، وهي بالاصل صيغة لتربية الطلبة تربية ديمقراطية تتناقض مع محاربة هذا الاتحاد للنشاط المستقل، والتعددية في التنظيم، وحرية الرأي والاختيار. ثم ان افتقار الاتحاد نفسه الى الديمقراطية الداخلية لا بد ان ينعكس في تعامله مع الجمهور المحيط به، فضلاً عن تربية اعضائه على الخنوع والرياء امام الرؤساء، وعلى التسلط والازدراء ازاء المرؤوسين، وعلى استغلال سطوتهم للمنافع الشخصية.

لقد تزامن توطيد الدكتاتورية في الوسط الطلابي مع اجراءات السلطة لتوسيع التعليم وتعميم مجانيته (بما في ذلك الغاء القطاع الخاص فيه) وغير ذلك من الاجراءات التي طالبت بها الحركة الطلابية دوماً. فكان اتحاد السلطة يوظف تلك الاجراءات للتضليل باعتبارها التطبيق الاشتراكي لحزبه في السلطة، منادياً بـ"اسقاط الفكر البرجوازي في التربية" وهو شعار برز في النصف الاول من السبعينات ضمن طروحات "الاشتراكية الخاصة". وهكذا وظف توسيع الفرص التعليمية لتبرير الحرمان من الديمقراطية الطلابية. وكان ذلك انعكاساً للممارسة العامة. فقد اتخذت السلطة خطوات هامة في الاصلاح الزراعي وتشريع العمالي، والقضية الكردية، والسيطرة على الثروة النفطية، والسياسة الخارجية، وغيرها من الخطوات التي دأبت على توظيفها لتبرير ممارسة فاشية تقلص وتنسف ما تنطوي عليه خطواتها من مضامين ايجابية، بل تقود الى الكوارث حسب ما اثبتت التجربة. وعلى غرار ما سوغت تلك الخطوات الايجابية لحزبنا، التعاون مع حزب سلطة تنتهك الديمقراطية السياسية، فان العديد من الطلبة وجدوا في تلك الخطوات مبرراً للتخلي عن قناعاتهم والرضوخ امام الممارسات الفاشية.

ولعل العامل الاهم في انحسار المقاومة الطلابية للفاشية هو نجاح النظام في ضرب احزاب المعارضة تباعاً، بما لها من امتدادات طلابية، وتضاؤل دور هذه الاحزاب كبديل له حظ من النجاح. وبالنسبة للتيار اليساري فقد اضعف صموده الانهيار السريع لـ"القيادة المركزية" بعد ان الهبت شعاراتها المزاج الثوري لأكثرية المنضوين في هذا التيار. وقد

تعمقت الحيرة والخيبة لديهم بعد تحالفنا مع النظام، دون ان يوقف اتحاده واجهزته التمييز والاضطهاد ازاءهم. ثم تلقوا ضربة قاسمة حين اوقفنا سنة 1974 ـ تحت ضغط النظام ـ نشاط اتحاد الطلبة العام، شأن بقية المنظمات التي يقودها الشيوعيون. وكان هذا الاجراء خرقاً للديمقراطية ينبغي ان يظل عبرة في تعاملنا مع المنظمات غير الحزبية.
وعلى غرار نهج النظام في تأطير الطلبة ضمن اتحاده، استحدث لتلامذة الابتدائية منظمة "الطلائع"، اطاراً للهيمنة المبكرة على النشء، بالاضافة الى التلقين السياسي والايديولوجي في المدرسة يومياً. وقد وفر للمنظمة مستلزمات النشاط لبذر الولاء للحزب وترديد شعاراته وتبجيل زعيمه، وذلك من خلال الالعاب والمخيمات والمسيرات... الخ.

تغيير الصبغة الايديولوجيا للمناهج

بعد الانقلاب سارعت السلطة الى تغيير الكتب التدريسية ذات المساس المباشر بالسياسة والايديولوجيا (التاريخ، الجغرافية، التربية الوطنية). وبغية التكييف الشامل للمناهج الدراسية ألفت اواخر 1973 لجان عليا ينطوي تركيبها على دلالة هامة. فقد ضمت العديد من التكنوقراط المحافظين برغم ترديد شعار "اسقاط الفكر البرجوازي" في التربية، وفي الوقت ذاته استبعد الشيوعيون منها رغم انهم طرف في التحالف الجبهوي، ولهم وزيران في الحكومة. كما استبعد منها القوميون الاكراد برغم ان للحزب الديمقراطي الكردستاني خمسة وزراء في الحكومة، وهو معني بمتابعة تطبيق الفقرات الخاصة بالتعليم والثقافة من بيان 11 آذار 1970 الذي توصل اليه مع السلطة. وقد ترأس صدام حسين الاجتماع الاول للجان، طالباً اليها الانطلاق من فكر حزبه وتوجهات نظامه في صياغة المناهج الجديدة. وحرص على الارتقاء باللجان المكلفة بمناهج التاريخ والجغرافية والتربية الوطنية والقومية. ولدى مناقشة تقرير اللجنة الخاصة بالتربية في 3 /6 /1975 قال: "ان شعبنا يتكون من عرب وغير عرب. وعندما نتحدث عن الشعور القومي، ومفاهيم العمل القومي، يجب ان يكون حديثنا وفق اسلوب وصيغ لا تجعل غير العرب يعتبرون ذلك لا يعنيهم، او يثير لديهم النزعات الضارة. فالوطن العربي مجزأ، ونحن نجلس على ارض صغيرة منه، وانظارنا تمتد الى الوطن الكبير. وعندما نتحدث عن الوطن الكبير، يجب ان لا ندفع غير العربي من شعبنا لان يفتش عن ارض خارج العراق، او يعتبر نفسه جزءاً من كل يقع بعضه خارج العراق" (6). قال ذلك حين استعاد السيطرة على كردستان بعد التنازلات السياسية والحدودية لشاه ايران، كي يوقف دعمه للثوار الاكراد. فلم يعد بحاجة الى تمويه كبير للموقف الشوفيني ازاء حقوقهم القومية.
وهكذا صارت الكتب المدرسية تشوه التاريخ القديم والحديث. وبات المعلم غير قادر على إنصاف الحقيقة، بفعل ما تعرض اليه من رقابة صارمة. وفي ظل الارهاب الشامل اخذ غالبية الآباء يتحاشون التعبير، بحضور اطفالهم، عن المشاعر والآراء المعارضة للنظام، سواء لخشيتهم من تسربها، على لسان الاطفال، الى اجهزة القمع، أم حرصاً على سلامة الابناء من التمييز والاضطهاد ان هم تبنّوا تلك الآراء والمشاعر.
وتعمل وسائل الاعلام المرئية والمسموعة على ترسيخ تلك التشويهات، وتعزز ما يتعرض اليه الناشئ في مدرسته من

تسييس وأدلجة. أما دعوة المدرسة إلى القيم والانماط السلوكية الايجابية، مثل الحرية، والديمقراطية، النزاهة، والانصاف، وحب العمل، وبساطة العيش... الخ، فلا بد ان تصطدم تدريجياً بالواقع المعاش، بالقيم والانماط السلوكية السلبية التي تُفاقِمها الممارسة الفاشية.

تحزيب المعلمين

لم يكن حظ المعلمين في ممارسة النظام أحسن من حظ طلبتهم. فعيشة انقلابه لم يكن له بين المعلمين ايضاً سوى نفر قليل من المؤيدين والمنتسبين. وكان لا بد من تطويع هذا الوسط وتأطيره ليس فقط لغرض تنفيذ السياسة التربوية الموصوفة آنفاً، بل كذلك لان المعلمين يمثلون أوسع فئة مهنية متعلمة.

عمدت السلطة مبكراً الى غلق مؤسسات اعداد المعلمين بوجه الذين لا ينتسبون إلى حزبها أو اتحادها، وبصرف النظر عن تعسف هذا الاجراء، فانه أدى الى اغراق المهنة التعليمية بعناصر تتوسل بالوصولية قبل الكفاءة. ولا يخفى الضرر الذي يصيب العملية التربوية جراء تدهور الكفاءة والخُلق بين المعلمين الذين تنتجهم هذه الممارسة.

أما بالنسبة للمعلمين المخضرمين فقد حاصرتهم كّماشة الترغيب والترهيب لجرّهم إلى صفوف الحزب وواجهته المتمثلة هنا بـ"مكتب المعلمين". لقد صمد عدد غير قليل أمام المغريات وأشكال التمييز والاضطهاد، لكن أغلب المعلمين كانوا أضعف صموداً من الطلبة. وذلك أمر مفهوم لأنهم، أولاً، قد تجاوزوا عمر الاحلام الكبيرة والتمرّد، العمر الذي حصد فيه الكثيرون الخيبات والمعاناة، خاصة منذ مطلع الستينات. ثم هناك الاعباء العائلية والمعيشية، ناهيك عن العسف في بلد صار انتهاك حقوق الانسان فيه القاعدة، لا الاستثناء. وحرم المعلم حتى من حق الاستقالة من العمل تخلصاً من الضغوط التي وصلت حد الاعتقال والتعذيب بالنسبة لمنتسبي الاحزاب الاخرى والمستقلين السباقين إلى معارضة الدكتاتورية. اضطر المئات إلى الهجرة، فيما انخرط آخرون في النضال السري والانصاري لقوى المعارضة حيث تألقت بينهم نماذج ملهمة في التضحية، والصمود البطولي والشهادة.×

افرغت نقابة المعلمين من جوهرها الديمقراطي المتمثل في حماية منتسبيها من جور رب العمل أو السلطة. ففي حالة المعلمين بات الخصم والحَكَم متجسّدا في كوادر حزب السلطة على رأس المؤسسات التربوية والنقابية سواء بسواء. وبغياب التعددية والحريات الاساسية تحولت الانتخابات النقابية الى سيناريو لتزكيتهم. وبسبب غياب الحريات الاساسية ايضاً لم يجد نفعاً مظهر التعددية في بعض السنوات حين شارك ممثلون عن حزبنا (حشع) وعن (حدك) في قيادة النقابة مع اصرار ممثلي السلطة على الاحتفاظ باكثرية كبيرة.

فهذه المشاركة سياسية الطابع وغير محكومة بالاعتبارات النقابية. فكانت هذه التعددية شكلية تفتقر إلى جوهر المنافسة، كانت بمثابة الهدنة المؤقتة في الحرب على التعددية. ولذلك لم تساعد على بروز قيادة نقابية تعبّر فعلاً عن مصالح وارادة اغلبية الاعضاء، حريصة على كسب تأييدهم بالدفاع عن حقوقهم. فالقيادة التي يفرضها أي حزب على نقابة تميل، في المقام الاول، إلى ارضاء الحزب حتى على حساب مصالح الاعضاء ورأيهم. وهكذا لم يكن غريباً ان يتواطأ نقابيو السلطة مع الادارة التعليمية،

وحتى مع قوى الأمن، على اضطهاد المعلمين سياسياً بدل الدفاع عنهم.
ان تحويل نقابة المعلمين إلى واجهة واداة للسلطة قد حرم أوسع فئة متعلمة من ممارسة الديمقراطية في نقابتها. وزاد في الطين بلّة ان الانتساب اليها كان إلزامياً، وهو الزام يفتقر اصلاً الى الديمقراطية. ان قسطاً هاماً من مسؤولية تشريع قانون النقابة بعد ثورة 14 تموز نتحمله نحن الشيوعيين. وكان الاصوب حق المعلم ليس فقط بحرية الانتساب الى النقابة، بل كذلك بحرية نقابات متعددة نتبارى في خدمة منتسبيها، وتوسيع عضويتها. لقد الغي مبدأ الانتساب الالزامي في الآونة الأخيرة. ومن الواضح ان السلطة تريد اضفاء مظهر الديمقراطية على النقابات تمويهاً لممارساتها التي حزّبت المعلم وحرمته من الحرية، بما فيها الاستقالة من النقابة ما دام يريدها الحزب أداة وواجهة.

غياب القدوة الحسنة

هكذا قادت الممارسة الفاشية الى حرمان التربية المدرسية من الدور الايجابي لقدوة المعلم؛ اذ بات في الغالب بين مقموع مستسلم ووصولي يفتقر الى الكفاءة والقيم الايجابية، هذا فضلاً عن القدوة السيئة لقيادة الاتحاد التي فرضتها السلطة على الوسط الطلابي، كما رأينا.
اما خارج المدرسة، فقد بسطت السلطة هيمنتها على الرياضة التي تحظى باوسع اهتمام لدى الناشئة والشبيبة. ففرضت عدداً من رموز السلطة وحزبها لرئاسة النوادي الرياضية، وحزّبت الفرق التي يحلم الهواة باللعب تحت اسمها. وما ان اشتد عود عدي بن صدام حتى صار دكتاتورا صغيراً للرياضة، فعين رئيساً للجنة الاولمبية الوطنية وللاتحاد المركزي لكرة القدم، وسلطت عليه اضواء الاعلام باعتباره قدوة للشباب حتى عقب جريمته الاخيرة. كما عين اخوه قصي نائباً لرئيس اللجنة الاولمبية الوطنية.
اما ابوهما فظل حضوره كثيفاً بالاسم والصورة والتمثال في كل مكان، وهو حاضر في النشاط المدرسي الاعتيادي، والمدرسة تحتفل بعيد ميلاده، ويوم "بيعته"، بل حتى بذكرى زيارته للمحافظة المعنية. وهو لا يغيب عن وسائل الاعلام، ويتبارى المسؤولون في التغني بمناقبه، ابتداءً من معلمة الروضة الى اعضاء "مجلس قيادة الثورة" وفي ذلك كله ايحاء متواصل للاقتداء بالرئيس، بالاضافة الى الدعوة الصريحة الدائمة للاقتداء به (7). صحيح ان الصيغ المعتمدة لإشاعة عبادة شخصه تجافي الذوق المتحضر، الا انها تنشئ التلميذ على تقديس صدام ما دامت الاسرة المقموعة تخشى عواقب توعيته. فتمر سنوات قبل ان يصطدم الفتيان بفساد الواقع، وبرياء المعلمين والاقرباء ورجال الدولة والاعلام. لكن هذه الاستفاقة لا تتحول، الا ما ندر، الى فعل ايجابي نظرا للارهاب الشامل من خلو الساحة من بديل واعد للرئيس ونظامه. فتذوي في الجيل الجديد القيم الايجابية وتصيبه عدوى الاستلاب والامبالاة والاذعان والوصولية ××.
ان هذا الخراب الروحي نتيجة طبيعية لأية سياسة تربوية تجافي الديمقراطية وتنتهك حقوق الانسان، فهذا الخراب ملازم لتضليل الناشئة واخضاعها. ومن المستبعد ان صدام كان غافلاً عن مثل هذا الخراب، او عن بعض جوانبه في الاقل، حين قال: "عندما نعمل جدياً وبمهمة عالية لتحقيق شعارنا المركزي (نكسب الشباب لنضمن المستقبل) انما نحقق اهدافا اخرى، من بينها قطع روافد التقوية

والنمو عن الحركات السياسية الاخرى، في نفس الوقت الذي نقطع روافد التقوية والنمو عن مراكز القوى المضادة لمسيرتنا" (8).

ولئن كان الخراب الروحي الناجم عن هكذا "كسب للشباب"، هو فارزة بحد ذاته، كارثي العواقب لحاضر ومستقبل بلادنا، فقد مهد للكارثة الهائلة التي شهدتها في الثمانينات. فما كان النظام ليجرؤ على اشعال الحرب ضد ايران لولا عوامل منها نجاحه في اخضاع الشباب. فاستطاع سوق طلاب الامسِ الى اتونيها.

لقد انعكست الحرب، بالضرورة، على التربية المدرسية، فصعّد النظام نزعة العنف والروح العسكرية التي عمل مبكرا على غرسها، سواء باشعاعة هوس المصارعة الحرة بنموذج عدنان القيسي في مطلع السبعينات، ام بالممارسة العسكرية في نشاط "الطلائع" ام بالتدريب العسكري لأعضاء وانصار الحزب، ام بمحاولات ادباء السلطة اضفاء السمو على العنف والدموية البارزين في سيرة صدام ايام شبابه. لقد خيمت هستريا الحرب على المدرسة حتى بات اطلاق الرصاص من طقوسِ "تحية العلم" في المدارس الابتدائية مثلاً. وسيق الطلبة الى التدريب العسكري. وتفننت اجهزة التربية والاعلام في تزييف التأريخ لغرس الحقد على "الفرس المجوس" فسميت الحرب "قادسية صدام" التي اسبغت عليه مواهب عسكرية فذة.

ولئن احرز هذا التضليل بعض النجاح بفضل الانتصارات العسكرية في بداية الحرب، فان تحولها الى مأزق فادح الخسائر قد ادى الى انحسار الغشاوة واشتداد الاحساس بوطأة اعبائها. واتخذ رفض الحرب في اوساط الطلبة صيغاً عديدة، مثل الرسوب المتعمد تفادياً للتجنيد، والاختفاء عند التخرج، والتملص من التدريب او ابتذاله.

ولكن بفضل الخصوصيات القومية والجغرافية لكردستان العراق، فقد تمركزت فيها المقاومة الرئيسية للفاشية والحرب. واشتذب الكفاح الانصاري في جبالها ألوف الطلبة والشباب من خارجها، بعد ان تعذر عليهم النضال السري هناك. وظل هذا الكفاح، والاعلام الذي احتضنه، مبعث الهام واملاً لشبيبة المنطقة وكثيرين خارجها، وصولاً الى منافي العراقيين. ولولا ذلك لتعذرت، على الارجح، الانتفاضة الطلابية في كردستان عام 1983، على سبيل المثال. وكان دور هذه البؤرة الثورية سيتضاعف لو احترمت كل فصائلها منذ البداية واقع التعددية الحزبية، وتكاتفت ضد الفاشية، وتعاونت على تجنيب ساحتها اضرار وملابسات الحرب العراقية – الايرانية. لكنها ظلت تعاني من التناقض بين الجوهر الديمقراطي لكفاحها، من جهة، وممارساتها المفتقرة بدرجات متفاوتة، الى الديمقراطية؛ فالعلاقات بين الفصائل، وفي التعامل مع سكان المنطقة، وكذلك في الحياة الداخلية لكل فصيل. وهكذا تأخرت، مثلاً، اقرار الجبهة الكردستانية حتى اواسط 1988 أي بعد استخدام السلاح الكيماوي، واشتداد تهجير الفلاحين، وتعاظم الطاقة العسكرية للنظام الذي ما لبث عند وقف الحرب مع ايران بعد بضعة شهور، ان تفرغ لاجتثاث قواعد العمل المسلح وافراغ الريف الكردستاني من اهله.

لقد فاقم التدمير والتهجير العواقب الاقتصادية الوخيمة لحرب الثماني سنوات، وزاد، بالتالي، من المؤثرات السلبية على تطوير التعليم من حيث الكم والنوع. فبلاضافة إلى المعوقات الناجمة عن ارتباك سير الحياة الاعتيادية، بما في ذلك العلمية التعليمية، تقلص الانفاق الحكومي الفعلي

على التعليم، وتقلصت مجانيته، فتخلف نموه عن نمو السكان (9). وينطوي ذلك على غبن اجتماعي نظراً لابقاء ابناء شرائح كادحة محرومين من التعليم اصلاً أو لانصرافهم مبكراً الى العمل لمساعدة اسرهم التي حل بها الافقار، وهكذا يشتد التفاوت الاجتماعي من حيث الفرص التعليمية، ولا سيما على مستوى التعليم العالي. فاذ تستطيع الأسر الثرية الانفاق بسخاء على الدروس الخصوصية لابنائها كي يحصلوا على افضل فرص القبول في الجامعة، اتاح السماح بدخول القطاع الخاص إلى التعليم العالي منذ 1987 لابنائها فرصاً تعليمية إضافية في كليات اهلية تتراوح اجورها الدراسية وحدها بين 100 – 125 ديناراً شهرياً، علماً ان راتب الخريج يبدأ بـ 106 دنانير. وتحت ضغط المصاعب المعيشية المتزايدة يضطر الكثير من المعلمين إلى مزاولة عمل اضافي على حساب مهامه، فيلحق الضرر بمستوى أداء التعليم. وقد بلغ الاستهتار بمعايير الكفاءة والاخلاق في تعيين القيمين على المؤسسات التربوية الى حد تنصيب عدي بن صدام رئيساً لهيئة (جامعة صدام للهندسة والعلوم) عام 1988 التي يفترض ان تصير أرقى جامعة في العراق، وهي مرتبطة لا بوزارة التعليم العالي بل مباشرة بديوان رئاسة الجمهورية. كما ارتبطت بهذا الديوان كلية صدام للقانون وكلية صدام للعلوم الطبية اللتان أسستا في العام نفسه.

***

فيما سبق حاولنا تسليط الضوء على الدور الكبير الذي تلعبه المنظومة التربوية – التعليمية في تقرير مصير بلادنا، وعرضنا أبرز ملامح الممارسة السياسية والأدلجة في هذه المنظومة منذ انقلاب 1968 وما الحقته من ضرر فادح في تربية الجيل الجديد. ولئن هذه الممارسة، كما في النظام الذي انتجها، دروس ثمينة لصياغة البديل الديمقراطي. وما تطهير المنظومة التربوية من توجهات الفاشية ومن ممارستها سوى أحد جوانب العملية الشاملة التي يستهدفها هذا البديل. ومن جهة أخرى فان ديمقراطية التربية شرط حاسم لتعميق وترسيخ هذه العملية المحفوفة بشتى العقبات المحلية والخارجية.

ضمن المناقشات العلنية لمشروع برنامج حزبنا الذي طرح على مؤتمره الرابع، قلنا عام 1984 ان المطلوب منه في النضال من أجل البديل الديمقراطي، بالمقام الأول، صياغة المهام الاساسية لمرحلة التحولات الديمقراطية. وان من مقتضيات هذه التحولات تطهير المنظومة التربوية من الممارسة الفاشية بالعمل لانجاز المهام التالية (10):

- ازالة مظاهر ومقومات التحزيب القسري لاجهزة التربية والتعليم.
- اعادة المعلمين المفصولين والمهجرين وازالة ما لحق بهم من غبن وظيفي.
- اعادة الطلبة المفصولين والمهجرين إلى معاهدهم واستحداث دورات تعويضية خاصة بهم لمعالجة ما لحقهم من غبن وفقاً لمعايير تعليمية معقولة.
- معاملة الاغلبية الساحقة من المحزّبين كضحايا للممارسة الفاشية وابعاد المعلمين الذين اندفعوا في اضطهاد زملائهم وطلبتهم والمواطنين الآخرين إلى خارج مهنة التعليم.
- اطلاق حرية التنظيم الديمقراطي للطلبة والمعلمين وتخليص المؤسسات التعليمية من الممارسات البوليسية.
- ازالة المظاهر العسكرية في المؤسسات التعليمية.

• الغاء التمييز السياسي في قبول الطلبة وترقية المعلمين وتولي المسؤوليات.
• تعليم الاكراد باللغة الكردية.
• اعطاء المناهج في كردستان خصوصيتها الكردستانية ضمن وحدة المنظومة التربوية – التعليمية العراقية.
• اضفاء الطابع الكردستاني على جامعة السليمانية صلاح الدين واقامة مؤسسات أخرى للتعليم العالي في كردستان حسب الحاجات المستجدة.
• تعويض آثار السياسة الشوفينية والحرب وما سببته من تخلف للتعليم في كردستان.
• تعليم اللغة العربية في المدارس الكردية وتعليم اللغة الكردية بصورة جادة في المدارس الاخرى.
• منح الاقليات القومية حقوقها الثقافية وتعليم ابنائها بلغة الام حيثما أمكن ذلك.

تلك هي أبرز المهام التربوية التي ينبغي ان يتضمنها البرنامج الجديد في مجال دمقرطة الحياة السياسية باعتبارها الشرط الحاسم لبلوغ اهدافنا الاجتماعية في التعليم التي طرحنا أهمها كما يلي (11):

• استكمال الزامية التعليم للمرحلة الابتدائية مع السعي لزيادة سنوات الالزام حسب تطور الامكانات الفعلية.
• اتخاذ ترتيبات تعويضية للنهوض بمستوى الاناث وابناء الريف والكادحين والمهجرين.
• ربط التعليم بعد مرحلة الالزام باحتياجات التنمية الشاملة من حيث الحجم والمستويات والانواع على اساس التخطيط.
• تطوير تعليم الكبار في المعاهد المسائية، وبالمراسلة، والدورات الاستثنائية، ووفقاً لصيغة الجامعة الشعبية.
• القيام باصلاح شامل للمنظومة التربوية بما ينسجم مع الاهداف اعلاه، ومن اجل الارتفاع بكفاءتها بوجه عام.
• استثمار الاجواء الثورية التي يتوقع ان تصاحب اسقاط الدكتاتورية لتنظيم حملة شاملة لمحو الامية بمضامين واساليب ديمقراطية.

ويلاحظ ان برنامجنا الحالي للتعليم مضخّم بمهام تفصيلية مأخوذة من برنامجنا السابق، حيث كانت تنطوي على مزايدة مع النظام الدكتاتوري في أمور تنفيذية وثانوية. وهو ما ينبغي ان يتلافاه برنامجنا الجديد بحيث يوجز التوجهات العامة التي نتوخاها في البديل الديمقراطي، فيقتصر على المهام الاساسية، بعيدا عن التفاصيل والتكرار والمزايدة. ويسري هذا المطلب، بطبيعة الحال، على الأبواب الاخرى من البرنامج.

وما دمنا بصدد الحديث عن هذا الجانب من جوانب الوثائق التي أقرها المؤتمر الوطني الرابع، تجدر الاشارة الى ان تقييمه لتجربة حزبنا للسنوات 1968 – 1979 ، برغم انتقاده العام لقصورنا في النضال من أجل الديمقراطية السياسية، لم يشر، ولو بكلمات، الى السياسة التربوية التي ثابر عليها النظام منذ البداية، ولم نشترط تغييرها في تحالفنا الجبهوي معه، علما انها تستهدف انهاء التعددية السياسية، اعتبارا من مرحلة رياض الأطفال، وبالتالي القضاء تدريجيا على حزبنا وغيره من الأحزاب المستقلة عنه. وعموما تنطوي وثيقة التقييم على قصور مخلّ في ادراكنا لأهمية السياسة التربوية.

ثمة خطر كبير في استمرار هذا القصور أولا لأن المنظومة التربوية من أوسع وأنشط ساحات الممارسة السياسية، وربما ينطلق منها بالذات التحرك الجماهيري الذي يعصف بالديكتاتورية كمدخل الى البديل الديمقراطي.

ورغم اتساع وتعمق الوعي بأن هذا البديل هو السبيل الوحيد للتقدم الشامل الذي نريده لشعبنا، فإن من السذاجة اغماض العين عن هشاشة البديل الديمقراطي أمام وحدة التناقضات الداخلية والمؤثرات الخارجية في آن واحد. ولذلك ينبغي على لقوى الطامحة الى هذا البديل، أن تحرص ليس فقط على تجسيده داخل المنظمة التربوية، بل كذلك على توظيف هذه المنظومة لترسيخ الديمقراطية من خلال ما تغرسه في الجيل الجديد من وعي وقيم وأنماط سلوك ديمقراطية. هذا يتطلب وضع السياسة التربوية ضمن المحاور الأساسية التي يتناولها الحوار بين قوى المعارضة، بحثا عن القواسم المشتركة. والا فإن شعار الديمقراطية لن يكون غير وسيلة لفرض ديكتاتورية من لون آخر، ديكتاتورية تلوح بوادرها قبل الوثوب الى السلطة، في الوهم باحتكار الحقيقة، في التعامل مع القوى الاخرى، في التعامل مع الناس، وفي الحياة الداخلية للحزب المعني. وما لم تتخلص المعارضة من هذه النزعة بالحوار والتعاون النزيهين يتعذر عليها الفوز بثقة الناس، لا سيما الوسط الطلابي، لتحدي البطش. فما أحوجنا، جميعا، الى التجديد على مختلف الصعد، في هذه العملية الشاقة ينبغي ان نجعل المؤتمر الخامس لحزبنا من أبرز معالمها.

آذار 1990

*الثقافة الجديدة 226-227 تشرين الاول – تشرين الثاني 1990.

* لي بينهم صديق أطلعتُ القارئ سنة 1980 (ث ج 121) على رسالة منه، تصف بعض معاناته في المدرسة وخارجها قبيل هجرته من الوطن، ليعود اليه مستأنفاً نضاله بين الانصار. وخلال السنوات التسع التالية لم اسمع عنه شيئاً رغم كثرة السؤال. وفي السنة الماضية فاجأتني رسالة منه جاء فيها: "اني الان في (...) نأمل ان تُنجز معاملات سفرنا قريباً (وهذا ما اشك فيه) ونلتقي مجدداً. الحياة في هذه الفترة صعبة ومعقدة، البرد يصل في بعض الايام الى 30 تحت الصفر، والمعيشة صعبة، والمستلزمات قليلة، والوضع المالي بائس جداً. تتناوشني الامراض ولكنها لن تفل عزيمتي. اشكو الان من القلب، والعينين، والفقرات، والمعدة، وفي بعض الاحيان من الكليتين والمفاصل والقولون. بعض هذه الامراض بسبب العمل، والاخرى بسبب الغازات الكيماوية التي ضربنا بها الفاشست. اني الان في (...) لمراجعة طبيب العيون.. قبلها بايام رقدت في المستشفى بسبب قلبي .. ارجو ان تعذرني لاسترسالي في ذكر هذه الاخبار غير السارة عني. ولكن حين نلقي سأتحدث اليك بالمفرح الجميل ...".

** تنعكس في صحافة النظام في كثير من الاحيان، مظاهر هذا الخراب الروحي، ولكنها تعزى الى آثار الحرب وليس الى الممارسة الفاشية التي قادت الى الحرب. ففي خاطرة نشرتها مجلة "الف باء" في 19/7/1989 على سبيل المثال، تقول سلام خياط: "ان الحرب تركت آثارها على الناس قبل المدن، على النفوس قبل البنايات والشوارع والجسور. فطفا الجشع عند البعض وطغت نزعت الانانية عند البعض الاخر. وفازت الـ"أنا" على الـ"نحن" وانتصر الآن على غدٍ والبارحة (...) افرزت الحرب اغنياء دون عناء ومنتفعين وطفيليين وتجار ذمم ومرتشين ومراوغين.. و..". فما علاج هذا الخراب الروحي؟ تقول الكاتبة: "اعادة انسانية الانسان تتم بالصبر ومواصلة الحث واجتثاث الفساد، وسيادة القوانين واستقرار الاحكام. وسطوة العدالة ووجود القدوة".

الهوامش:

1. توخياً للاختصار نكتفي لاحقاً بالصفة التربوية.

2. تصريح وزير التربية لجريدة (الثورة) بغداد/10 /1989 وتصريح وزير التعليم العالي للجريدة نفسها في 4/ 10 /1989. ورغم هذا التوسع ما زال التعليم متخلفاً، في بعض الجوانب، عندنا عنه في بلدان عربية اخرى. فعام 1984 استوعبت المدارس الثانوية والمهنية وما في مستواها 53% من السكان الذين يؤهلهم السن لهذه المرحلة التعليمية، فيما كانت النسبة 82% للكويت، 79% للأردن، 59% لسوريا، و58% لمصر وتونس (عن د. نادر فرجاني: البشر والتنمية في الوطن العربي، بحث مقدم الى المؤتمر العاشر لاتحاد الاقتصاديين العرب، الكويت 6 – 8 شباط 1988) وحصل هذا التخلف لان النظام ارجأ تطبيق التعليم الالزامي حتى اواخر السبعينات؛ اذ كانت الاسبقية لأجهزة القمع التي كانت نفقاته المعلنة عليها بين 1970 – 1975 اعلى بنسبة 126% من نفقاته على التعليم والصحة معاً. (عن تقرير اللجنة الاقتصادية لغرب اسيا، التابعة للأمم المتحدة، بعنوان "التطور الصناعي في العراق، الافاق والمشاكل" الجزء الاول، بيروت 1979، ص 31 – 32).

3. مقالتنا بعنوان: شيء عن الممارسة السياسية في التربية المدرسية في العراق. ث ج عدد 121.

4. مقالتنا بعنوان: ارقام الحرب والسلم، ث. ج عدد 202.

5. مقالتنا بعنوان: فاشية نموذجية وفاشية من طراز خاص، ث.ج، عدد 145، 147.

6. مقتطفات من احاديث صدام حسين، دار الطليعة، بيروت، ص 31 – 32.

7. مثلاً مقالة مطولة عنوانها "موقع القيم التربوية والسلوكية في تصور وممارسات القائد صدام حسين" في جريدة الثورة (23 /10 /1989) كتبها هاني وهيب، وهو واحد من كتاب السلطة البارزين. فبعد ان يقتبس مقطعاً من كلمة لصدام يدعو فيها الموظفين الى ان يكونوا قدوة في النظافة واللياقة والهندام يقول: "لا يسعنا الا ان نحمد الله على هذه النعمة التي قلما يسبغها الله سبحانه وتعالى جل وعلا لشعبٍ من الشعوب او امة من الامم"، فصدام هو "مثلنا في الصفاء والنقاء والطهر واللياقة في عصرنا الحديث".

8. مقتطفات من احاديث صدام...، المصدر السابق، صفحة 13.

9. يتجاوز معدل الزيادة السكانية 3 % سنوياً، بينما بلغ معدل نمو عدد تلاميذ الابتدائية 1.6% والثانوية 0.5% سنوياً بين 80/ 81 – 87/ 88 (عن عصام الخفاجي: الحرب والاقتصاد العراقي – ث ج، عدد 209، ص 32).

10. مقالتنا بعنوان: حول سياستنا التربوية – التعليمية – ث ج عدد ك1 1984 – ك2 1985.

11. نفس المصدر. استبعدت هنا المهمة المتعلقة بالبحث العلمي في المؤسسات التعليمية باعتبارها مهمة يضمنها الاصلاح الشامل للمنظومة التربوية.

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (10)
رسائل في أرشيف الحزب الشيوعي العراقي في الكومنترن *

موجز تقرير حول الوضع في العراق
(ارسله عاصم حسن المندوب السابق للحزب الشيوعي العراقي الى المؤتمر السابع للكومنترن)

ترجمها عن الروسية د.عبد الله حبة

اعداد سليم عبود

كتب سليم عبود الذي أبعد مؤخراً عن العمل في اللجنة المركزية بسبب علاقته القريبة مع الوزراء الديمقراطيين في فترة وجود حكومة حكمت سليمان. انه ينسب سبب اقصائه الى اعتبارات شخصية، والى ان رفاقه المسؤولين لم يفهموا تكتيك المؤتمر السابع للكومنترن وإرشاداته التي أعلنها، والتي تم تفسيرها حول العمل مع الوطنيين (القوميين) على اساس الجبهة الشعبية الموحدة. ويبدو انه شكل لجنة مركزية جديدة عارضت اللجنة القديمة. وكتب انه لدى عودته من المؤتمر السابع الى العراق وجد اعضاء اللجنة المركزية والقسم الاكبر من الرفاق والعناصر المناصرة في السجن، وشرع بتنظيم العمل الحزبي وأصدر عدد "كفاح الشعب". واعتقلته الشرطة، وأبقته تحت الاقامة الجبرية لمدة شهرين لكن أطلق سراحه لاحقاً لعدم توفر الادلة الثبوتية ضده. اما الباقون الذين تعرضوا للإرهاب والاضطهاد فقد حكم عليهم بالسجن لفترات تتراوح من 6 أشهر الى شهرين. ويصور عاصم اعتقالهم كما يلي:

1) انهم مارسوا نشاطاً متطرفاً واستفزازياً سواء في جريدة الحزب، اما في الدعاية حيث اعلنوا الحرب على الحكومة، والوطنيين (القوميين) وجميع غير الشيوعيين.

2) انهم اعلنوا عن وجود الحزب واللجنة المركزية.

3) انهم رفعوا اعدادا كبيرة من الرايات الحمراء، وغالباً ما كانوا يوزعون المناشير مما أفزع الحكومة.

ويشير عاصم الى الانطباع السيئ الذي ولده واقع ان (1) MOPR والحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي البريطاني

1- MOPR (وبالانكليزية International Red Aid) هي منظمة اجتماعية تأسست في موسكو عام 1922 بهدف تقديم الدعم والمساعدة للثوريين والسجناء السياسيين وعوائلهم، كما كانت تقوم بحملات احتجاجية عالمية، وبلغ عدد اعضائها 14 مليون عضو. وفي عام 1947 تم حلها وإخضاعها للأممية الشيوعية – المحرر.

لم تقدم اي مساعدة الى الرفاق السجناء وعوائلهم، بالرغم من انهم كانوا بحاجة ماسة اليها. ويقول ان الاصدقاء واصحاب جريدة "الاهالي" فقط قدموا عملياً المساعدة الى الرفاق وعوائلهم والحزب.

وكتب انه نظراً لنشاط الحزب التنظيمي والسياسي والانقلاب العسكري الاخير.. استطعنا تشكيل جبهة شعبية موحدة مع "الشعبيين"، وبالرغم من معارضة بعض الرفاق المسؤولين الذين يعتبرون العمل مع القوميين خيانة. وعقدنا مع الشعبيين اتفاقية مغزاها انه في حالة توليهم السلطة فإنهم سيلبون بعض مطالبنا. وشرعنا على هذا الاساس بالعمل المشترك معهم ضد حكومة الهاشمي، ما اثار الاستياء في العراق بأسره. واتصل قادة الجيش بالشعبيين سراً واتفقوا معهم على اسقاط حكومة الهاشمي واستبدالها بحكومة جديدة. وهكذا استبدلت حكومة الهاشمي بحكومة سليمان. اما الشعبيون فقد نفذوا كل ما اتفقنا عليه وهو: منح الشعب الحقوق الديمقراطية، وحرية الصحافة، وحرية تشكيل النقابات والإفراج عن السجناء السياسيين... وهلم جرا.

وبهذه الصورة استطعنا استعادة قوانا والشروع بإعادة تنظيم الحزب. وكان اول عمل لنا هو القيام بعدة تظاهرات شعبية ضد حكومة الهاشمي وعملاء الفاشية والرجعيين الذين كانوا ايام ذاك يعملون بلا عقبات تحت اشراف القنصليتين الالمانية والايطالية.

وحشدنا قوانا لتنظيم النقابات واستطعنا تنظيم عمال السكك وعمال الميناء في البصرة، وعمال النسيج، والحرفيين الصغار والسواق وعمال النفط في كركوك وتولينا قيادة عدة اضرابات.

نشاطنا في المنظمات الوطنية

شاركنا في تنظيم "الرابطة الشعبية للإصلاحات" وصار رفاقنا غالباً ما يرتادون نادي الرابطة ويعقدون الاجتماعات هناك. وقد شجع هذا السلوك العناصر الرجعية وعملاء الفاشية على تشديد العمل ضد الرابطة وضد الوزراء الديمقراطيين الذين اتهموهم بالشيوعية.

وقد اتصل العملاء الفاشست وبالأخص الدكتور غروبا المبعوث الالماني في بغداد ببكر صدقي واستمالوه الى جانبهم، فصار بكر صدقي يعمل ضد الحركة الديمقراطية والنقابية في العراق. وأعرب الوزراء الديمقراطيون الاربعة عن استيائهم من سلوك بكر صدقي وبالأخص ارساله القوات التنكيلية ضد بعض العشائر، وذلك خلافاً لتحذيراتنا السابقة الى منظمي الرابطة الشعبية للإصلاحات حيث اشرنا الى خطورة علاقات الفاشست ببكر صدقي. لكنهم لم يلقوا بالاً الى تحذيراتنا.

نشاطنا في الصحافة

وضعنا ايدينا على جريدة "الحارس" اليومية وتولينا ادارتها، وكذلك على جريدة "الاهالي" بموافقة صاحبها عبد القادر اسماعيل (ويعتبره عاصم بأنه افضل وأنبل الشباب، ويعادي الفاشية باخلاص).

كما أصدرنا عدة كتب ثورية ديمقراطية. ولم يساعدنا الرفاق السوريون في اصدار كتيب حول الوضع في العراق، كنت قد كتبته وأرسلته اليهم لغرض المراجعة والإصدار.

واعتقدنا انه بعد توسيع نطاق عملنا يجب

ابداء روح التنظيم والمرونة السياسية. وكنا بحاجة الى ارشاداتكم ودعمكم المادي والمعنوي.
ان غياب الاتصال معكم، وكذلك عدم ورود المساعدة من جانب الرفاق السوريين في مجال النشر قد أدى لحد كبير الى اضعاف حزبنا.
يقول عاصم، ان من الضروري إعداد كوادر شيوعية جديدة نظراً الى ان غالبية الكوادر القديمة معروفة لدى الفاشست والاستخبارات البريطانية والشرطة السرية العراقية. انه يطلب توفير الامكانية الى الحزب لإرسال 8 رفاق عراقيين الى المدرسة (الحزبية).

العراق وعصبة الامم

نشرت "مانشستر جارديان" بتاريخ 12 /7 خبراً بهذا العنوان، ذكرت فيه ان العراق شهد في الفترة الاخيرة عدة أزمات سياسية، فاستقالت منذ فترة قريبة حكومة جعفر باشا. كما يبدو بسبب الاخفاق في تمرير قانون الخدمة العسكرية الاجبارية، وبمناسبة مغادرة الخبير العسكري الانجليزي ديلي من العراق الذي لم تحظ بالدعم اقتراحاته بدعم حكومة بغداد، كما يبدو، ونظراً لعدم تنفيذ الحكومة البريطانية لوعودها بتعديل الشروط المالية في المعاهدة البريطانية – العراقية فوراً بعد ابرامها. ولم تقبل استقالة الحكومة ولهذا بقيت عالقة عدة قضايا. وفي الوقت الحاضر سافر المفوض الاعلى للعراق الى لندن حيث سيناقش في اغلب الظن جميع هذه القضايا مع ايمري.
اما بصدد مسألة الانضمام الى عصبة الامم فيعتقدون في العراق ان الحكومة البريطانية التي تشك في امكانية فرض الخدمة العسكرية الاجبارية في بلد مثل العراق، ولهذا فانها لا تعتزم دعم قبول العراق في عصبة الامم. ويعتقد المطلعون على الامور في العراق ان (جنيف) سترحب بانضمام ممثل آخر لدولة اسلامية لأن من شأن قبولها ان يمثل استبعاد جميع الاتجاهات المعادية لعصبة الامم التي تظهر بين فينة وأخرى في الشرق الاوسط وآسيا الوسطى. كما انهم يعتقدون ان من شأن انضمام العراق الى عصبة الامم ان يسهل فرض الخدمة العسكرية الاجبارية في العراق.
وذكرت "تايمس" بتاريخ 16/ 7 في البصرة، ان كل شيء يشير الى ان جعفر باشا سيوافق على طلب الشيعة حول توسيع مشاركتهم في الممثلية. ولكن المفوض العام رفض التدخل في هذه القضية. وبمشاركة الشيعة ستتغير الحكومة العراقية كثيراً وستنعكس هذه المشاركة ضمناً في مشروع القانون حول الخدمة الاجبارية، لأن الشيعة يعارضونه بشدة. علماً ان الشيعة في العراق يمثلون مجموعة قوية مارسوا دوراً كبيراً في ثورة العشرين.
وافاد المراسل في البصرة ان جعفر باشا اضطر نظراً لموقف المفوض الاعلى الى الاتصال مع وزير المستعمرات بواسطة الممثل العراقي في لندن (علماً ان الاخير رفع مؤخراً الى منصب الوزير المفوض العراقي في بريطانيا). ويدعو جعفر باشا الى اصدار قانون الخدمة العسكرية الاجبارية فوراً وابدى استعداده للتعامل مع كافة الاضطرابات المحتملة بسبب صدوره، لكن تنامي السخط في اوساط الشيعة يمكن ان يؤدي الى نتائج معاكسة تماماً.
واشارت "تايمس" بالاضافة الى ذلك، ان

الشيعة يطالبون في الوقت الحاضر بمنحهم خمسة مقاعد وزارية في الحكومة العراقية، بينما كانوا سابقاً يطالبون بمقعد واحد فقط.

بلاغ مفوضية الشعب للشؤون الخارجية
بتاريخ 28 /7 /27
العراق وبريطانيا

افادت "فاينانشال تايمس" بتاريخ 24 /7 ان الحكومة البريطانية قررت بعد التشاور مع دوبس ان تعيد النظر في المعاهدة البريطانية – العراقية. وسيسافر الملك فيصل قريباً الى اوربا من اجل مناقشة هذه المسألة. وإذا ما تم الاتفاق والتوصل الى نتائج مرضية فإنهم يعولون على ان تصر الحكومة العراقية على الانضمام الى عصبة الامم في عام 1928.

ولا يتوقع سقوط الحكومة كما يبدو وستخف حدة التوتر نوعاً ما.

وذكرت "نيرايست" في 21 /7 ان زيارة المفوض الاعلى العراقي الى لندن تركت انطباعاً جيداً لدى العراقيين، وستجرى المفاوضات في لندن في جو يبشر بالتوصل الى نتائج طيبة.

وأفادت المجلة بان تفسير الاضطرابات الشيعية في العراق ومطالبتهم بحقائب وزارية في حكومة جعفر باشا هيهات ان يتفق مع الواقع، لان الشيعة يمكن ان يطرحوا هذا المطلب فقط لدى تحول العراق الى دولة منفردة.

نشرت "الاهالي" بتاريخ 31 /12 /1936 نبأ تأسيس شركة للغزل والنسيج من اجل توفير المواد اللازمة لصنع ازياء الجيش والشرطة ضمن برنامج الحكومة للتصنيع. وأشارت الصحيفة الى ان العراق ينفق اموالاً كبيرة لشراء الاقمشة من الخارج. ولو اهتمت الحكومة سابقاً بالعمل على بناء مؤسسات صناعية لكانت الحياة افضل بكثير مما هي الآن. والبلدان لا تستطيع صيانة استقلالها بدون توفر المؤسسات الصناعية فيها والتخلص من التبعية للاستيراد من الخارج.

نشرت "الأهالي" بتاريخ 31 /12 /1936 نبأ اضراب عمال معمل بلفور احتجاجاً على فرض نظام العمل 10 ساعات وعلى الصعوبات لدى عبور النهر (دجلة) الى الضفة الاخرى. وطالب العمال بتقليص فترة العمل الى 8 ساعات. واضطر المعمل الى تلبية مطالب العمال اعتباراً من 9 يناير 1937.

نشرت "الاهالي" بتاريخ 31 /12 /36 مقالة تحت عنوان "الحياة السياسية في العراق" بقلم ابو بكر جاء فيها:

"ان العراق تجاوز تلك الفترة حين كان الاجانب يضعون العقبات مباشرة ويجعلون من الصعب على الشعب ابداء ارادته بهدف التحرر التام".

وقد انصرم عامان لكنه ما زال بعيداً عن تحقيق التقدم في الحياة الاجتماعية ولا يستطيع ممارسة العمل التقدمي في هذا الإتجاه، بسبب عدم وجود تنظيمات سياسية حرة في العراق من شأنها ان تعمل في هذا المضمار، وان تجلب المنفعة العامة وان تطالب بحقوق الشعب بأسره.

لقد عرقل رجال الحكومة ذلك، بينما كان الواجب ان يجعلوا مهمتهم الاساسية تنظيم الحياة الاجتماعية والاهتمام بتشكيلها، بغية توفير الفرصة، الى الشعب في هذا المجال، ومتابعة تطوره وتقدمه، ويتوقف عليهم بلوغ نتائج في البلاد مستقبلاً وسعادة الشعب.

ونحن نعتقد ان قادة البلاد الذين تولوا السلطة فيها خلال فترة طويلة في العراق، كانوا يعرفون هذا الجانب الهام وتأثيره على تقدم الشعوب وصيانة حقوقها من تلاعب المتلاعبين، لكنهم لم يرغبوا عن قصد، توقهم لبلوغ مآربهم الشخصية، في ان يستيقظ الشعب وان يهب ضدهم بغية تقييد حقوقه، ويقف ضد تبذير ثرواته.

نحن لا ننكر ان الاحزاب السياسية الموجودة في البلاد خلال الفترة الماضية كانت ضعيفة. وهذا الامر استغله الافراد الطامعون في القيادة بغية تحقيق اهدافهم الخاصة، والاستحواذ على الموارد.

ولهذا كانت الامور غالباً ما تنتهي بزوال هذه الاحزاب وحلها، حالما يتولى الاشخاص الذين سعوا الى قيادتها ويأخذون بتحقيق اهدافهم ومطامعهم.

وقد حرم هذا الامر الشعب العراقي خلال سنوات طويلة من التنظيم المستقل لأي هيئة سياسية أو حزب شعبي يتوليان ضمان المصالح العامة وصيانة حقوق الشعب في الانتفاضات والأمور العفوية. اما بصدد هذه الفترة الجديدة، حين تتولى السلطة "وزارة شعبية" سيضع هذا التنظيم السياسي مهمة له ببلوغ خير الشعب وسعادته. وينظر من بعيد الى عمل الحكومة التي ستوجد في البلاد. ويتابع ان يخدم نشاط الحكومة المصالح العامة للشعب بأسره، وتحقيق آماله واهدافه، دون اعتبار لشخص ما أو فئة ما.

ربما سيدخل الشعب العراقي هذه المرحلة السياسية الجديدة ويجني المنفعة من هذه الهيئة السياسية الجيدة وينضم اليها، بغية ان يكون شخصية فاعلة في تنظيم الحياة السياسية الجديدة، وبغية ان تكون الحكومة واضحة ومفهومة بالنسبة للشعب.

ان من يدرس برنامج "جمعية الاصلاح الشعبي" ومهامها الاصلاحية الواسعة سيتحسس الفائدة التي تجلبها هذه الجمعية الى البلاد وجهدها في رفع مستوى البلاد من كافة النواحي.

من ملف "ميسوبوتاميا" (ص41)
السياسة البريطانية في كردستان

كتبت "مورننغ بوست" في 6 يونيو: "يؤكد البعض استناداً الى الوضع الناشئ في كردستان وقتل 5 ضباط بريطانيين في الاشهر 3 – 4 الاخيرة انه كان يجب عليها اما ان تحتل كردستان كلها، وهو ما لا ضرورة له كما انه غير ممكن، واما مغادرة البلاد المذكورة وتركها للأتراك والأكراد، وسيقال ان من واجبنا حماية حقوق الاشوريين المسيحيين لكن مما لا شك فيه انهم في حالة تركهم لشأنهم سيجدون لغة تفاهم مع الجيران المسلمين، كما يجري ذلك قبل الحرب. وكلما عاجلنا في تركهم لشأنهم سيحدث ذلك بشكل أسرع. ان الانباء الواردة الينا من مناطق سكن الاكراد تشير الى رغبتهم في العودة الى النظام التركي. انهم ينفرون من العرب ولا يرغبون في الخضوع الى الحكومة العربية في بغداد. وقد جاء ممثلو الاكراد الى بريطانيا مراراً سائلين فيما اذا كان من الممكن منح كردستان الاستقلال، ولكنهم انتظروا ابعد ان هذا غير ممكن وبلا أمل وفي آخر مرة جاء الجنرال شريف باشا الموجود منذ وقت بعيد بأنه من انصار استقلال كردستان ولكنه قد زار منذ زمن بغداد لتحقيق الهدف ذاته بلا ريب ويصف الميجور د. ر.سوان الحاكم الاداري السابق في السليمانية في جنوب كردستان الوضع بالتالي:

في اطراف قرية مورتكا ذات الاهمية الاستراتيجية تعيش القبائل المحاربة جاما فاندا ومختلف اصناف قطاع الطرق والمجرمين الخارجين عن القانون.
في عام 1919 وبنتيجة ثورة الشيخ محمود ارسلت وحدة عسكرية بريطانية الى هناك. وقد تم التصدي الى هذه الوحدة وتشتت القبائل، مما جعلنا نعرف اكداس التبن التي استخدموها كمخابئ في الصيف.
وخلال عام 1920 وقعت اشتباكات كثيرة بين الانكليز والأكراد، وقد سعى اهل القرية للدفاع عن انفسهم الى اتباع سياسة اغتيالات حقيقية. وهكذا قتل الكابتن (موكا ديبون) والعديد من الضباط. ويبدو ان القبائل بزعامة كريم فتاح بيك تجاسرت على ارتكاب مثل هذه الافعال لمجرد انها كانت واثقة بمستقبلها، ولا ريب في ان فقدنا مكانتنا في جنوب كردستان.

ميسوبوتوميا
د. جيرالد / 12 يونيو

اعلن تشرشل في مجلس العموم انه يعتبر قضية ميسوبوتوميا جزءا من العلاقات بين تركيا وبريطانيا وانه من واجب بريطانيا ان تمنح فيصل "صديقنا" الفرصة كي يصبح ملكاً مستقلاً، حيث تقف وراءه السيطرة على البحار ومحفظة نقودنا، فان تضحيات بريطانيا وخسائرها في العراق لم تذهب عبثاً، حسب قول تشرشل. في الختام فان ميسوبوتيميا تمنحنا امكانيات غنية في مجال استخراج ومعالجة الزيوت النباتية وفي المستقبل القريب وحالما تتوصل الحكومة الى اتفاق مع الولايات المتحدة سيمكن الشروع باستثمار هذه الثروات.

مسألة العراق
بريطانيا والعراق

ورد من القاهرة ان الصحف المحلية تنشر الانباء الواردة من بغداد التي تذكر بوعود تشرشل منذ فترة وجيزة بتقديم المعاهدة البريطانية – العراقية في المستقبل القريب الى البرلمان البريطاني. وتنص المعاهدة على ما يلي:
1 – يؤسس العراق دولة دستورية مستقلة.
2 – يحصل العراق على الحق في زيادة افراد جيشه بغية ان يتمكن من الدفاع عن حدوده.
3 – تتعهد بريطانيا بان تقدم الى العراق المساعدة العسكرية لدى الضرورة.
4 – سيكون المستشارون الانكليز خاضعين للحكومة العراقية، وفي حالة حدوث خلافات بين المستشارين والوزراء العراقيين سيكون رأي الوزراء هو السائد.
5 – اذا رغب العراق في الحصول على مساعدة المستشارين الاجانب من اجل ضمان ادارته فيجب ان يكونوا من الانجليز.
6 – يتمتع العراق بالاستقلال في الميزانية لكن يجب ان تخضع القضايا المالية ذات الطابع الدولي للمستشار المالي (المراسل في بغداد لا يذكر فيما اذا كان قرار المستشار المالي هو الحاسم).
7 – يحق للعراق ارسال الدبلوماسيين الى الخارج، لكن الدبلوماسية البريطانية ستمثل العراق لحين تشكيل السلك الدبلوماسي العراقي. وذكر المراسل ان موضوع الانتداب لم يتقرر بعد.

ميسوبوتيميا

لندن/ 3/ 9. جاء في آخر الاخبار والانباء الواردة من العراق، ان التدابير الشديدة التي اتخذها (بيرسي كوك) قد هدأت الاضطرابات العربية. ولاذ مثيرو الفتن الرئيسيون بالصحراء، تتبدد اليوم اشاعات مفادها ان وزراء فيصل قدموا استقالاتهم بعد ان تلقوا رسائل من مدينتي كربلاء والنجف المقدستين تتضمن التهديد بالقتل لتعاونهم مع الانجليز. اما فيصل فيتماثل الى الشفاء بعد العملية الجراحية، لكن تتردد في بغداد اشاعات كثيرة حول الاختفاء المفاجئ للملك. واضطر الانكليز الى اظهار فيصل الى وجهاء بغداد.
نجحت الاضطرابات في ميسوبوتيميا من تقليص الحاميات البريطانية، واختيار فيصل، ومجمل سياسة فرنسا في الشرق الاوسط. ان الوضع في ميسوبوتيميا لا ينبثق عن المعاهدة التركية – الفرنسية.
يأمل الانكليز بان فرنسا لن تسمح الى الاتراك باستخدام طريق السكك الحديدية الى نصيبين للهجوم على العراق.

في ميسوبوتيميا

اعلنت وزارة المستعمرات البريطانية عن قيام فصيلة غير منظمة من الاتراك بالهجوم على العراق من جانب جبال كردستان تدعمها القبائل الكردية. وقد اشتبكت مع الوحدات العراقية والهندية التي تحملت العبء الاكبر في خوض المعارك، وكانت الخسائر كالتالي:
مقتل 3 ضباط (اثنان من الانكليز) ومقتل 13 وجرح 11 وفقد 7. وبلغت خسائر الوحدات العراقية 13 قتيلا و19 جريحاً.
وترابط في ميسوبوتيميا حاليا 7 كتائب هندية تدعمها مدفعية ومدرعات وطائرات بريطانية. وافاد مراسل (ديلي نيوز) في البصرة ان الوضع خطير، لكن (ديلي ميل) لا تربط ذلك بالهجوم التركي على الجبهة اليونانية، وذكرت (ديلي ميل) في البصرة ان الوحدات الانكليزية والهندية والعربية تعتزم ان تصد في شمال العراق هجمات الفصائل التركية من كردستان. وطهرت القوات الامبراطورية السليمانية ومقاطعة رانية وهي القوات الموجودة على خط كفري – كركوك – اربيل. ان الوضع خطير بسبب قلة عدد افراد القوات الامبراطورية في ميسوبوتيميا، وتلقت كتيبة المشاة 55 التي وصلت الى البصرة لتوها قادمة من الهند، تلقت الامر بالتوجه فورا الى ساحة العمليات القتالية في 250 كم شمال بغداد.
(مذكرة وزارة المستعمرات 4/ 9).

انسحاب الانكليز من ميسوبوتيميا

لندن 8 سبتمبر. يجب اعتبار وضع بريطانيا في ميسوبوتيميا مهزوزاً. وافادت ديلي نفا من البصرة بان فصائل تركية هاجمت بدعم الاكراد في الشمال مدينة ايرانية واضطرت الفصائل البريطانية الى الانسحاب، ولا ريب في انه تقف وراء ذلك حكومة انقرة.

الاحداث في ميسوبوتيميا

البصرة 8 سبتمبر. نجحت الهجمات الشديدة للفصائل التركية من جنوب ووسط تركيا من نشوء وضع خطير جدا في ميسوبوتيميا، وتشارك في الصراع

المسلح وحدات بريطانية وهندية وعربية، وتستخدم قوات الطيران، وترابط القوات البريطانية على خط كفري – كركوك – اربيل. ان انتصارات كمال (اتاتورك) تقوي روح العدوانية للمهاجمين.

ميسوبوتيميا

نظرا لاشتداد الاضطرابات في ميسوبوتيميا الموجهة ضد الانكليز، وكذلك نظرا لازدياد نجاحات الكماليين، حشد الانكليز مطلع العام قواتهم في بغداد وتبلغ 10 آلاف جندي وضابط، و32 طائرة واخذوا يستبدلون القوات العربية بقواتهم، ويرسلون العرب الى جبهات القتال.

في الوقت نفسه احتل الكماليون في تقدمهم مدينة الموصل واخذوا يهددون بغداد، كما احتلوا كركوك. وبعد ان ارسل الانكليز 1500 رجل من القوات العربية مع مدفعين ومصفحتين ومدافع رشاشة سحبوا قواتهم من بغداد الى منطقة تبعد 50 كم الى جنوب شرق بغداد، وفي الوقت نفسه بدأ نشاط تجهيز البصرة استعداداً للجلاء، واخذ بنظر الاعتبار التضاريس الارضية المكشوفة في غالب الاحيان في ميسوبوتيميا، والتي يمكن رصدها واصابتها بشكل جيد من الجو، فقرر الانجليز من اجل تقليل حجم الخسائر البشرية الى ادنى قدر، واخضاع العشائر بافضل شكل، تشكيل اسطول جوي ضخم في ميسوبوتيميا.

وبحلول شهر مايو تقررت نهائياً مسألة تشكيل القوات الجوية وتقرر ان تتألف القوات الجوية من 8 اسراب يضم كل سرب 12 طائرة، ويجب ان تكون الطائرات من الطراز الخفيف (بريستول) لغرض الاستطلاع وقذف القنابل واطلاق نيران المدافع الرشاشة، وكذلك طائرات الشحن (فيكرز فيرنون) التي تنقل 12 شخصا مع اسلحتهم، من اجل نقل القوات، اما دور القوات الأخرى فكان يقتصر على الدعم.

وكانت القوات المسلحة في ميسوبوتيميا في ذلك الوقت تتألف من:

1 – الجيش الوطني العراقي، اي جيش الشريف حسين، وحسب التسمية المحلية "شعبان".

2 – الكتيبة الآشورية – الكلدانية (اشور).

3 – الشرطة.

4 – القوات البريطانية.

1 – تتألف القوات العراقية من 6 آلاف رجل، وبطاريتي مدفعية ويرفد الجيش بالعرب لفترات مختلفة، لكن يخدم فيها فعلا ايرانيون وآشوريين وضمنها مختلف الدهماء، الذين يضطرون للخدمة العسكرية بسبب وضعهم المادي البائس. ويوجد بين الجنود عدد كبير من ذوي الخبرة القتالية، ويتم التجنيد بصعوبة بالغة. ويرفد ملاك الرقباء تدريجيا بالرقباء (ضباط الصف) من الجيش التركي.

ويوجد 7 جنرالات كبار (باشوات) و14 جنرالات صغار (ميرالاي) و 250 عقيدا (بومباشي) و500 ضابط (يوزباشي)، والف ضابط ملازم ثان. وغالبية الضباط جاءوا من الجيش التركي. وملاك الضباط جيد.

يبلغ راتب الجندي 20 روبية، والضابط 250 – 1500 روبية شهرياً. واللغة التركية هي السائدة. ويخلو الجيش من الروح الوطنية بسبب جهل الجنود، كما انه غير منضبط، وعموما لا يتمتع بقدرة قتالية.

2 – الآشوريون – الكلدانيون في 8

كتائب مع 4 بطاريات مدفعية. وقد رابطوا على الجبهة في منطقة الموصل (بموجب معطيات أخرى كان عدد (آشور) يتألف من 4 كتائب فقط. عدد افراد الكتائب 800 – 1200 رجل. وتضم الكتائب الآشوريين – الكلدانيين بصورة رئيسية، وهم من الهاربين من وطنهم في اثناء الحرب الاوربية، ومن ثم يوجد الفرس والبختيار الذين كانوا سابقا من افراد الشرطة الفارسية. علما ان الآشوريين – الكلدانيين انضموا الى القوات بسبب الفقر والتعصب الديني ضد الاسلام، واغلبهم من المشاة، والقيادة تضم ميجورا بريطانيا واحدا، ويتلقى الآشوريون بالاضافة الى البزات والمؤن 75 روبية شهرياً. وتعتبر هذه الكتائب اداة موالية تماما بايدي الانجليز بسبب تعصب افرادها ضد المسلمين.

3 – الشرطة تضم حوالي 7 آلاف رجل من المشايخ والفرسان، ولديها عدة مصفحات، ومقرها في بغداد، ويتولى قيادتها بريطانيون (المفتش العام، المدير)، ويتم تشكيلها على اساس عسكري، واكثر افرادها من الاكراد وقسم من الشرطة ينتمي الى "لواء التحقيقات الجنائية" والقيادة من الانجليز والمدنيين – الانجليز والضباط الروس السابقين. ويعتبر اللواء قسما مضمونا للانتشار السريع.

* من وثائق الكومنترن

أدب
و
فن

هل يمكن ترميم ثقافة الاستبداد؟

جمعة الحلفي

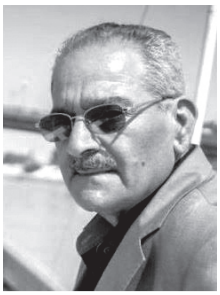

حتى أجل لاحق وغير مسمى سيظل السؤال عن ماهية ومضمون "الثقافة" التي أنتجت خلال العقود الماضية في العراق، أي في ظل شرط الاستبداد وتعبيراته وآليات عمله، سؤالاً ضرورياً وجوهرياً يستوجب الكثير من الجهد والبحث من أجل تقصي الآثار والندوب والتشوهات الفكرية والسلوكية والنفسية، التي خلفتها تلك الثقافة.

وإذا كانت المقابر الجماعية وفظائع السجون والإعدامات والموت المجانيّ، هي الوجه الدمويّ الأكثر تعبيراً عن نمط السلوك السياسي للنظام السابق، فإن آلية التفكير الدغمائي ومظاهر الظلامية والتقديس والخنوع للفرد – الديكتاتور وأنماط السلوك العبودي، هي من بين أوجه التركة الثقافية الثقيلة، التي خلّفها هذا النظام. ومثلما سيحتاج المجتمع العراقي إلى حقبة من الزمن ومن علاقات وأنماط الحياة المغايرة، لتجاوز الآثار الروحية والنفسية الدفينة لمشاعر الفقد والخسارات ومرارات القسوة والوحشية، التي تركتها مشاهد الجماجم والعظام البشرية المتكدسة تحت التراب، سيحتاج، لا محالة، إلى حقبة أخرى قد تطول، من ذلك الزمن المغاير لاستعادة طاقته على انتزاع أو تغيير سلوكيات وآليات تفكير وأنماط تعبير، كانت ثقافة النظام قد تركت ندوبها محفورة في جسد المجتمع وفي بنيته الروحية والنفسية، ذلك أن تحرر الإنسان ـ المجتمع من سطوة القمع وعبودية القوة ليس شرطاً وحيداً أو كافياً لتحرره من آثار وتشوهات تلك السطوة وتجلياتها الدفينة في أنماط وأنساق التفكير والسلوك.

لقد أسس النظام السابق ثقافته تلك، مثل أية ثقافية شمولية، على مبدأ استبدادي تعسفي، يفترض اليقين والصدقية افتراضاً تجريدياً وينظر إلى المجتمع المتلقي لهذه الثقافة بوصفه مجتمع القطيع القابل، بالرشوة والترغيب أو بالقسر والتعسف، على هضم وتمثل ما يضخ له، فكراً كان أم أدباً أم فناً.

ولم تكن تلك اليقينية الخرافية متأتية فقط من جوهر تلك الثقافة بوصفها ثقافة استبدادية وقسرية وقدرية، بل وكذلك من تلك (الضمانات) التي يوفرها لها الطابع القمعي التعسفي، الذي كان سائداً في حياة المجتمع، وهو الطابع الذي وفر لها، أي للسلطة السياسية، فرصة بلوغ غايتها في اختراق المنظومة المعرفية الاجتماعية والثقافية وتشويه أنساقها الحسية والجمالية، الأمر الذي أوقع ثم عمّق حالة اغتراب الثقافة عن هويتها الوطنية الأصيلة وعن طابعها

الإنساني، وأحدث شرخاً في بنيتها العامة لا يمكن جسره بمجرد إقصاء منتجي ومروجي تلك الثقافة، إنما يستوجب الأمر اجتثاث كامل التشوهات التي أحدثتها ثقافة النظام عبر إعادة بناء جذرية للثقافة الوطنية تقوم أساساً على قاعدة إعادة الاعتبار لهذه الثقافة الأصيلة والاعتراف بدورها كحامل للإرث الإبداعي والحضاري وبدور المثقف كعامل فاعل وحيوي في عملية رفد ومراكمة كل ماهو معرفي وتنويري، في كيان هذه الثقافة، وتعزيز طابعها الديمقراطي.

كذلك يجب أن تقوم على قواعد وأسس حرية الرأي والتعبير والعلاقات الايجابية واستقلالية المثقف واحترام دوره وحماية حقوقه.

فعبر هذه الأسس والقواعد وفي ضوئها فقط يمكن إنجاز مهمة إعادة بناء الثقافة الوطنية وتخليصها من ذلك الركام الرديء والظلامي، الذي نطلق عليه، مجازاً أو تجاوزا، اسم ثقافة.

ملف عن الشاعر الراحل
مهدي محمد علي

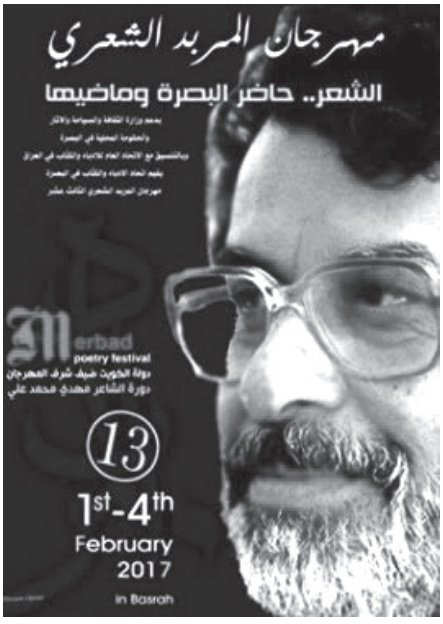

مهدي محمد علي .

ولد عام 1945 في مدينة البصرة.

تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط والثانوي في البصرة، وأنهى دراسته الجامعية في بغداد حيث حصل على بكالوريوس في الآداب من قسم اللغة العربية بكلية التربية 1968.

عمل عشر سنوات في مجال تعليم اللغة العربية وآدابها في مدارس البصرة المتوسطة والثانوية، ثم في الصحافة الأدبية منذ عام 1979.

دواوينه الشعرية: رحيل عام 78/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي / دمشق 1983، سر التفاحة/ دار بابل/ دمشق 1987، شمعة في قاع النهر/ وزارة الثقافة السورية 1995، خطى العين/ اتحاد الكتاب العرب/ دمشق 1995، سماع منفرد/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق 1996، ضوء الجذور/ وزارة الثقافة السورية 2001، قَطْرُ الشَّذى/ الهيئة العامة السورية للكتاب 2008.

ممن كتبوا عن شعره: محمدالأ سعد (الرأي العام الكويتية 1983)، محمد مصطفى درويش (الثورة الدمشقية 1984)، عبد الكريم كاصد (الحرية الفلسطينية 1984)، جنان جاسم حلاوي (النداء البيروتية 1987)، عبده وازن (النهار البيروتية 1987)،وحسين بن حمزة (تشرين الدمشقية 1987).

محرر ملف (أدب وفن) في مجلة الثقافة الجديدة لغاية رحيله ليلة 27/ 28 كانون الاول 2011 في مغتربه الحلبي بسوريا.

حمل المربد الـ 13 الذي عقد في البصرة للمدة 1 ـ 4 شباط 2017 اسمه، وفيما يأتي ننشر الأوراق البحثية المشاركة في الحلقة النقدية الخاصة عن الشاعر في المربد ايّاه، مع قصائد عنه.

البصرة جنة البستان
محاولة في التجنيس الروائي

جميل الشبيبي

(لن يبقى لي سلاح سوى
أن أشهر طفولة مدينتي
في وجه كل ما يهدد العالم الجميل)

مهدي محمد علي

كتب الشاعر مهدي محمد علي (البصرة جنة البستان) عام 1982 في السنة الثانية من الحرب العراقية الإيرانية واستغرق في كتابتها ثماني سنوات ورد ذلك في صفحة العنوان الأولى (كتب خلال 1982 – 1990) وأكدتها مقدمته انه بدا الكتابة عام 1982 (وحتى هذه اللحظة بعد انجازه) وهي اللحظة المؤشرة في نهاية المقدمة في أواخر 1990، مما يعني انه كان مشغولا في الكتابة طيلة الفترة التي استغرقتها الحرب (1980–1988)، يحاول جاهدا ان يستعيد صورة مدينة البصرة في (الخمسينات من القرن العشرين ص5) أما لماذا اختار الشاعر هذا التاريخ من عمر المدينة فهي (سنوات طفولتي من عمر الخامسة حتى الرابعة عشرة أنها صور مرئية وذكريات أحسست – ومنذ أكثر من عشرين عاما – بأنها مهما تبهت فأنها تتألق بمزيد من العمق بحيث تصبح معينا يغتني بالأمثلة الإنسانية والحضارية ص5).

محاولة في التجنيس

عندما كتب الشاعر كتابه في أعوام الثمانينات لم تكن السيرة تقنية واضحة في الأعمال الروائية، كما أن الحدود كانت صارمة في النقد بين الأجناس الأدبية وهي تفصل بين السيرة والرواية ، ثم أصبحت الحدود متداخلة حين ظهرت روايات تستفيد من السيرة الذاتية للكاتب والعديد منها يعمد الى تسجيل حوادث حياتية عاشها وكأنها أحداث روائية،وكتاب البصرة جنة البستان ليس سيرة حياة للشاعر مهدي محمد علي، بل انه سيرة حياة مدينة سجلها عبر ذاكرته وما تحفظه من صور ومرئيات إبان طفولته الممتدة بين الخامسة والرابعة عشرة، وهي سيرة لتلك السنوات بكل مرئياتها : شوارع وبيوت وأسواق وأضرحة وشخصيات شعبية ودينية وتقاليد الأعياد والمناسبات الدينية..ص6–5) بما يشكل عالما ذا ملامح لشخوص وأماكن وأحداث تدخل في اعتبار

كونها أحداث وشخصيات متخيلة بسبب غربتهاعن عالم المتلقي المعاصرفالأب وألام والباعة المتجولون والأسواق والمحلات لا تحيل إلى وقائع تحت أنظار المتلقي بل أنها تنأى به إلى أماكن لا يستطيع أن يتصورها إلا عبر مفردات السارد بسبب ابتعاد الفترة التاريخية التي تجعل من هذه الأماكن والشخصيات شواخص خيالية تدخل ضمن تقنيات السرد الروائي فالبصرة وهي مجسدة في سوق الهنود وشط العشار ومبنى المحافظة وكل الشواخص الواردة في الكتاب هي شواخص مندرسة ولا تشكل للقارئ المعاصر سوى أماكن مفترضة أو حتى خيالية لا علاقة لها بالبصرة المعاصرة بحيث يكون سؤال الناقد مقداد مسعود مبررا حين يقول في مقالته عن هذا الكتاب (من الذي يقوم بالتوصيف لفترة الخمسينات الطفل مهدي محمد علي، أم الشاعر المنفي مهدي؟.. إن الاستعادة مزدوجة القيمة فهي استعادة ما يأخذه الزمان عبر حركيته الطبيعية من الكائنات الحية وغير الحية، كما انها استعادة ما استلبته المنافي من العراقي الشاعر- موقع الحوار المتمدن - العدد 5026 في 2015/12/27) واذا كان الناقد مقداد لم يجب على سؤال علاقة الراوي بالشخصيات فالواضح أن من يسرد هو الشاعر مهدي محمد علي ومن يرى الأحداث ويسمع الأصوات هو الطفل مهدي وبهذا المعنى يكون الشاعر ساردا والطفل شخصية يرى ويسمع ومن خلال شخصيته تتجسد أحداث جنة البستان، كما أن ظهور الأماكن (البستان، شجرة التوت، الخان، سوق الهنود البصرة القديمة ومحلاتها... الخ) يمثل تأثيثا للمكان الروائي، وهو تأثيث ناطق بالتفاصيل التي تجعل من هذه الأماكن شخوصا ناطقة في جنة البستان، حين نعتبر الشخصية كائن ورقي لا علاقة لها بالانسنة.

لقد كتب الكثير من الكتاب مقالات عن هذا الكتاب ولم يحاول احد الكتاب – على حد علمي وقراءتي لبعض هذه الكتابات – تجنيسه باعتباره رواية يمتزج فيها خيال الشاعر بوقائع الأحداث في الخمسينات، خصوصا وان الكاتب وقد ابتعد عن مدينته زمنيا (كتبه بعد 32 عاما بعد مرور خمس سنوات على ميلاده عام 1945 وبين بداية الكتابة 1982) ومكانيا (المنفى في سوريا) وخلال ذلك لابد للشاعر من ترميم ذاكرته ببعض الأحداث والتصورات التي تجعل من الوقائع أحداثا اقرب للخيال، ويتضح ذلك من قوله (صورة آسف لضياعها ألان... كما أسفت وأنا أعيش فيها... ومنذ أواسط الستينات وقد تحول فيها الكثير من مرابع الطفولة الى مجرد شوارع حمقاء وأرصفة جرداء بعد ان كانت عوالم رحبة...ص7) ومن معاني هذا الأسف أن قدرة الذاكرة تبقى محدودة إزاء ذلك الواقع المتلاشي، ولذا سيكون السرد بالنيابة هو احد أركان هذه الرواية السيرية ، حين يكون السارد خارج الأحداث متخيلا لها وبانيا لمرافقها من خلال الكتابة المتخيلة، وهناك براهين على انشغال السارد / الشاعر مهدي، في ترميم ذاكرة الطفولة بتعليقات خارجية لا يمكن ان ترد على لسان طفل في الخامسة او بعدها بقليل، من تلك المواقف : (ظل يتذكر – من هو ؟؟- ويتحسر ويتمنى لو انه استطاع ان يرشق ذلك الجمع الذي أحاط بالمنضدة الكبيرة التي طرحوه عليها كي يقطعوا تلك الوذرة من اللحم، لئلا يظل نجسا وغير مسلم (....) ببولة قوية (يشنترها) في وجوههم ص13) وكذلك وصفه للثوب

الذي بات يرتديه (ذلك الجلباب الأبيض الشفيف... لئلا يتأذى، مأخوذا بمظهره الجديد،ص13) وهو وصف لمشاعر الطفل وهيأته، لا علاقة لها بسرد محتمل ومباشر من الطفل مهدي، بل انه سرد من سارد خارجي عن الأحداث. ويمضي السرد وهو يتخطى الشخوص والأماكن في رحلة حلمية تنحو إلى إعادة تأسيس مدينة الأحلام (البصرة) وقد اصبح مستقبلها (سنوات الثمانينات) مرهونا بالدمار حين يرى الشاعر معالمها الأليفة التي عاش تفاصيلها قبل هجرته الإجبارية وهي تتهاوى بضربات المدفعية والطائرات عبر شاشات الفضائيات التي جسدت العديد من المشاهد المرعبة عن مدينة البصرة وأهلها أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وبهذا المعنى كان الشاعر مشغولا بتأسيس مدينة بمرافقها الحية في ذاكرته عبر الصورة والصوت مستعادة من ذاكرة طفل، بالعلاقة مع خيال الشاعر مهدي محمد علي الذي يسعى بوعي وتصميم على تأسيس مدينة الحلم من سيرة حياة عاشها حتى خروجه مضطرا للهجرة خارجها.

نلاحظ ان السرد يبدأ في الصفحات الأولى بضمير الغائب وهو يسرد أحداثا لا يستطيع الطفل ان يسردها، فيكون الشاعر ساردا محايثا لذاكرة الطفل مهدي، لكنه سرعان ما يعطيه قيادة السرد بضمير الانا ليسرد أحداثا عاشها الطفل بشكل خاص، غير ان السرد ينعطف حين يروي أحداثا عاشها شخوص لم يحدد ملامحهم (صيادون،باعة متجولون او حتى أخوانه آو أمه أو أخته الكبرى) فيكون السرد بعين الكاميرا حيث تتضح أفعالهم ووجهات نظرهم،(قضاء فترة المساء قرب النهر يحمل الكثير من الاثارات فحين يضجر الجميع من الصيد وما يتطلبه من الصبر والأناة يلجأون إلى الحماقات الغريبة...ص39) كما يتنوع السرد حين ينعطف تجاه معالم المدينة وأسواقها، حيث تجري أفعال السارد دون سارد محدد وبعضها يأتي من ساردين يعطيهم السارد الرئيس حرية القول بينما يسرد هو صفاتهم وهيئاتهم وأصواتهم عبر ذاكرة الطفل الذي يبقى معينا دائما لا ينضب او من خلال وجهة نظرهم وهذا ما نفصل فيه في الصفحات القادمة.

جنة البستان

يحمل العنوان دلالات متعددة، تتخذ لها فضاء رحبا كلما توغلنا عبر حركة السرد اعتبارا من المكان المحدد بالبستان، الذي يمثل حياة الشاعر الأولى (ها هو البستان، وأنا أوهم نفسي بأنني أعود إليه.. ص26) وصولا إلى أعماق مدينة البصرة وشواخصها وشخوصها، لتكون بديلا عن هذا المكان الصغير، وسوف يتضح أن هذا الكتاب / الرواية قد بني على علاقة وثيقة بين الأمكنة والشخوص، فظهور الشخصيات وانطفائها له علاقة بالمكان المحدد ولن نراها في أمكنة أخرى يسرد تفاصيلها الشاعر بعين طفولته، وبهذا المعنى سوف لن نعثر على شخصيات تتفاعل مع الأحداث وتنمو عبر حركة السرد كما في الروايات المألوفة، بل أنها ستقدم جاهزة متكاملة عبر ذاكرة السارد الطفل، كأنها صور فوتوغرافية حملتها الذاكرة وبقيت محتفظة بألوانها وشبابها وحيويتها كلما وردت في ثنايا السرد شانها شان شواخص المدينة المكانية التي بقيت شاخصة ببهائها على الرغم من تغير الزمان واندثارها في الواقع الفعلي المعيش.

لقد احتفظ الشاعر عبر ذاكرة الطفولة بالأماكن والشخوص بالعلاقة مع نموه وانتقالات عائلته الكثيرة التي أصبحت فضاءات لذكرياته، وبهذا المعنى تتنوع الشخوص على وفق انحدارها من بيئتها، وتتسم بسمات تلك البيئة.

في البستان، تكون الذكريات غامضة وتأتي ملخصة عبر صفات حميدة او مستهجنة (أتذكر رمزية المشهورة تلك المرأة المبحوحة الصوت من مشاجراتها مع الجيران أكثر مما يتشاجر أولادها الأشقياء او بسببهم فهي تسب سبابا عجيبا وتشتم شتائم مخجلة ص19) يعادلها في الطيبة والهدوء (طلبة) اسما نادرا لفتاة عذبة هادئة، ولها أم عذبة وهادئة أورثت بنتها الوحيدة هذه الصفات، لأنها جاءت إلى الدنيا تلبية لأمنية...ص19) وفي البستان يتذكر الطفل حكايات أمه وهي تسرد بالنيابة عنه (أيام كان لامي طفلان او ثلاثة ص54) حين كان الأب يغادر البيت و يعود ألا بعد شهر تاركا الأم وأطفالها الصغار في ذلك البستان (بدون رجل يبدد وحشة المكان) وحين يأتي بعد شهر (لا يكاد يسمح بسؤاله عن ذلك الغياب المفاجئ والطويل ص54) وإذا أجاب يقول انه كان في (الزيارة) – زيارة مرقد الإمام الحسين (ع).

ويعلق السارد /الشاعر (أقول لنفسي بعد عشرين عاما من الذكرى وأنا أقاضي أبي (وهل يأمرك الحسين أن تمعن في اهانة أمي هكذا كي تؤدي الزيارة فهل يحق لامي بعد ذلك المفتتح العاصف ان تفكر باقتراح او اعتراض على هذه الزيارة المفاجئة ص55) ويعلق السارد على تصرفات أبيه عبر ذاكرة الطفل الذي يرى ملامح أبيه وهو غاضب ويسمع صراخه بوجه أمه وغضبه الشديد عن أي سؤال منها يعلق قائلا: (أصدقاؤه محدودون أهمهم (جودي)صانع كراسي الخيزران الذي يحب أبي ويصغي إليه بابتسام و(الحاج كاظم) الذي لا يلتقي به ابي إلا مرة آو مرتين في العام.. بسبب سكنه في الإحساء !! ويقول عنه انه (لم نسمع أبي يمدح أحدا إلا نادرا ولكن كثيرا ما سمعناه يوزع استهجانه واستخفافه بمن تذكر أسماؤهم في حضرته، وله عبارات معروفة في هذا المجال..(فلان؟؟! والقندرة فلان والكالة... والطكاكية) إضافة إلى انه كان مزواجا،ومع كل هذه الصفات البغيضة، لكنه يتذكر أن أباه على الرغم من تدينه (لم يكن يسمح لنفسه بالصلاة خلف أي من رجال الدين (المقلدين) انه لا يثق بأحد منهم ليسلمه صلاته ص55) وهو إضافة إلى ذلك يرفض الربح !! (بل يخيل إلي انه كان يبحث عن الخسارات دائما كي يحفظ نفسه من احتمال ربح (حرام) ص 55) مرددا حكمته المثلى (كن عبد الله المظلوم ولا تكن عبد الله الظالم..)

في الطريق إلى الخان

تتسع الرؤية وتتعدد الشخصيات والأماكن، كلما اقترب السارد من العشار حيث يعمل أخيه الأكبر في الخان، وفي الطريق إلى الخان تشتعل ذاكرة السارد من خلال عين الطفل وهي تنير شواخص المكان بداية من (جسر الانكليز) مرورا بالسفارة الإيرانية وبالتقدم ناحية يمين الجسر ينتصب (مخيم الأرمن – الطيني في الغالب بسطوحه الواطئة ونسائه اللواتي يفترشن الدرب والسطوح المتقاربة، ويتحدثن وكأنهن على مستوى واحدة ص70) وقد أصبح كمب الأرمن (مخيم الأرمن) الآن خارج

سجلات الذاكرة.وهناك تفصيل للمكان يشمل بيوت أثرياء البصرة (الخضيري) و(الشمخاني) وبيت (اصفر) (الذي هو المركز الثقافي البريطاني) تأتي بعده سلطة تجهيز الماء والكهرباء ثم وكالة حجي جيتا ص71) وهي شواخص مهمة في المدينة. ويستغرق وصف الشواخص التي تحيط بنهر العشار والأماكن الأخرى القريبة من النهر أكثر من تسع صفحات، يتوقف خلالها عند أماكن مؤثرة في حياة المدينة منها :(صالون حلاقة سومر) لصاحبه (محمد علي مهدي ذلك المواطن المغرم بالفن السينمائي والذي وضع كل ما يملك لخدمة هذا الفن من اجل سينما عراقية يزهو بها شخصيا امام السينما المصرية المتقدمة ص70) في هذا المقطع يتمرد الشاعر على عين الطفل ومعرفته بالمكان ليسرد هو ضمن خبرته بحياة المدينة عن شخصية محمد علي مهدي وصالونه ومواعيده المضبوطة (إن يحجز المواطن لنفسه موعدا – للحلاقة – باليوم والساعة والدقيقة...ص70) وقصاته الحديثة ثم إفلاسه وانزوائه بعيدا عن العيون بعد أن كان نجم المدينة اللامع !!.ومن الشواخص التي أثارت انتباه السارد في هذا التجوال دكان (جاسم ابو الثلج) الذي يعلق الشاعر متمردا على ذاكرة الطفل أيضا (إن منظر صندوق الثلج لا ينسى حين ينام فيه جاسم ظهرا بطريقة توحي وكأنه ينام مباشرة على ألواح الثلج كي يحظى ببرودة الألواح الجليدية المصفوفة داخل الصندوق ص71).

وفي الفصل الرابع تكون تفاصيل رحلته في الخان والناس الذين بعيشون فيه بعين الطفل وهو يعيش لحظات ممتعة لا نظير لها : الحبيبة الصغيرة التي (كانت تحبني بجرأة صافية وأنا أحبها بخجل ص85 وهي تعيش مع عائلتها: الام المسلمة نحيفة ناحلة وناعمة والأب الطيب البدين المترهل اليهودي الذي اسلم في (غرفة صغيرة تقع إلى يمين مدخل الطابق الثاني من الخان...) اما هو فيلازم دكان أخيه الخياط، وكان لهذا الحب البريء مكانة خاصة في نفس الطفل والشاعر ايضا ليفصل في حكايته وتتوج حكاية الحب بإصرار والديها وبمباركة أخويه (إلى حفظ كل هذه الذكريات في صورة فوتوغرافية...) تظهر فيها الحبيبة (ببدلة مكشكشة رشيقة القوام تعلو وجهها ابتسامة خالدة...) ويظهر هو (قصير ممتلئ بدشداشة وسترة ص89).

سوق الهنود

يمثل سوق الهنود (روح المدينة ص76) فهو فضاء يمتلك سمات شخصية روائية اذا اعتبرنا الشخصية الروائية كائن ورقي، فهو في جنة البستان كائن حي ينبض بالحياة عبر شواخصه المكانية وعبر عالم البشر الذين يمارسون أعمالهم ومصالحهم ابتداء من بداية اليوم وحتى غروب الشمس وبعضهم يبقى حتى ساعة متأخرة من الليل. وقد طبع السوق مواصفاته عليهم فأصبحوا كائنات هذا السوق دون غيره وبدونه فهم خارج الزمن.

اتخذ سوق الهنود حدوده واستقر على شكل معين في جنة البستان، فهو كائن خيالي يبنيه الشاعر مهدي محمد علي من مخيلته الطفلية بعد أن اندثرت معالمه وأصبحت ذاكرة بحته حتى عند مجايلي الشاعر الإحياء، والسوق على وفق التصنيف الروائي هو شخصية ساكنة بثوابت المكان (المحلات، المقاهي، عيادات الأطباء، المعارض..) وهو متحرك أيضا بشخوصه

الذين تخلقوا فيه وأصبحوا جزءا منه، وبذلك يصبح السوق شخصية تشبه الشخصيات الروائية الساكنة والمتحركة (النامية) فهم يتحركون وينطقون على وفق تواجدهم في السوق تعبيرا عن روحه وإذا خرجوا منه لم يعودوا شخوصا مؤثرين.

من اوائل المحلات التي ترد ذاكرة السارد، دكان (خماس ابو الشربت) الذي يبدو ساكنا في الوصف (تتألق الزجاجات الكبيرة المحشوة بكثير من الثلج تحمل في بطونها المنتفخة شراب البرتقال والزبيب ص113) ثم يتنفس الدكان في السوق حركة دائبة طول اليوم من خلال عمال المحل (الذين يقودهم خماس بالمراقبة والتوجيه وله ساع او ساعيان بالمنتوج من الشرابت والدوندرمة على المحلات التي تطلبه لأصحابها أو لضيوفها أو لزبائنها المكرمين ص113).

هناك باعة متجولون، وأصحاب بسطيات صغيرة،تكون منزوية قرب المحلات الكبيرة وهناك أسماء دمغها السرد بصفات المهن التي يمتهنوها وقد التصقت بهم ولا يمكن التخلص منها، مثل (عواد ابو الفشافيش، ابو احد الاتوجي، صالح الجايجي، جاسم ابو الثلج)، وفي هذا الفضاء المزدحم بالناس والبضائع والمحلات يدخل (تومان). داعية سينما الحمراء الجديدة (واحمد) داعية سينما الوطني وباعة الكعك والبقصم والجرك والصمون والسمسمية والبيروتي والداطلي وبائع الصبر طيب وكبة البرغل...ص120) يظهر تومان في صفحة أخرى من الرواية كعلامة من علامات المدينة (وهو يشمخ إلى السماء بجسده الأسود الرشيق حد الذهول انه لا ينظر أفقيا اوالى تحت إلا نادرا...انه ينظر إلى أعلى دائما، مكورا صدره إلى الأمام ومؤخرته إلى الخلف بشكل مبالغ فيه، ويخطو متأرجحا على أصابع قدميه بحذاء مطاط ص80) والشاعر لا يكتفي برسم صورة خارجية لهذه الشخصية المرحة التي شغلت المدينة فترة طويلة من الزمن بل يستحضر بعض حواراته الدعائية (... تعال شوف، شلخ ملخ،عركات بوكسات ص79)ستبقى هذه الصورة صادقة وناطقة عن هذه الشخصية الساحرة، وهي نموذج لمعظم الشخوص التي استحضرتها مخيلة الشاعر عبر عشرات السنين من الغياب عن المدينة.

ومن العلامات في مدينة البصرة التي يجسدها السارد – بالرجوع الى شخصية الطفل مهدي – صورة (صبري افندي) الذي يرد في أغنية صديقة الملاية الأفندي حيث يراه في ذاكرتها ليس افتديا كما تصوره الاغنية بل (يرتدي الصاية والعباءة وفينة (طربوش)حمراء على راسه...غير ان ما كان يشد انتباهنا هو حمرة وجهه رغم هزاله وشيخوخته الواضحة...وقد قيل لنا انه ياكل يوميا دجاجة كاملة موزعة بين الغداء والعشاء إضافة إلى الحليب والبيض والعسل في الصباح...ص165)

طرائف وشخصيات وحكايات

تحتشد جنة البستان، بالطرائف والحكايات البليغة التي تسرد حياة الناس في السوق او في المحلات الشعبية او عبر الحكايات الخرافية التي شكلت خزينا كبيرا في الذاكرة وهي تعبير صادق عن شخصية الشاعر المرحة طيلة حياته.

من الحكايات الطريفة في سوق الهنود حكاية (عبد الرحمن أبو الطوابع) ذلك الرجل

الخمسيني وصاحب اصغر دكان رأيته في حياتي فهي عبارة عن (رازونة) في جدار (ص133) فيها منضدة وكرسي وحقيبة يجمع فيها الطوابع المالية المعدة للبيع.
(ذات مساء رتب عبد الرحمن – كعادته – حقيبة النقود والطوابع وأغلقها جيدا وكعادته وضعها لصق قدميه أثناء إغلاق باب الدكان.. وبينما هو يهم بوضع القفل في المزلاج حفه رنين درهم مر بقربه، فلحقه متوهما انه سقط من جيبه أثناء انحنائه وتناوله، ثم عاد إلى استكمال إغلاق الدكان فاذا بالحقيبة قد اختفت ص133.
وهناك طريفة أخرى عن شخصية (حضيري) الشاب المرح والأنيق الذي يعمل عاملا لبيع الشربت في احد محلات السوق (يلبي طلبات الشاربين ويوزع نكاته الطريفة، انه شاب عصامي كان يعمل في الحرفة ويتابع دراسته حتى حصل على البكالوريا واشتغل موظفا في الموانئ فيما بعد (....) حين سئل – في المقابلة التي تؤهله للعمل –عن عدد الركعات في الصلاة، اجاب بانها (17) ركعة فاراد الممتحن احراجه (وهو عارف بضعف دينه وطرافته)قائلا له : لا... وزعها على اوقاتها الخمسة فقال حضيري: في الفصل الثامن (بيت المدرسة) تتضح صورة جلية من طرافة السارد الشاعر وهو يرتب ذاكرته ليتوغل في مجاهل المحلات الشعبية في البصرة القديمة بعد انتقال عائلته لتسكن في بيت كبير (كان مدرسة ابتدائية) قبل إقامتنا فيه ص 169) وهي محلة يحيى زكريا، حين تؤنث البيوت بأسماء النساء (فمحلتنا هذه عجيبة غريبة يمكن ان نسميها محلة النساء فالرجال لا يظهرون الا نادرا وهم يخرجون مع ظلام الفجر ويعودون مع ظلام المساء (....) انها محلة تحكمها النساء...) ثم يبدأ بالعد (بيت ام عبودي، بيت ام فهيمة، بيت ام غازي الملاية، بيت ام جبار بيت ام غازي يقابله بيت أم أسامة...) في هذه المحلة تبرز شخصيات تتألق في ذاكرة السارد وفي ذاكرة المتلقي لتحتل حيزا متميزا في السرد امثال (وصي) راوية الأفلام وأخيه الكبير (أسامة) الشاب المتأنق (وصاحب الاتيكيت والنظارات الطبية التي يندر ظهورها في محلتنا...ص176).
في مكان آخر نتعرف على (مكياج تلك الايام): الديرم والحمرة وأمشاط الشعر،والبلكيتات والزينة الذهبية: المكادس، الملاوي – الطوك – المعاضد، التكوك،الحجول الفضية...ص103.
وفي المحلات الشعبية يتواجد (جراخ السجاجين) و(خياط الفرفوري) (ونداف القطن) اضافة الى (عداي ابو الصخول) ذلك الراعي الذي عند الفجر يطرق الأبواب لجمع (السخلات) وأخذها إلى المرعى ص181).
لقد استطاع الشاعر مهدي محمد علي أن يرسم ملامح مدينة خيالية بشخوصها وبيوتها وشوارعها ومحلاتها الشعبية وطقوس الأفراح والأحزان فيها ومعتقدات ناسها ومعجم لهجتها الدارجة كصورة مصغرة لمدينة البصرة الواقعية إبان فترة الخمسينات كردة فعل إزاء الدمار الذي تعرضت له بديلتها في حرب أعوام الثمانينات، والشاعر يعيش أحزانه وكوابيسه في منفاه الإجباري خارج حدود مدينته التي أحبها واخلص لترابها.

مهدي محمد علي:
جنة البستان.. ومختارات شعرية

جاسم العايف

أوائل السبعينيات، عُرف الشاعر (مهدي محمد علي) من خلال قصائده التي نُشرت في الصحف والمجلات العراقية. وبداياته الشعرية كانت في خريف عام 1961 حيث نشر فيها أوائل قصائده.وكتبَ في السبعينيات عن قصيدته" لقطات .. من مدينة تعانق النهر" التي نشرها في جريدة "الفكر الجديد" الشاعر والناقد والقاص الراحل "أنور الغساني"، وكذلك كتب الشاعر"صادق الصائغ" عن قصيدته"سياج". مجلة (الكلمة) نشرت له في عددها الخاص بشعراء السبعينيات، قصيدة واحدة". كما ساهم في الكتاب الشعري (سلاماً أيها الحزب)، والخاص بالذكرى الأربعين لتأسيس الحزب الشيوعي العراقي، وساهم أيضاً في (الملف الشعري) الذي أصدرته مجلة (الثقافة الجديدة) كملحق لعددها المرقم (83) في تموز عام 1976، واختار الشاعر(هاشم شفيق) أربع قصائد قصيرة له هي:(ظهيرة/سحر الكينونة/ أمومة / يا خوفي). ضمن(ديوان الشعر العربي في الربع الأخير من القرن العشرين- 1 - العراق) الذي يصدر بدعم (منظمة اليونسكو) وضمن مشروع (كتاب في جريدة). منتصف عام 1978 ولظروف عامة - معروفة، انتقل مهدي سراً إلى (بغداد)، وبقي حوالي ثلاثة أشهر مختبئاً في شقة، عبارة عن مخزن لحفظ البضائع، ولا تثير اشتباه، أو اهتمام أحداً ما، ثم غادر بصحبة الشاعر "عبد الكريم كاصد" العراق، بدلالة بعض المهرين ،عبر بادية السماوة، في رحلة جحيمية دامت ثمانية أيام نحو(الكويت)، ومنها إلى عدن. عند زيارته البصرة وفي استضافة لاتحاد الأدباء والكتاب له، ذكر مهدي انه وعبد الكريم كاصد غادرا الكويت بجوازات سفر رسمية يمنية، وقد سافرا بطائرة متهالكة جداً تؤل لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وإنها عند محاولة اجتيازها مياه الخليج العربي، كادت أن تقع هناك، فقال لـ(عبد الكريم كاصد): " حتى لو سقطت الطائرة هنا، وأصبحنا فريسة سهلة لكل ما هو مجهول في تلك المياه.. فأننا نكون قد نجونا"؟!. ظل مهدي سنوات في عدن، وعمل محرراً لقسم المحليات في جريدة (الثوري)، ومنها غادر إلى مناف متعددة لا حصر أوعد لها ، وتوفى أخيراً في حلب بتاريخ 30/ 11/ 2011 ودفن فيها. بقي مهدي طوال سنوات المنافي، يعيش حياته في "البصرة" وطفولته بالذات، وكتب عنها

كتابه (البصرة..جنة البستان.. ذاكرة نثرية)- دار المدى - دمشق 1998-. وذكر في المقدمة :" أنه كتاب استذكاري.. وهو رؤيا طفل، لواقع مدينة البصرة في بداية العقد الخمسيني"..وقد استغرق منه ثلاث سنوات بدأ فيها من عام 1982 بعد أن تأكدت حالة النفي وحين استشرف المستقبل، ورأى انه لن يعود إلى مدينته إلا بعد سنين طويلة ، وربما لن يعود أبداً، وانه بالتأكيد، حتى وإن عاد، فهو لن يعود مطلقاً، إلى بصرة الطفولة والصبا ، لأنها بدأت تتثلم منذ إزالة (الطاق) في (العشار) ومبنى (البنك العربي) وساعة (سورين)، وتغير ملامح (كورنيش) شط العرب، وكذلك مقهى بعض مثقفي المدينة والذين يغلب عليهم توجه سياسي معين، ومن المشخصين جيداً من سلطات ذلك الزمان وأجهزتها الأمنية المتعددة، وهو مقهى" أبو مضر" ويطلق عليه شعبياً تسمية (الدكة). ومع تتابع وتواصل هدم ومحو شواخص وملامح البصرة بتعمد ولؤم من قبل أزلام السلطات المنهارة، وجلهم غرباء عن المدينة وتاريخها، وقد لفظتهم البراري الجرداء والقحط، ليكونوا مصدر القرار الأول، في مدينة الفكر والبحر والخضرة. وقد عملوا على فرض ذائقتهم المتخلفة عليها وعلى شواخصها التاريخية، التي تتميز بها عن سائر مدن العراق. كما يؤكد في المقدمة : " قررت أن احمل بصرتي معي مهما تتبدل المنافي والبلدان، بكل أحوالها وتحولاتها، ورأيت إن ذلك يستلزم أن أحفظها في صفحات كتاب، وعليه باشرت برسمه بالكلمات.. وقد رسمت المدينة كما رأيتها وعشتها، وكما رأيت ناسها وعايشتهم من عمر الخامسة حتى الخامسة عشرة".

عن كتاب (البصرة..جنة البستان) يذكر الشاعر عبد الكريم كاصد :" حين كنا في سوريا،هاربين من النظام،نعيش متجاورين، مهدي وأنا، كان هو مشغولاً بمشروعه الرائع (البصرة..جنة البستان) وهذا الكتاب من أجمل الكتب التي صدرت في المنفى. قرأه الكثيرون: مهندسون، أطباء، عمال، طلاب، وتم تهريبه إلى العراق آنذاك، ولكنه للأسف لم يجد أي صدىً، في الجو الثقافي العراقي والعربي الصدئ"- خارج النص/ ص 73. حاول بعض الباحثين بعد سنوات على صدور كتاب (مهدي) إيجاد (تناص أو تواصل) ما بين" بصريثا..صورة مدينة" للقاص " محمد خضير"- منشورات دار الأمد ،واغلبها مقالات نشرها الأستاذ "محمد خضير" بين الأعوام 1987 - 1990، في صحف ومجلات عراقية. وكتاب "البصرة ..جنة البستان" الذي صدر زمنياً قبل كتاب الأستاذ خضير. إلا أن ذلك لم يكن دقيقاً، إذ أن كتاب "بصرياثا" قد عمل فيه القاص"محمد خضير"، على طبقات عدة من أنواع السرد والرؤى متعددة الأشكال والمضامين، موظفاً قدراته السردية - الفنية المتميزة للحفر في تاريخ المدينة، وكذلك سطوة الحرب عليها ومتابعة اندثارها، وتجددها المتواصل، والميثلوجيا التي اتسمت بها،وحاضرها خلال حرب العقد الثمانيني، والذي تحولت فيه إلى مسرح قاس وضار للحرب." بصرياثا كتاب.. محيّر في طبيعة تصنيفه ،فهو ليس من جنس القص، أو السرد المحض، ولا هو بكتاب مذكرات ،أو سيرة..انه كما أراد الأستاذ (خضير) صورة مدينة،فيها مما ورد، ومما لم يرد في التوصيفات السابقة شيء كثير..وتمنح الاستعارة، بما تملك

من قوة المجاز لغة الأستاذ (خضير) شعرية لا يمكن تجاهلها، وهي تجسم النثر، وتجسده، ومن الجماليات المؤثرة فيه، التضاد الذي يأخذ بعداً دلالياً يمنح التشكيل النثري متسعاً من المطابقة التي تبرز الشيء ونقيضه،مما يجعله يؤشر على: خرائط مواقع، آبار،وغدران وبرك ووديان واكمات وجبال، ومراع، ومواطن قبائل تعوزها قدرة تخيل البرق عند بدوي يفرز السحابة الممطرة (المزنة) عن شبيهتها الكاذبة" (د. فاضل عبود التميمي / لغة المحكي في تناص مع الجغرافية والتاريخ والشعر/ قراءة في خيالات محمد خضير الصحراوية/ صحيفة الزمان الدولية العدد/ 1676 / 4 كانون الأول/ 2003). كما عد بعض الكتاب (البصرة.. جنة البستان) من أدب السيرة التي تغدو مدينة الكاتب جزءاً من حياة كاتبها، وفي حالات كثيرة تصير المدينة هي الهدف من كتابة السيرة، وتجيء من خلالها سيرة الكاتب كفرد من الأفراد الذين عاشوا في تلك المدينة، ذلك ما عرفناه في سيرة الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف في كتابه" داغستان بلدي" و" الطريق إلى غريكو" لنيكوس كازنتزاكي". "البصرة.. جنة البستان– سيرة نثرية" ذكر كاتبه في مقدمته أنه:" رؤيا طفل، لواقع مدينة البصرة في بداية العقد الخمسيني". إن جوهر الحنين للوطن هو الحنين للطفولة والصبا وما تأسس عليهما، والوطن هو الأشياء والأحياء وما اكتنفهما من حوادث ومسارات، الوطن هو البيوت وما فيها، والدروب وما فيها، هو الإنسان والحيوان والماء والشجر، ولكن الإنسان هو العنصر الفعال في كل ذلك ، وهو في الوقت ذاته العنصر المنفعل بكل ذلك ، أن ثمّة فرقاً بين مكان الوطن وزمانه من جهة ، ومكان المنفى وزمانه من جهة ثانية ، وهو أن الأول منجز قد توقف ظاهرياً ، والثاني مفتوح يأتي بالمتوقع وغير المتوقع ، ويظل الوطن – رغم توقفه الظاهري – يتناسل في الروح ، ويستعاد مرات ومرات ، بسبب انفتاح المنفى، وربما – أحياناً – بسبب انغلاقه وغموضه ، وفي كلا الحالين يظل الوطن يمور ويتناسل ، ولكن الأمر يختلف من مبدع إلى آخر ،فالبصرة .. جنة البستان بالنسبة لـ (مهدي) بضوئها وعتمتها كائنة في النصّ وان لم يتضمن ذلك النص النخلة والبلم ، أو شط العرب وجداول البساتين ، حتى وان لم يتضمن لقلق المئذنة أو الغراب الذي يسرق (الصابونة) من أرض (الحوش) ويمضي بها إلى السماء !. ثمة في المنفى ما يرسخ الوطن – البصرة – البيت – الجدار – الغرفة – المنضدة – نافذة الشناشيل ، فكلما أوغل الكاتب في الغربة أوغل في الوطن. وبالتالي فهو لا هذا ولا ذلك انه المزج بين الاستذكارات النثرية المطعمة بشيء من الشعر للكشف عن تصورات وأخيلة ذلك الطفل الذي يجلس في أعلى شجرة (التكي) ليتذوقها ويمسك بيديه صغار(البلابل) ولحمها الطري، ليستحوذ عليها، ثم وفي حالة من تجلي الطفولة الرقيقة ، يرق لصراخ أمها، التي تحوم حوله، فيتركها دون أذى، كما انه وعي الطفل وذاكرته الحادة جداً والتي تحتفظ بسمات مدينته.. ومع انه في المنفى لأكثر من أربعة عقود إلا انه يتفحص قصص مَن عايشهم فيها ومنهم أمه وإخوته وأخواته وجيرانه وأصحاب طفولته ، من الذكور والإناث ، وحتى أصوات بائعي (الصمون الحار والقيمر صباحاً)،

وكذلك يؤرخ لصوت (البلبل) الذي عادة ما كانت تبدأ (دار الإذاعة العراقية) بثها الصباحي بإشارته، والذي يختفي صباح 14 تموز 1958ليذاع بدلاً عنه ،البيان الأول للثورة، التي فتحت أبواب كثيرة ومتعددة من السعادات، والهناءات ، ومختلف أنواع التحولات والحراكات الاجتماعية المقموعة سابقاً، ومنها كثير من النشاطات المدنية والحضارية التي لا عهد أو تراث للعراقيين بها .

2

اختار الشاعر "عبد الكريم كاصد"، مختارات شعرية للشاعر مهدي محمد علي – اتحاد أدباء وكتاب البصرة – على نفقة شركة آسيا سيل للاتصالات – دار الروسم – بغداد – ط1 – 2016. وهي الأشعار الأولى التي تصدر لـ(مهدي) في العراق منذ أن غادره ، حتى وفاته في حلب.أعد "عبد الكريم كاصد " هذه المختارات الشعرية، من مجموعات مهدي الشعرية التي صدرت في المنافي: "رحيل" عام –1978 وزارة الثقافة السورية – 1983 دمشق، و"سر التفاحة" دار بابل – دمشق 1987 ، و"شمعة في قاع النهر" وزارة الثقافة السورية – دمشق 1995 ، و"خطى العين" اتحاد الكتاب العرب– دمشق 1996، و"سماع منفرد" دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق – 1996، و"ضوء الجذور" وزارة الثقافة السورية – دمشق 2001، و"قطر الشذى" وزارة الثقافة السورية – 2008 – دمشق. في مقدمته المعنونة "بساطة الشعر وصنعته الماهرة"،يقر (كاصد) انه حتى هذه اللحظة، لا يمكن أن يتخيل مهدي غائباً، وقد يحتاج إلى زمن ليقتنع إن رحلة (مهدي) هذه هي الرحلة الأخيرة : " قبل أسبوع فقط من رحيله، اتصلتُ به، فكلّمني دون أن يبدو عليه أبداً أنه سيشرع برحلة على الأرض، أو في السماء، فلا صوته نمّ ولا ألفاظه، انه سيغادرني إلى الأبد. بضعة أيام هي ويدخل (مهدي) الأبدية.. تلك الأبدية التي كان يمرّ بها في شعره، فيمسها مسّاً رفيقاً وهو يبتسم أو يضحك. مهدي الذي يخشى المغامرة ويدخلها مغامراً، لا يفارقه الهدوء أبداً ". ويتحدث (كاصد) عن رحلتهما في الصحراء،على جمل، وحينها لم ينقطع (مهدي) عن طرائفه!!." طرائفه هذه التي لم تغادره حتى وهو في أصعب المواقف،ولعل هي ما يجعلني شديد الانتباه لجِدِّه أيضاً".ويذكر، إن مهدي، في دمشق، بسبب العوز والحاجة ، كان يبيع ما يكتب بالقطعة ليعيش وأسرته الصغيرة عيشة الكفاف، وبالترافق مع مرض زوجته الشديد – المزمن : "فما أكثر المقالات التي نشرها بدون اسمه، والمقاولون الذين باعوا مقالاته للصحف كثر وهم بارعون في تسويق بضائعهم أو فضائلهم"؟!. ويعلن"عبد الكريم كاصد" انه:" لن يتحدث عن الكتب التي كتبها (مهدي) والتي ظهرتْ بأسماء أخرى" ؟!. يبدو شعر (مهدي) لأول وهلة بسيطاً، ولكن ثمة صنعة خفية، صنعة ماهرة، وإمكانية ملموسة ، خلف تلك البساطة والتي لم تفارقه نهائياً،بل أنها ميزت قصائده وباتت أكثر وضوحاً واشد إحكاما في قصائده القصيرة، وحتى لا يبدو هذا الأمر، وكأنهُ رأيٌ أملاه الغياب النهائي المتجسد بموت مهدي، يعمد "عبد الكريم" إلى تضمين نهاية المختارات، مقالة بعنوان" طوفان المشاعر وبوصة الورق – قراءة في ديوان رحيل عام 1978"،وقد كتبها قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً

وهي فصل من كتابه (متنٌ.. هامش؟)، ليكتشف القراء أنهم إزاء شاعر من بين أجمل وأهم الشعراء العراقيين، و:" لم يستطع نقدُنا القاصر اكتشافَ عالمه الغنيّ،لانشغاله بما هو خارج الشعر". لا نحاجج الشاعر "عبد الكريم كاصد" هنا ولا ندافع عن قصور النقد، بل نُذَكّر، بعد عام 1979، ذلك الزمن المّر، تغيرت الخارطة الثقافية – الاجتماعية كثيراً، بالترغيب والإكراه والبطش، وبات من الصعب جداً ،حتى الهمس، بأسماء الكتاب، والشعراء، والفنانين، والمثقفين.. الخ الذين عرف عنهم الانتماء ،أو مجرد (المولاة أو الصداقة) مع جهة سياسية، كانت، خلال تلك الحقبة، حليفة للنظام، وكذلك عدم توفر مجموعات "مهدي" في المشهد الشعري – العراقي، ولا زالت حتى الآن غير متوفرة؟!. ولكن لنا حق السؤال في: لماذا صمت النقاد العراقيين، خارج العراق عن المجاميع الشعرية التي صدرت لمهدي في الخارج، وبطبعات متعددة، وكانت متوفرة أمامهم، بمنتهى الحرية؟!.حتى كتابه النثري "البصرة.. جنة البستان"، لم يحظ بما هو مناسب، على أهميته؟!. والأكثر دهشةً، وغرابة، وألماً، إن مهدي لم يدع إلى مهرجانات "المربد" الشعرية المتعددة، بعد سقوط النظام، إلا مرة واحدة وفي المهرجان الأول فقط، وضمن الشعراء والضيوف الذين يحضرون على نفقتهم "الخاصة"؟!. رسخت تجربة (مهدي) الشعرية بداية السبعينيات بتواصله مع النشر، واعتماده ما سمي،حينها، بـ (القصيدة اليومية)، وشاركه في هذا المنحى، بعض، شعراء عقد السبعينات العراقي، والذين ذهبوا إلى التقاط المشهد الحياتي اليومي، ومدلولاته الواقعية – الإنسانية، شعرياً ليحولوه إلى جزء من توجه فني – جمالي، متجسداً في واقع معطى، وليستحيل، شعرهم عبره ،إلى تميزه بالألفة.

" أتذكر صندوقاً كبيراً
كنت أكنز فيه مئات الصحف
وقصاصات الأوراق
وأشياء أخرى
أتدلى فيه كما أتدلى في بئر
بحثاً عن صحيفة قديمة
أو قصاصة ورق
أو تلبية لرغبة طفل
بحثا عن أجزاء لعبة محطمة
لقد ابتعد الصندوق
ابتعدت غرفتي
وابتعد الوطن
وأنا الآن أتدلى نحو وطني
كما أتدلى نحو بئر أليف وموحش!."
(المختارات).

يستثمر مهدي محمد علي في بعض قصائد المختارات، ومنها: وطن، بالأزميل، قيلولة، المدينة، مطر، شارع البصرة، عابرة، لحظة رمضان، قيلولة، حمّى، أمي ..الخ ، ثنائية: الحضور – الغياب، حضور الذاكرة – الماضي، وغيابها الآني، استدلال الأمكنة والأحداث والأشخاص بوضوح، محاورتهم، طغيان ملامحهم ، الاحتفاظ بأدق الخصائص الواقعية للمشهد – الماضي القابع في الذاكرة – غياب الوطن في المنفى واختراق المنفى ذاته في حضور الوطن، الناس، الأحداث، الصلات اليومية ، المدن ، الشوارع، الساحات العامة وغبارها، حدائق البيوت، الأزقة، البساتين، الأنهر

، ألوان الستائر، المنزلية، تراب الغرف المقفلة، وحتى فسحة ضوء نافذة المطبخ. هذه الاستحضارات، محاولة للتشبث بالماضي الهارب، استناداً إلى قوة الذاكرة وحضورها العيني– المتفوق، المتوقد من خلال إقصاء المنفى ، والعمل على نفيه كوجود متحقق، لا أمل بالفكاك منه، ومُعطى دون اختيار شخصي، ثم العمل على تجاوز حضوره اليومي – الطاغي المتجسد بالحاضر ذاته، الملموس المباشر. تعتمد ذاكرة (مهدي) الشعرية المشاهد بطريقة ليست حلمية، بل متجاوزة ومنظمة من خلال اشتغال آليات الذاكرة التي تستدعي الوطن (الحاضر –الغائب) ، وكذلك الصديق ، الأم، صبية الجيران والسياج الذي يتسلقونه :

" اعتاد أطفال الجيران
أن يمتطوا السياج بيننا كالحصان
إمرتهم أن يكفّوا
فلم يستجيبوا، وظلوا محدقين
فاكتشفت عيونهم الجميلة الملونة
وحين كفّوا
صار السياج بيننا فاصلاً
واختفى ذلك النبات البشري المتسلق
وأزهاره الجميلة الملونة!. " (المختارات)

ثمة حضور يومي ، مستقى من بساطة الحياة، ومصادفاتها الغريبة، المدهشة المكتظة، فالأطفال، في قصيدة – سياج – بصخبهم وشقاواتهم والذين يمتنعون عن تسلق سياج البيت، بعد نَهرهم، يحولون السياج إلى عازل عن الحياة ذَاتها، بعد أن كانوا "النبات البشري المتسلق"، وتبادل الأدوار بين المانح والمتسكع في قصيدة – مواقع – والخاضع للمصادفة البحتة، وصَبيّة الحارس في قصيدة– ستائر– التي تراقب ستائر المنزل،وتجهل لماذا وكيف وأين توضع تلك الستائر؟!. وتتحول الصور اليومية إلى فعل مملوء بالغضب والمرارة، ويبقى الأمل الذي يفعّل هذه الكائنات البشرية ، المقتنعة بحياتها الهامشية التي تحولها اللغة البسيطة الماهرة، والصور الغنية المتقدة بالحياة، إلى نسيج يضج بالحركة والوجود المتوتر والإنساني. في بعض قصائد المختارات، تقبض ذاكرة المنفي على الماضي، لتستريح من أعباء الحاضر، ولتخترق الراهن وتسعى لان تمسك بالأشياء – الغائبة – ولتؤنسن العلاقات الشخصية، التي تتمسك بها الذاكرة بقصدية لمغالبة الحاضر المشخص عبر المنفى. تفعل الذاكرة حتى الجمادات، وتستدعي الكلاب السائبة النابحة ليلا في مشهد فنتازي، بقصدية، لتجاوز وقائع الحياة اليومية للمنفي قسراً، فحضور الطفل المتدلي مرتبط بفضاء الذاكرة لخلق معادلة مع الحاضر (الموجع – الموحش) ، تتشبث الذاكرة بالأشياء الهاربة من الحاضر والساكنة هناك، في الماضي البعيد، لكنها لا تتوقف عند الشخصي فقط :

" أما زالت غرفتي وحيدة
تتمرغ في سكون الوطن
الوطن الذي تلوى على رماد الحرب
الحرب التي تلتهم الذكريات ؟!"
(المختارات)

الشاعر"مهدي محمد علي" في كل ما كتب من شعر، تمكن من الابتعاد والنأي عن عادية الأحداث اليومية في الحياة العامة– الخاصة،وهو إذ يفعّل القبض

على المشاهد اليومية، التي لا تثير انتباه غيره، ،فانه يجعلها في أشعاره، ذات مدلولات إنسانية، ويحولها إلى جزء يبدو لنا أليفاً من خلال اكتشافنا،تلك التفصيلات، اليومية العابرة، لتتحول إلى أجزاء متماسكة، ولابد من مسكها وتحسسها الجمالي، وفّعَلَ (مهدي) ذلك، بقدراته ،وإمكانيته،و الخاصة، على التوصيل في قصائده، وهذا: لا يتأتى إلا لشاعر ذي مقدرة فنية واسعة تختفي خلف موضوع القصيدة، وليس فيه.. إذ غالباً ما تفاجئنا الكثير من القصائد باللعب على المهارات الشعرية في ثيمات لا تدل عليها،وكأن الشاعر معني هنا بإظهار قدراته على النظم وليس معنياً بالقصيدة.. تلك القصيدة التي تنشغل باستيعاب موضوعها جمالياً وفنياً ، بقي مهدي في كل حياته مخلصاً للشعر في تجلياته الفنية – الحياتية ،وتلك الحيوات – الإنسانية ، الهامشية بالذات، وقد حوله ذلك الإخلاص النادر، إلى شاعر يحدق في الواقع العيني بسعة ورهافة وينحو إلى التعامل مع ذلك الواقع وتعقيداته الفعلية، بعيداً عن المهيمنات التجريدية ، والتي تكون متناقضة ومفارقة لذلك الواقع، المعطى، ذاته.

مهدي محمد علي/ البصرة.. جنة البستان.. ذاكرة نثرية/ دار المدى– دمشق/ 1986.

وظائف المخيلة في شعر مهدي محمد علي

مقداد مسعود

الشعراء كثيرون.. لكن قلةً منهم من صارت بحيازة آثاره الشعرية ماهية الشعر ومن هذه القلة الشاعر مهدي محمد علي، وهذه الماهية ثرة التحقق من خلال العنصر الذاتي المتجسد في نصوص مهدي.. أقول ذلك، وأنا معتكف على نصوصه منذ سنوات.. وللشاعر مهدي دراجة هوائية إطاراها: المخيال والأسئلة.. كما هو الحال في قصيدة "بالأزميل:"

"أتذكرك يا أمي
وأتأملُ القصيدة
فأرسم سجادةً للصلاة
وقارورةً للدواء،
أتذكرك ناحلةً مهمومةً يا أختي
وأتأملُ القصيدة
فأضُيفُ صفصافةً
وجدولاً
وطحالبَ
أتذكرُ نافذتي هناك
فأفتح نافذةً في القصيدة
وأمتداداً طفيفاً
وبيتاً للجيران
وزجاجا ملوناً
وصبيةً يلعبون
أتذكرك يا نفسي
فأضيف أفقاً دامياً
يُؤطره الدخان
وجرّةً مكسورة"..

نلاحظ أن فعل التذكر لا يكرر الزمن النفسي السابق، بل يضيف إليه مؤثريّ القسوة والزمن . . وهكذا نحصل على نوع من القصائد التي يمكن ان أطلقَ عليها القصيدةَ الواعية بذاتها..فالشاعر يكتب ويعي انه يكتب قصيدة، فهو يدخل إلى نصه ثم يخرج منه ويتأمله من الخارج ويدخل ليضيف كلمات أو رسوماً..والشعر هنا يختلق لغةً من اللغة نفسها وهكذا يؤمُ منها ما يوائم روحهُ ورؤياه.. وهنا خطورةُ اللعب بنار اللغة التي أودت بحياة بعض الشعراء.. "عمر أبن أبي ربيعة".. "يزيد ابن مفرغ"، فاللغة هنا تشتبك مع المتنافر والمتناحر والمتباعد والمتعارض، وعبر هذه الأقطاب والتحكم فيها يبسط الشاعر ظله الأخضر على الضروري.. ومن هنا ستكون اللغة من "أشد المقتنيات خطرا" لأنها الرحم التي تتخلق فيها إمكانية "تهديد الوجود من جهة الموجود".. وبتجسيد شعري جواهري "أنا حتفهم ألج البيوت..." أو بلغة محمد صالح بحر العلوم "أين حقي"؟.. أو مظفر.. "أحدٌ أحدٌ طلقةٌ ماثلة.."..والأسئلةُ تديمُ يقظة سراج الشاعر وتصون زيتَهُ من الدنس، والشاعرُ الشاعرُ في كل ما يفعل بريء من الأفك واللغو.. فالشعر وبشهادة الشاعر هلدرلن "أكثر المشاغل براءة".. والشاعر شعريته ليست مشروطة بما

يقول بل بما يتخيل في قوله، أعني قدراته الجمالية في التوهيم، وهذا الشرط لابدّ مَنَ توفره في حقول الإبداع كافة.. وهذا التوهيم البديع، يتموضع خارجَ الصحيح والخطأ.. وخارجَ أنظمة السلوك الجمعي المشروطة بالحقيقي والمقنع والمتداول والمؤتلف.. وبإختصار فأن المتخيّل وبشهادة الناقدة كايت همبورجر:"هو تلك اللذة اللامبالية التي تحمل سمة الجمالي".. وسيكون تعقيبي على شهادتها: المتخيل هو اللغة بوظيفتها الجمالية..

* * *

تنماز قصائد الشاعر مهدي محمد علي، بإنتاجها الغزير للأسئلة، وقد خصصت مُبحثا لها في مخطوطة كتابي عن مهدي محمد علي. .لكن قصيدة "صوت"! لا تبذر أسئلة في تربة القصيدة، بل هي القصيدة بحد ذاتها، وهناك نوعية الأسئلة فهي تختلف عن سواها، عنوان القصيدة من كلمة واحدة نكرة: صوت! وكأن علامة التعجب لها وظيفة مهاد بالنسبة للقارىء وستكون علامة التعجب بوظيفة إشارة مرورية للقارىء وهو يسلك فضاء القصيدة، علامة التعجب غزيرة الدالة بتوقيت اسطر القصيدة.. وتأويلات الصوت تتوالى بفتيت ذري.. وبمخيال شخصي: أرى صوت العنونة حبل غسيل. .وكل الأصوات عليه أراها طيورا متنوعة الطبائع.. أو أقترض رؤية الشاعر نفسه في قصيدة "هذا العالم/ من ديوانه شمعة في قاع النهر":

"يبدو لي أحيانا
وأنا أتطلع إلى السطوح.
إلى الثياب النظيفة
وهي ترقصُ تحت الشمس
يبدو لي أنها بعريها الفريد
بلا أكف
بلا ساق
وبلا خصور
ترفع قاماتها
مثل رايات في كرنفال..

أعود إلى قصيدة صوت، أتأمل بنية الإفتقار أعني ثريا النص، "صوت"! مفردة نكرة، علمها المؤلف بعلامة تعجب"!" وهكذا منح َفطنة القارئ هدباً من أهداب النص. وسينتقل فعل القراءة لديّ من أفقية العنونة، إلى عمودية تنضيد القصيدة. .ربما بل بالطريقة هذه سأنظم خيط قراءتي بدلالات خرزات القصيدة، لأحوز في النهاية: قلادة المعنى.. وإذا شئتُ مسرحة فعل القراءة سيكون الشاعر من خلال قصيدته خطيباً وسأكون أنا القارئ مترجما لكلام الخطيب.. وبشهادة "دانيكا سيليسكوفيتش" فإن "المترجم لايعيد الكلمات التي يتلفظها الخطيب، إطلاقا بل يعيد صياغة أفكاره" وهذه الصياغة تشترط عليّ أن أعي جيدا.. "إن عملية الفهم... ترتبط بترجمة الدلالات اللغوية وفق المعلومة المتاحة فتقدم خزينا جديدا ناجما عن تجربة بحيث يمكننا القول أن في كل
نتيجة لغوية... صلة باكتساب جديد غير لغوي".

أعود إلى الصوت الذي يخرج من صوتيته ويتجسد في أشكال شتى تثير القائل قبل المتلقي
"صوتٌ هذا" ؟!

هكذا يتساءل الشاعر ويجيب على سؤاله جواباً شعريا رؤيويا، ويأخذ الجواب صيغة متسائلة، ربما ستكون للقصيدة وظيفتيّ التأويل أو تفكيك شفرة العنونة تفكيكا ذريا

من خلال فعل الترجمة للغة من داخل اللغة نفسها. .

"أم كأسٌ تتلألأ
أم خمرٌ دون زجاج"؟!
وهنا إحالة نصف معلنة لقول النواسي
"رق الزجاج وراقت الخمر
فتشابها وتشاكل الأمر.."
وهنا سيكون توقفي مثنويا:

* أتوقف عند "أم"... فوجودها يعني وجود "علاقة تناسخ بين احتمالين كليهما موضع تخيير، في حين ان استعمالهما هنا قد خرج على هذه القاعدة.." لكن الشاعر هنا تمرد على النحوي وخصّب قصيدته بقوة المخيل وحده وافتتن فعل القراءة بانزياحات الدلالة..
* التوقف الثاني سيكون في كيفية تقبل هذه الصورة الشعرية التي تتجاوز "الاختلاق الإمكاني" وتبلغ ذرورة "الاختلاق الامتناعي" حسب حازم القرطاجني في "منهاج البلغاء وسراج الأدباء/ تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة".. وشخصيا أرى الصورة الشعرية في قصيدة "صوت"! ينطبق عليها القول التالي لحازم القرطاجني.. "ويحسّن موقع التخييل من النفس، أن يترامى بالكلام إلى أنحاء من التعجيب، فيقوى بذلك تأثّر النفس لمقتضى الكلام. والتعجيب يكون باستبداع مايثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي إلى مثلها فورودها مستندر مستطرف لذلك: كالتهدّي إلى مايقّل التهدي إليه.. حازم القرطاجني.
ثم يعيد الشاعر إنتاج السؤال نفسه "صوت هذا"؟! ثم تنهمر الاحتمالات الغزيرة المضفورة ما يتجاور بين الأسئلة/ الأجوبة ..ثم تنتقل القصيدة إلى الإحالة الثالثة:

"صوتٌ هذا
أم أهلي جاءوا
استقواء على الغربة
أم موتي أتقبّله؟!
الإحساس بالأجل

وفي الإحالة الرابعة وهي الأخيرة، ستكون الإجابة مثنوية، مع الإعلان عن مصدر الصوت بنسق ثلاثي الغاية منه ربما ترك القارئ في منطق الاحتمالات..
"صوتي هذا
أم الأم تنادي"

حسب قراءتنا هذه هواجس الشاعر التي صوتت فيه وهي مركوزة في صوت الشاعر الجواني الذي يعتمل بكل ضروب القلق المشروع والمشرّع على مالايتوقع وهو في وحشته يئن من وحدته وغربته وحنينه إلى البصرة فذات الشاعر تتذرى بقوة قلقها الرؤيوي وسنرى في قصيدة "لماذا" ذاتا مثنوية، يتم تشغيلها بقوة الأسئلة أيضا، فالشاعر يشتهي بتوقيت واحد ان يفعل فعلين، والشاعر يستغرب ذلك فلهذا يرفع السؤال راية احتجاج على نفسه:
"لماذا
لماذا أشتهي _ أحيانا
أن أحتسيَ كأسين معاً
وأدخنَ سيجارتين معاً ؟!
لماذا أريد _ أحيانا
أن أتذكر أمي مرتين في لحظةٍ واحدة ؟!
لماذ أنا هنا
وحياتي هناك"؟!
نلاحظ ان القصيدة مكتوبة في دمشق 15/ 2/ 1993، وقصيدة لماذا... في دمشق 29/ 9/ 1993
ونلاحظ أن الشاعر هو أفضل من يجيب على

أسئلته هذه كما هو الحال في (فروسية..)
"اتّئد .
ضَع وردة، ، اللابيت – لامنفى
بعروة سترة اللابيت – لامنفى"..
ونرى الشاعر يحاول مع البصرة استعادتها بتوقيتها هي وبمعرفته بذلك التوقيت كما هو الحال في قصيدة "شاي العصر:

"في مثل هذه الساعة
يشربون الشاي
حين تميل الشمس قليلا
ويغمر الظل، الجانب الشرقي من حديقة المنزل
ينتقلون بأكوابهم من غرفة إلى غرفة
ويكملون شربه على عشب الحديقة"...

* * *

تجربتهُ في قصيدة "صوت" ليست الأولى ولا الأخيرة. . سوف يمازج مهدي محمد علي بين المصوّت والمرئي في قصيدته "خبز الله".. فهي تشتغل بإستعادة ذلك الكائن الصوتي الذي لامثيل بين الأصوات وكنا في بصرة الستينات ننتظره في شهر رمضان من أذاعة الأهواز أعني صوت المقرئ "جواد ذبيحي".. وفي قصيدة مهدي تختلف مؤثرية الصوت عن قصيدته "صوت"! فمصدر الصوت هنا واضح "منطلقٌ من ذاك الراديو ذي العين الخضراء السحرية" وهنا اتساءل أليس الراديو محض مناسبة لتفجير خيال مهدي المتأهب دائما؟، هذا الخيال، يعيده إلى جنة البستان خير بلاد الله للجائع والمفلس والعزب أعني البصرة بشهادة أبي حيان التوحيدي.

"من صوت بريسا
يأتيني صوتَ أذانِ "ذبيحي"!
مثل تلاوين جروحي
مثل الله المعبود على الخبزِ الطازجِ
يكويني إذ أتلقاهُ
من خبازٍ إيراني موبوع القامة
"حيدر"ٍ
في الخمسينات
يتبعني في كل أزقةِ بيتي
في أيامٍ مشمسةٍ
في البصرة"

في هذا المقطع من القصيدة تراسل صوتي، يعيد الذاكرة الصوتية لدى مهدي، إلى فترة الخمسينات في البصرة.."أعوام البهجة والانتخابات البرلمانية وازدهار الطباعة والصحافة، وحفلات حضيري أبي عزيز الإذاعية والسينما والسيرك ومعارض الرسم وسباق الدراجات الهوائية".
ثم تنتقل القصيدة إلى مفصل ثان، يعلن عن مؤثرية الزمن والتي يتصدى لها الشاعر بلحظة زمنية آفلة، لكنها مشرقة في زمنه النفسي الجواني المتدفق دوماً.

"لكنّ، ذبيحي، الآن
صوتُ، بريسا،
في التسعينَات
فصحتُ
الخَبزَ.. الخبزَ
بِريسا"!

والزمن البصري – نسبة للبصرة – ينتقل من العام إلى الخاص ويتموضع زمنا نفسيا خاصا بصوت مهدي المتداخل بأصوات البصرة في قصيدة "ساعة البصرة من ديوان شمعة في قاع النهر".. أعني ساعة سورين وبتوقيت سماع دقاتها يستعيد أوقاتا ووجوها وأمكنة..

مهدي محمد علي .. الذاكرة والغياب

د.ضياء الثامري

مدخل / خارج المتن

أعترف أني لم أكن أعرف مهدي محمد علي شاعراً بهذه العذوبة، لم أكن أعرف اتجاهه الشعري الذي ينتمي إليه، لم أكن أعرف عنه هذا الشغف العميق بكل ما هوإنساني وما هو مألوف ويومي، لم أكن أعرف أنه شاعر كان يجب عليَّ أن أعرفه منذ زمن.

اليوم وبعد أن قرأت مختاراته الشعرية عرفته شاعراً ينتمي الى الشعر الذي ينبغي أن يكون، بمعنى أني وجدته لا يقول إلا ما يلح عليه، وعرفت أن ما يقوله يأتي بسيطاً وواضحاً ولكنه عميق جداً، عرفت أن المداخل إلى دراسة شعره كثيرة جداً ولا يمكن اختزالها في ورقة أو كتاب، عرفت في شعره نبرة الألم والضياع والحزن، والأهم من كل ذلك عرفت أنه يكتب الشعر الذي يصدم القارئ ببساطة لغته وشفافيتها وموضوعاته العميقة.

مدخل / باتجاه المتن

من الأشياء التي وجدتها في شعر مهدي محمد علي والتي تعنيني بوصفي قارئاً لهذا الشعر حساسية هذا الشاعر العالية عندما يكتب مستعيدا صوره من الذاكرة، فصورة الوطن – على سبيل المثال – ظلت تعيش في ذاكرته، وظل يتداولها في شعره مستعيدا تفاصيلها من الذاكرة في حالة أشبه ما تكون بالأحلام، وكذا صورة الأم والأخت والشوارع وغيرها من الصور، إن عملية الاستعادة التي يقوم بها الشاعر هنا هي عملية شعرية بامتياز وذلك لأسباب عدة، منها أن الصورة المستعادة ليست تقريراً لما هو موجود فعليا ولكنها استعادة للذاكرة التي تعيد رسم الصورة بشكل جديد في كل مرة، وبالتالي هنالك انزياح في كل صورة منتجة وإن كان المستعاد هو هو، إن عملية الاستعادة هنا تتم بالوعي الشعري ليس إلا، ولذلك فهو يمحو – في كل مرة – صوره السابقة ويعيد تأثيثها بما هو جديد من الذي تجود به الذاكرة، وربما يذهب أحد إلى عدّ هذه الطريقة في الكتابة الشعرية سلبية ولكنها في الحقيقة ليست مجردة وإنما " تلتحم بخطوة أخرى تالية يكون التنبه فيها أكثر إيجابية ونشاطاً، ويبدأ عمل الانتقاء واختيار الصورة المتناسقة مع طابع القصيدة، وطرد الصور الأخرى التي تبدو مجافية، ولكن ليس من الممكن تمييز الحالين، فان قوافل الصور والأفكار قد تمر من النور إلى الظلام، ومن الظلام إلى النور ثانية، وهنا نجد فضيلة الشاعر العليا... فالشاعر كالصياد الذي لا يتدخل إلا إذا نبهته رعشة "حباله"، بهذه الطريقة يكون الوطن شارعاً

في شعره، ويكون الشارع وطناً، وإن صورة الوطن تظل في الذاكرة عندما تمحى الصور الأخرى بتقادم الزمن :

أتجول في شارع واحد
أدخل دكاناً واحداً
أجلس في مقهى واحد
وألتقي الأصدقاء
هكذا إذن: شارع واحد
دكان واحد
مقهى واحد
ولكن !
عدد كبير من الأصدقاء"

هكذا يكتب هذا الشاعر وهكذا تتجدد الصورة التي لا تنتهي تفاصيلها، ولعدم إمكانية رصد تجربته الشعرية كاملة في حدود هذه الورقة سوف أكتفي بمدخل أجده اساسياً في أية قراءة نقدية تتصدى لتلك التجربة وهو (الذاكرة / الغياب)، أو ما اصطلح عليه بـ(لغة الغياب)، إن ذاكرة الشاعر هي التي تؤسس لذاكرة الشعر، فقد استوقفني تكرار الفعل (أتذكر) أو(تذكرت)، حتى أن هذا الشاعر يقوم ببناء معماره الشعري من الذاكرة التي يعلن عنها صراحة، وغالباً يأتي فعل التذكر لأجل استدعاء ما هو غائب .

(1)

بطبيعة الحال لا يمكن اختزال النص الشعري في الرسالة التي يتضمنها لأن ذلك يحيله إلى نثر، حيث إن هدف الشعر الأول هو التواصل الإيحائي أولا ثم الإخبار عن معنى شيء ما ثانياً وإن كان ذلك الشيء هو اللغة نفسها، هكذا يكون التمييز بين النص وبين العواطف التي يثيرها أو التي تتولد عنه، بمعنى أن ما يقوله مهدي محمد علي من فعل التذكر يدخلنا في إيهام شعري من نوع خاص، إذ كيف يتحول فعل التذكر إلى فعل شعري مع إن مترشحات ذلك الفعل يصدق عليها القياس الواقعي، إن الصورة هنا منجزة لأجل هدف الشعر الأول، ذلك هو التواصل عبر الإيحاء، لأن الشعر هنا لا يحكي، وبالتالي لا توجد عملية إخبار داخل النص، إن الصورة ذات المرجعية الواقعية التي يرسمها الشاعر لا تنجز البعد الواقعي في عملية التخييل عند القارئ المعني بتفاصيلها – حصرا– ذلك لأن هذا القارئ سوف يستغرقه البعد التأويلي للصورة، يقول في نص بعنوان (لماذا):

لماذا أشتهي أحياناً
أن أحتسي كأسين معاً
وأدخن سيجارتين معا؟!
لماذا أريد أحياناً .
أن أتذكّر أمي مرتين في لحظةٍ واحدة؟!
لماذا أنا هنا
وحياتي هناك؟!

إن صياغة هذا النص من غير الممكن أن تذهب بنا إلى أي بعد واقعي لأن لحظة القراءة هنا لحظة تجريدية، لحظة من الشعر الذي لا يقول شيئاً ولكنه يقول كل شيء في الوقت نفسه، لأننا ندخل في لعبة التلقي التي يكون أفقها أن الشعر لا يستخدم اللغة على نحو تقريري وإنما يستخدمها على نحو أدائي، ومن هنا فإن أسئلة الشاعر وتذكاراته وإن كانت تحتمل التأويل المباشر لكنها في الوقت نفسه تحتاج إلى تأمل يكشف اللعبة المستترة وراء المفردات البسيطة، فهل حقاً يريد أن يفعل هذا، أم أن المسألة لعبة من المجاز لا الحقيقة حيث أن الأدب لا يمكن أن تكون له القدرة على الخلق إلا إذا اعتمد المجاز، المجاز في الأدب هو الذي يؤكد التشابه بين الأشياء، لأن التشابه تخلقه الكلمات فهو ليس خاصية من خصائص الأشياء المشبهة، إن الشعر في هذه الحالة يحيل ما هو واقع إلى منطقة المحتمل الممكن، فعملية التذكر

التي تقع مرات متتالية على مستوى الواقع كل مرة في زمنها الخاص ولحظتها الخاصة تترحل إلى منطقة الاحتمال عندما تقع مرتين في لحظة واحدة،فالشعر دائما يجهد ذاته " في صياغة استدعاء لا ينقطع لغائب ما، غائب يبقى باستمرار ماكثاً في اللاحضور حتى وهو يشع في الذات، وفي سحرية الراهن، وحتى بين رماد الماضي، وكلما اجتهدت الكتابة في استدعائه، أو حتى استحضار شبهه عجزت عن الإمساك بجوهره، أو حتى الإحاطة التامة به، ومن هنا يظل فعل التذكر في ديمومة واستمرار، يستدعي أشكال صورة الغائب في محاولة للإمساك بشكل منها ولكن ذلك لا يتحقق:

لماذا تُرانا نعيد قراءة سطرٍ وحيد
أتانا من البعد
نقرؤه ونعيد قراءته
نترسم آثاره
ثم نسبر أغواره
نستعيد حكاياته
أو أساطيرنا
في البعيد الذي ليس يفتأ يرمضنا
ويقلب أوجاعنا
ويباغت أحلامنا
ويكرّس غربتنا
ويرسّخ وحشتنا
فنعود إلى السطر
نحرث فيه
كما البحر

إن الشاعر محاصر بالأسئلة عن كل شيء وهو في الحقيقة ليس باحثا عن إجابات لتلك الأسئلة لأنه يريد أن يبقى داخل تلك اللعبة إلى ما لانهاية، إنها لعبة منتجة ولذيذة على المستوى الشعري ولكنها قاسية ومؤلمة على مستوى الواقع، ولكن في كلا الحالين ليس ثمة إجابة ترتجى ، ومن هنا يكون فعل التذكر هو القائم بدور الإجابة المحتملة والمؤجلة،إن اللغة الشعرية هي التي تقوم بتوفير عالم بديل عن ذلك الغائب، اللغة الشعرية تفتح أبواب عالم آخر بديل، بموازاة العالم الواقعي وكأنها تعيد اكتشافه من جديد في كل مرة، ولكن مع استحالة إمكانية معرفة ما إذا كانت الكلمات هنا خالقة لعالم جديد، أم إنها تعيد اكتشاف العالم الغائب:

اعتاد أطفال الجيران
أن يمتطو السياج بيننا كالحصان
أمرتهم أن يكفوا
فلم يستجيبوا، وظلوا محدقين
فاكتشفت عيونهم الملونة
وحين كفّوا
صار السياج بيننا فاصلاً
واختفى ذلك النبات البشري المتسلق
وأزهاره الجميلة الملونة

تأتي عملية الاكتشاف هنا بعد ضياع الشيء أو غيابه، الشاعر هنا يتعمد إضاعة أشيائه حتى يعيد اكتشافها من جديد داخل اللغة الشعرية وكأنه أدرك أن ديمومة تلك الأشياء المضاعة مستحيلة على المستوى الواقعي ولكنها ممكنة ومحتملة على المستوى الشعري.

إن حضور الإحالة المرجعية في نصوص الشاعر إنما هو نتيجة من نتائج استخدامه اللغة بأدائية عالية، بحيث تفرض المرجعيات حضورها بفعل تلك اللغة البارعة التي تخلق ميلاً شديداً في نفوس قرائه الى الثقة والتصديق وقبول الواقع البديل المحتمل بعيداً عن أية وظيفة معرفية أو مرجعية،إذ لا يمكن أن تتطابق الوظيفتان الأدائية والمعرفية في العمل الشعري، فهنالك انفصال تام بين ما هو أدائي وما هو معرفي – كما

يرى بول دي مان– حيث أن أي فعل كلامي ينتج عنه فائضا من المعرفة، لكن لا يمكن له أبداً أن يعرف عملية إنتاجه التي هي الشيء الوحيد الذي يستحق المعرفة، فالبلاغة الأدائية والبلاغة المعرفية، أو بلاغة الصور المجازية لا تلتقيان، ومن هنا تكون اللغة الواضحة واليومي والمألوف في شعر مهدي محمد علي امتيازاً:

هل كان المطر النازل تلك الليلة
من مطر الليةِ؟
أم من مطر مخزون كالدمع الممنوع
أم الدنيا
ضيعت الدنيا؟!
وأنارت زوبعةً
فأثارت قبعة
السائحة الفرحانة والغرقانة
بالمطر العاصف !
أم أغنية جاءتْ
واللحن طغى
والماء تمشى في الكأس،
وفي الأكلِ
وفي الأوراقِ
وما ظل لنا إلا هربٌ
نحو شوارع خاليةٍ
تمطر
تمطر
تمطر
والله يغني

يترك هذا النص ركاماً من التساؤلات، كما ويفتح الباب واسعاً على تناصات الشاعر مع غيره، التساؤلات التي تتراكم داخل النص تخلق انزياحاً تصويرياً يمثل أبرز السمات الغيابية في الصورة الشعرية الحديثة، حيث يتم نقل المرئي من بؤرة التركيز إلى موقع أقل بروزاً تقل فيه نصاعته، ويبدو حضوره كالظل، إن تمركز الصورة هنا يكون حول المرئي، أو الموضوع الأساسي في النص، ويتحقق الانزياح التصويري باستبعاد هذا المرئي من مركز التصوير وجعله يتخذ حيزا آخر، بحيث يبدو غائبا أو مطمورا تحت ركام من الصور إن اللغة في هذا التناول الشعري" تميل بدلاً من إبراز الشيء أو الموضوع المعايَن والسعي إلى منحه درجة عاليةٍ من النصاعة والوضوح، إلى الحركة بعيداً عن ذلك الشيء وتجنب إبراز تفاصيله الجزئية، وإلى توجيه ضوء خفيف ظليٍّ باتجاهه ولكن بقدر كبير من الانحراف عنه، إنها لغة تمس المرئي عن بعد بلمسات رقيقة مواربة، وتغيبه بطرق مختلفة بحيث يبدو أقرب إلى مرئي يكفنه، أو الضباب الناعم"، في هذه النقطة يفترق مهدي محمد علي عن غيره من شعراء قصيدة التفاصيل اليومية، فهو يذكرنا بكل شيء ويحيلنا إلى كل ما هو يومي ومألوف إلا أنه لا يقول لنا شيئاً عن ذلك اليومي وإنما ينجز لنا صورة شعرية تحملنا تفاصيلها الى ذلك الشيء، ولذلك تحيرنا الكثير من نصوصه ففي نص بعنوان (صناعة اللحظة) يقدم لنا الشاعر مشهداً يومياً مألوفاً وصغيراً وقد لا يلتفت إليه إلا شاعر مثله، النص عبارة عن مشهد سردي بلغة أنيقة جداً، ولكنه يحتاج إلى تأمل من نوع خاص :

اختار أصفى الأقداح زجاجاً
فغسله أحسنَ الغُسُل
فشفَّ القدح،
حتى ليُرى الهواءُ الذي فيه!
فأخرجَ منهُ ذلك الهواءَ
بماء عذب و بارد
فرفَعَهُ كأسَ ماءٍ متلألئة
في نور الصباحِ
فشربَ، من كأس ليس كمثلها كأس،

ماءً ليس كمثله ماء!

إن هذا النص يجعل الصورة الواقعية في الظل لأجل تغييب ملامحها والإبقاء على ملامح الصورة الشعرية المؤسسة على تناص خفي مع التعبير القرآني عبر استثمار مفردات مثل (كأس، عذب، بارد، ليس كمثلها كأس، ليس كمثله ماء) الصورة هنا تنفتح على بعد ميتافيزيقي وكأنها مشهد من مشاهد الجنة التي وردت في القرآن الكريم ((بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْمَعِينٍ))، وهي بهذا التوصيف تبتعد بمسافات شاسعة عن الفعل اليومي المألوف غير اننا ندخل في وهم اللغة التي تنتج تمثيلاً بالكلمات يكاد يكون في دقته مشهداً سينمياً، أو منحوتة تجريدية لاوجود لها في الطبيعة، إن هذا النص – وغيره الكثير في شعر مهدي محمد على – يدخل ضمن ما اصطلح عليه بـ (الإدراك العاطفي للأفكار) وهو توصيف يختص به الشعراء الميتافيزيقيون دون غيرهم، لأن هذا الأسلوب يوفر متعة اللعب بالأفكار وتمرير المشوش منها، وبهذا يتمكن القارئ من إدراك الفكر بواسطة العاطفة، والعاطفة بواسطة الفكر:

أيتها الشجيرة التي زرعتها قبل سنين
أما زال عشب الحديقة يذكرني ؟
وصدع السياج
أما زال يمتلئ بعيون الأطفال؟!
أيتها الفتاة التي ضعت من يديها
أما زالت غرفتي وحيدة
تتمرغ في سكون الوطن
الوطن الذي يتلوّى على رماد الحرب
الحرب التي تلتهم الذكريات

صورة الوطن في هذا النص تتأسس على تساؤل كبير لا يبدو منطقيا بالحسابات الواقعية، التساؤل هنا موجه إلى ما هو غائب عن الصورة، لأن التفاصيل الحاضرة تجعل تلك الصورة مرتهنة بها، ولكن استثمار الشاعر لأسلوب السؤال هو الذي فتح الصورة على مكونات لا نهاية لها، ذلك لأنه يريد صورة الوطن أن تكون هكذا، فهو يقول في إحدى المقابلات: "بالنسبة ليكانت البصرة – الذاكرة، بضوئها وعتمتها كائنة في النصّ حتى وان لم يتض من ذلك النص النخلة والبلم .. أوشط العرب وجداول البساتين .. وعند العودة إلى النص السابق نكتشف هذا الأمر بوضوح كما نكتشف خشية الشاعر على صورة الوطن من الحرب، الحرب التي تلتهم الذكريات، ذلك لأن احتراق الذكريات بنار الحرب يعني احتراق الصورة، وهذا ما نجده ماثلاً في هذا النص أيضا:

قلتلي:كيف لوأفلحوا ؟!
مَنَ سيضرب لي خيمةً عند أبوابهم للمناحةِ
لوأفلحوا ؟
غيرأنك لم تسمعي عند بابي
ضجة الروح
تحت اصفرارالمساء
والخريف الذي ظل في غرفتي
ساكنا كالغبار
الخريف الذي ظل يتبعني في المنافي !
أن تلمتع في طائرا
يختفي في زوايا المقاهي
في المحطات والحافلات
أو يقضِي نهاراته في الغرف
طائرا يتفنن في نتف ريش الجناح
طائرا يحتمي بالقوافي
وظلام النهار

هذا النص يعيد إلينا صورة العاذلة المعروفة في الشعر العربي القديم، حيث تفتح أسئلة العاذلة الغائبة شهية الشاعر على رسم صورة ذات بعد سوريالي توحي بالموت، أو بالغياب بتفاصيلها كافة (اصفرار المساء، سكون الخريف، ظلام النهار) .

(2)

إن الحديث عن تركيب الشعر يعني بالدرجة الأولى الحديث عن لغته التي تسهم في رفع رصيده من الشعر أو العكس، ولذلك لابد للغة الشعر أن تختلف عن الخطاب العادي الذي يعنى بالجانب الإبلاغي، بمعنى أن أبرز سمات لغة الشعر إنها لغة ليست إبلاغية، ولذلك انطلق الكثير من المناهج النقدية من لغة النص الشعري لأنها أدركت أن الإمساك بهذا الجانب يعني الإمساك باللحظة الشعرية والجمالية، يقول الشاعر وردز ورث واصفا تجربته الشعرية : "كانت خطتي أن أنظر طويلاً إلى الشيء أريد النظم فيه، وأن أستوحيه هِزَّةً من الأحاسيس القوية، وأن أطيل التفكير فيما علق بنفسي منه، حتى أستعيد الذكريات التي كانت لي معه، ثم أدع فرصة بعد ذلك لمشاعري تنساب فيضاً اختيارياً ، ولذلك لن يجد القارئ في قصائدي كثيراً من زور الوصف وباطله، وسيجد اللغة التي أستعملها مناسبة للأفكار حسب أهميتها، ولعل من بعض مزايا هذه الطريقة أنها صديقة للخاصة التي لابد من تحققها في الشعر، وهي "حسن الأداء"، ربما يصلح هذا المقتبس من قول الشاعر الإنجليزي لتوصيف شعر مهدي محمد علي، إذ لا تزوير ولا تنميق، فهو مشاعر منسابة وعصارة ذكريات جاءت بلغة شعرية شفافة تخلصت من كل ما هو فائض من مفردات أو شرح أو تزيين إلى غير ذلك من الأسباب التي تبطل فاعلية الصورة وإيحاءها الدلالي وسمة التكثيف هذه تنجز " دورا غيابيا في الصورة الشعرية عبر قيامها بعملية اختزال أو ترشيق للمفردات اللغوية المشكلة للصورة مما يعني أن المتلقي سوف يلاقي في الصورة المكثفة صورة حاضرة بمكنوناتها، غائبة بتفصيلاتها، إذ تفرض هذه التفصيلات الغائبة نفسها على المتلقي لحظة قيامه بإنتاج الدلالة، ومادامت هذه التفصيلات غائبة فلا شك أن المتلقين يختلفون في استحضارها، ولعل هذا الأمر هو الذي يجعل الصورة المكثفة غنية بالدلالات، خصبة بالإيحاءات "، إن هذه السمة القارة في شعر مهدي محمد علي جعلت الكثير من نصوصه مركزة جداً، وهي أشبه ما تكون بالبرقيات، أو ما يصطلح عليه بـ" القصيدة المركزة" :

كدتُ أبكِي
وأنا أقرأ على كرسي الباص
وبخط طفولي
" احترموا الصغار
ولا تقولوا لهم قوموا"

أو قوله:

يا للهوة التي حدثت بيني وبين أمي
ذلك الفراق الذي تم دون وداع
كما لو كنت ماضيا لشرب الماء
أو لتجفيف اليدين

إن هذا النمط من البناءا لشعري قريب جداً من بناء الخاطرة النثرية التي لا تعالج موضوعاً معيناً أو قضية محددة، بل تبقى أسيرة أفكار وعواطف كاتبها، فالقارئ يجد نفسه أمام موضوع غير محدد، "في هذا النوع من القصائد، يطلق الشاعر لنفسه الحرية في استطراد أفكار هو احساساته وتفريقها وتجميعها، فإذا أحسَب النضوب أو التعب، أنهى قصيدته:

جيدُها الضوءُ
وجنتُها جمرةٌ
شعرها ..
ظلُّها..
ها .. هَهَا
ها .. هَهَا
ها .. هَهَا
خطوُها ما يزالْ !

إن الغياب هنا يهيمن على لغة النص أيضاً، فالحذف والبياض والأصوات كلها تحيل إلى ما هو غائب لأجل أن يفلح الشاعر في التقاط ما لا يستطيع أن يلتقطه إلا الشعر، إذ ليس ثمة موضوع يمكن الإمساك به، كما أن اللقطة التي يجمدها الشاعر في هذا النص لا يمكن أن تذهب أكثر من هذا الحد، أنّهذا النص أشبه ما يكون بالخاطرة التي تقدم رؤية شعرية تأملية خاصة بالشاعر نفسه دون غيره لذلك فإن الغائب هو المهيمن، إذ أن المتلقي لهذا النص ليس له إلا الدهشة من مقدرة الشاعر وجرأته في التعبير عما وجده بهذه الطريقة وهذه اللغة المكثفة' الشاعر هنا يذهب إلى التعبير بعيدا عن إطار النص الشعري المتكامل، وكذلك فإن الحكاية في هذا النص المكثف يترك أمر إكمالها للقارئ إن هذا النص "لا يمكن أن يكتبه إلا من خبر اللغة والشعر طويلاً، لما فيه من حركة وإيجاز ودقة في اللفظ، ومهارة في اللغة، ولما فيه أيضاً من بساطة وشعبية نادرتين"، في نصوص أخرى للشاعر تنتمي إلى هذا النوع نجده يقسم نصه على مقاطع يستقل كل مقطع منها عن المقاطع الأخرى، وهي بذلك أكثر تكثيفاً من غيرها كما في هذا النص (علامات تعجب):

لم أرَ أشد حزناً من عين الجمل
لم أتابع شيئاً بدأب
متابعتي نمو النبتة الصغيرة !
لم أرَ أغرب من الصحراء:
خالية من كل شيء
مليئة بكل شيء !
لم أرَ أجملَ من الوطن في عيني المرأة:
عيني أمي
وعيني حبيبتي
وأختي
لم أر أقسى من الوطن!
لم أقل : لا
ولم أقل : نعم
قلت: هيا !

إن مهدي محمد علي لم يكتب نصاً واحدا تحت هذا العنوان، وإنما أنجز نصوصاً متجاورة في كل شيء، نصوص تأتي من مصدر واحد، إنه يقول أشياءنا الصغيرة ولكن بتقانة شعرية عالية، فهذه المقدرة على إنجاز نص شعري بسطر أو سطرين لم تكن لتتهيأ لجميع الشعراء لذلك كانت مشكلة التكثيف واحدة من أهم مشكلات الشعر العربي، إذ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة الشعرية من جهة، وكفاءة التقانات والآليات التي يستخدمها الشاعر في إنجاز قصيدة مركزة خالية من الزوائد والاستطالات من جهة أخرى، فالكثير من شعرنا القديم والحديث على السواء يفتقد الى التركيز لأنه يغترف من ذاكرة غير مسيطر عليها، فاللعبة الشعرية إذا ماتم إتقانها وتنظيمها، أي تنظيم اللغة حسب التجربة والعاطفة والانفعال فإنها يمكن أن تؤدي عملاً شعرياً متكاملاً، الشعر فنّ تكثيف الانفعال، يحشد ما يثيره، وإن الشاعر يدرك الروابط المشتركة بين الأشياء متحمساً ومنفعلاً، فيجمع بين الأمور البعيدة ذات الروابط المشتركة، وحسب تعبير ويلبر سكوت أن الخلق الشعرية ونوع من الغناء في الطاقات السحرية للغة، وكذلل هو مهدي إنه شاعر يدرك سر الشعر ولايعير انتباهه للأصوات التي تشوش هذا الإدراك، فهو مؤمن أن الشعر الذي ينحت في سطر واحد قد لا تجود به آلاف السطور، (لم أر أشد حزناً من عين الجمل)، هل هذه جملة شعرية واحدة، أم انها قصيدة بمعنى التكامل، هذا التساؤل يبدو مشروعاً وأساسياً ونحن نقرأ قول الشاعر، ماذا يريد أن يقول، وأي نوع من الحزن ذلك الذي رآه في عين الجمل، كيف تنبه الشاعر إلى هذا الحزن الذي لا ندركه

نحن الذين لسنا مثله؟، الحقيقة أن ما عمله الشاعر أنه قدم انفعاله الغائب عنا بلغة لا يمكن أن تكثف أكثر مما هي عليه.

هذا النوع من الكتابة وإن بدا سهلاً "إلاّ أنه يفشل في إحداث التأثير المطلوب إن لم يحسن التكثيف واختيار اللقطة الغريبة والمتميزة، واعتماد الصدمة أو المفارقة، تعويضاً عن الإشباع الذي توفره القصائد التي ترصد بأن تجربة شعرية كاملة، إن السطر الشعري هنا يكون معادلاً لكل ما يوحي إليه، فالغريب والمدهش يتحول إلى جملة شعرية تشف عنه، أو تقف مقابلة له لتشير إليه وهكذا ف "الشاعر مهدي محمد علي في المختارات وفي كل ماكتب من شعر تمكن من الابتعاد والنأي عن عادية الأحداث اليومية في الحياة العامة وهو إذ يفعّل القبض على المشاهد اليومية التي لاتثير انتباه غيره فانه يجعلها في أشعاره القصيرة ذات مدلولات إنسانية ويحولها إلى جزء يبدو لنا أليفاً من خلال اكتشافنا تلك التفصيلات اليومية العابرة لتتحول إلى أجزاء متماسكة، ولابد من مسكها وتحسسها الجمالي، وفّعَلَ (مهدي) ذلك، بقدراته المتميزة وإمكانيته وقدراته الخاصة على التوصيل في قصائده وهذا لايتأتى إلا لشاعر ذي مقدرة فنية واسعة تختفي خلف موضوًع القصيدة، إن نصوص مهدي محمد علي قد تبدو فقيرة في تأثيثها اللغوي، لكنها تمتلك ثراءً أيحائياً وتعبيرياً متميزاً.

(3)

في نص له بعنوان (بالإزميل) تتجلى فرضية (الذاكرة / الغياب) بوضوح، فآثرت أن أختتم به هذه القراءة لشعر مهدي محمد علي يقول:

أتذكرك يا أمي / وأتأمل القصيدة / فأرسم سجادة للصلاة م وقارورة للدواء
أتذكرك ناحلة مهمومة يا أختي / وأتأمل القصيدة / فأضيف صفصافة / وجدولاً / وطحالب
أتذكر نافذتي هناك / فأفتح نافذة في القصيدة / وامتداداً طفيفاً / وبيتاً للجيران / وزجاجا ملوناً
وصبية يلعبون
أتذكرك يانفسي / فأضيف أفقاً دائماً / يؤطره الدخان / وجرةً مكسورة!

يتكون هذا النص من أربع حركات تبدأ كل منها بالفعل (أتذكر)، وحضور فعل التذكر يعني بالضرورة وجود غائب يتم استدعاؤه بواسطة هذا الفعل، من جانب آخر ليس ثمة محذوف في هذا النص، إذ ان صورة الغائب كاملة عبر فعل التذكر وبهذا الشكل يتم تحويل " النص الشعري من نظام لغوي، رؤيوي، تجريبي مفتوح ... إلى نظام لغوي تشكيلي مغلق لا يحيل إلى إطار مرجعي يقع خارجه، بل يكون شبكة من العلاقات الداخلية المعقدة، ويسعى إلى أن يكون ذاتي الدلالة، أو ذا دلالة نابعة من القوانين التي تحكم آلية تشكل بنيته داخلياً، ومن العلاقات المتكونة في فضائها في ذاتها، وفي غياب بارز لعلاقة التمثيل التي يفترضها إطار مرجعي"، ولذلك فإن الصورة التي يرسمها الشاعر هنا هي صورة منجزة شعريا تحتكم إلى فضائها ولاتختزل مرجعياتها الغائبة .

هنالك تناقض ظاهري بين عنوان النص ومتنه، فالعنوان يحيل إلى عملية نحت بينما يقدم النص صوره مرسومة وليست منحوتة، هل لأن الرسم هو سر الشعر، أم أن القصيدة يجب أن تشف ولذلك فإن عملية النحت التي يجب أن تكون على الأشياء التي لا تشف لا تصلح لهذا الأمر؟ ثم إن الرسم لا يكون بالإزميل، الإزميل ينتج صورة خالية

من الألوان، صورة بلون الطين أو الصخر، وهذه هي حال صور النص، إنها صور خالية من الألوان، أو إنها بلون واحد، صور خارجة من هذيان الذاكرة، فهي إذن تشبه ما ينتجه الإزميل من صور.

من جانب آخر إن الصور التي ينتجها الإزميل تكون محفورة وراسخة ومن الصعب محوها، على العكس من الصور التي تنتجها الفرشاة، وهكذا هي صور الذاكرة التي يستدعيها الشاعر من الغياب إلى الحضور محفورة ولا يمكن محوها، من الممكن أن تكون تلك الصور هي آخر ما ترسب في ذاكرة الشاعر من مرجعياتها الواقعية إلا اننا هنا أمام فعل (تذكر) من الممكن أن يتوهم، أو يقدم صورة أخرى، ثم إن تأمل القصيدة يحيلنا إلى عملية تخليق جديدة للصور المنجزة إذ يجب أن تنسجم تلك الصور مع منطق الشعر، أو منطق القصيدة، إن عملية التذكر هنا تختص باستدعاء الغائب الحقيقي فقط، أما الصورة فهي منجز نصي، إنها صور مضافة تقع بموازاة صورة الغائب (أتذكر كناحلة مهمومة ياأختي / وأتأمل القصيدة / فأضيف صفصافة / وجدولاً / وطحالب)، فصورة الأخت الغائبة هنا مهمومة وناحلة، وما بعد ذلك من مكونات هذه الحركة هو إضافة نصية، وهي جميعها بلون واحد لون العقم والموت(صفصافة / وجدولاً / وطحالب)، إن حركات النص الأربع يمكن أن ينطبق عليها ما يسمى (تراجيديا الموقف)، لأن الشاعر هنا يعيش حالته الخاصة، يعيش مأساته لا مأساة غيره، لأنما ترسب من صور إنما كان في ذاكرته، وهذا المترسب غفل من الزمان والمكان، فهو غائب عن زمنه وسائح في اللامكان، لهذا تبدو الصور الموازية ملتصقة بالمكان كحالة من تعويض الغياب التام للصورة الأولى، ويبدو هذا الأمر أكثر وضوحا في الحركة الثالثة التي تأتي بمشهد كامل يبدأ بالدوران حالما تنفتح عليه نافذة القصيدة في حين تبقى نافذة الشاعر الغائبة هناك، مرتهنة بالتذكر الذي يدور في ذهنه وحده: (أتذكر نافذتي هناك / فأفتح نافذة في القصيدة / وامتداداً طفيفاً / وبيتاً للجيران / وزجاجا ملوناً / وصبية يلعبون).

لقد أبقى الشاعر على أشيائه الغائبة التي يريد تذكرها في أعلى الهرم في حركات النص الأربع مما خلق نوعاً من التوازي بين تلك الحركات، وكذلك على مستوى بناء الجملة، فهناك عملية تذكر دائمة (أتذكرك /مضارع)، يتبعها فعل بالصيغة نفسها (أرسم، أضيف، أفتح)، وهكذا فإن عملية التذكر مستمرة لأنها السبب وراء إنشاء الصورة اللاحقة وهي صور ناتجة عن تأمل القصيدة بوصفها سطحاً تنعكس عليه صورة الغائب الذي يتذكره الشاعر.

قصائد.. في ذكرى مهدي محمد علي

مجيد الموسوي

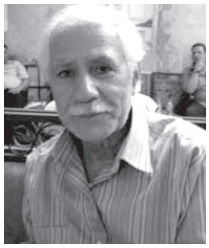

اشواق الصوفي
لي جسد
انحل من قصبة
اطعمه كسرة خبزٍ
وقليلاً من تمر
وأقل من الماء..
واجهدهُ
بصلاةٍ لا يعرفها احد
غيري وأُغطي عورته
برداء خرقٍ
من جلد
الأنعام ..
وأبكي من فرطِ
النشوة والحب
وارجو ان تهدأ روحي التعبة
وافكر لو أجعل هذا الخافق
في صدري – اعني قلبي –
بيتاً للناس
وللمخلوقات
جميعاً
وجبيني عتبة

***

تذكّر
اتذكره
ان يمّر عليّ
وحيداً مبتسماً، جذلان
كأن الدنيا ملك يديه
يقول كلاماً مثل الهمس

عن الشعر وعن سفرٍ وبلادٍ لا تعرفها
وتغيذبه امواج الناس بعيداً
ويذوب كفصّ الملح
وها انذا
اتذكره الآن
ولا شيء بكفي
غير كتاب
وقصائد
عن سفر وبلادٍ لا نعرفها
وملامح وجه مبتسمٍ
ذاب كفص الملح

***

شاهدة 2011

مائلة
تحجبها زهرة خُبيز
وغبار دبق نسجته عناكب ريح
الصحراء
واضغاثُ حشائش يابسة
طمست احرفها الاولى:
من هذا النائم؟
هل اعرفه؟
هل يعرفني..!

***

غداً او بعد غدٍ
بيننا، الآن، يا صاحبي
كل طبقات الارض
الارض الباردة
الرخوة
الرطبة
الممتدة الى التخوم السفلى
وغداً
او بعد غدٍ
او بعد سنين
سأهبطها طبقة طبقة
ملفوفاً بالبياض والدموع
حتى اتوسدك
وانام!

في الصحافة الثقافية العالمية

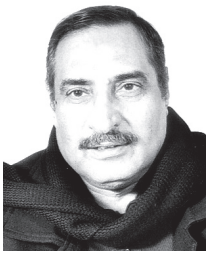

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

مسرحية (منزل برناردا ألبا) وتحذير التاريخ

جمع فيدريكو غارسيا لوركا في أواخر حزيران 1936 أصدقاءه المقربين ليقرأ عليهم آخر مسرحياته. بعد أقل من شهرين إختطفته زمرة من الفاشيين وقتلته. إن الكلمات بالنسبة الى لوركا بوصفه شاعرا هي السلاح الذي يواجه به الغيوم السود التي كانت تتلبد في سماء أوربا. جرد مسرحيته (بيت بيرناردا ألبا) من كل مضمون شعري، وقد أعلن وقتها بأن عمله هذا " واقعية، واقعية بحتة". تتحكم الشخصية الرئيسية، الأرملة مرتين، بخدم بيتها بقبضة من حديد، وتوقع بناتها الخمس في شباك سيطرتها. برناردا كاثوليكية متدينة وتؤمن إيمانا راسخا بالنظام الأمومي الطبيعي للمجتمع. بيتها هو بيت والدها الذي يواصل سلطته حتى وهو في قبره، ولكن بناتها متبرمات وعندما تبدأ أصغر بناتها آديلا بتأكيد ذاتها تعرف بيرناردا أن العالم على وشك التغير، وهو يتغير فعلا بنتائج مأساوية. هكذا تقف في مركز المسرحية بيرناردا التي تجسدها كاترين هنتر (سبق أن عرضنا لهذه الممثلة في المتابعات مسرحية القرد لكافكا- م) التي جسدت القسوة والسطوة، وقد كانت ذروة المواجهة بينها وبين إبنتها آديلا التي أدت دورها (هيرمون بيرهين) إداء جميلا، حين تعاركتا بلغة الإشارات، في مشهد مثير. لقد عبر لوركا بالعلاقات العائلية عن مواضيع سياسية مبينا كيف أن فشل عائلة يعكس مصير أمة. إن الشقيقات العوانس، وهن غير قادرات على تأكيد وجودهن كنساء، مجبرات على إتخاذ وسائل تمرد صغيرة كالإحتفاظ بأحمر شفاه ورفض لبس ثياب الحداد والمطالبة بثوب ملون.

لقد إنتظرت كاترين هنتر طويلا أن تسنح لها الفرصة في تمثيل هذا الدور الذي يعد تحديا كبيرا، وأجادت في التعبير عن الخبث المطلق حين نراها لا تكتفي بمسح المكياج من وجه إبنتها بل تمسك إصبع أحمر الشفاه وتلطخ به خدودها وجبينها إمعانا في الإذلال، مثلما أجادت حين ترينا كيف أن قسوتها هذه تتلاشى فجأة لتحل محلها إيحاءات من الحنان، وتلين نزعتها التأديبية، وتربت على بناتها وتعانقهن،

(الممثلة المبدعة كاترين هنتر في مسرحية بيت برناردا ألبا)

وكل هذا بلغة الإشارات التي تتطلب مهارة فائقة وتمكنا، فهذه اللغة هي فن قائم بذاته.

أنتج المسرحية، التي قدمت آخر عرض لها يوم 25 شباط الماضي، مسرح (رويال إكستشينج) مع الشركة المسرحية الرائعة التي تأسست في العام 1980 (غرايه) التي توفر أدوارا لممثلين معاقين، وفي الوقت الذي يُعهد فيه الى الممثلين المعاقين بأدوار المعاقين عادة فإن الشركة تمنحهم أدوارا رئيسية كما في هذه المسرحية التي أشركت فيها ممثلين من البكم. إن المخرجة جيني سيلي تدير ببراعة لغة الإشارات والعناوين والكراسي المتحركة في نسيج الفعل، والتمثيل الرائع ينتج عملا قويا بالإعتماد على ترجمة جو كليفورد التي كيفت إقتباسها للمسرحية في العام 2011 ليتلاءم هذه المرة مع طبيعة عمل فرقة شركة غرايه المسرحية، حيث نرى الخادمات يدرجن بكراسيهن على المسرح ونشهد الشقيقات يتناوبن المواقف العنيدة عبر لغة الإشارات، لتترجم بالضبط وبشكل طبيعي تماما ما أراده لوركا.

The House of Bernarda Alba,Royal Exchange Theatre, Manchester

ألفريد هيكلنغ/ جريدة الغارديان البريطانية

شعر:

الذي لن يظهر في التلفزيون من حداد الحرب وألمها وخسارتها

كتب بريخت مرة يقول: "الحرب مثل الحب، تجد طريقها دائما"، ومن المفيد أن نتذكر أنه في سياق حروب القرن الحادي والعشرين الإمبريالية القذرة يجد الحب، مثل الحرب، طريقه دائما لقول ما يجب أن يقال. إعتدنا أن نتلفز مكابدات المقاتلين والمدنيين واللاجئين، ولكننا نادرا ما نسمع معاناة العوائل التي تبقى في الخلف. (إيزابيل بالمر) و(بريوني دوران) والدتا جنديين خدما في أفغانستان، أما (جيهان دبرو) و(إيليز فنتون) فزوجتا جنديين خدما في العراق. أربعة كتب في كتاب، مجموعة وداعات ونداءات هاتفية وصور ورسائل وإشتياق ويأس وحرمان، محاولات لعيش حياة عادية في وضع غير عادي في ظل غياب الأحبة. غير أن إيزابيل بالمر تجيد التعبير عن "الرمال المتحركة" التي تقف عليها غير قادرة على فهم ما يمكن أن يحدث لولدها: " لماذا/ عليهم أن يقووا السترات بالحديد/ ليخرجوا في دورية؟/ كما لو كانت النعومة تبقيك آمنا/ أو أن الحرارة يمكنها دفع الأنفاس/ داخل السترة/ لإبقاء الرصاصات خارجا". إن الحرب بالنسبة الى بريوني دوران قد حولت إبنها الى " غريب يجدف مثل شرطي أمام والدته" وما هي إلا "

المجموعة الشعرية المشتركة (الجبهة الداخلية)

أم اخرى دائخة" تحاول رؤية " الولد خلف الرجل" راغبة في أن يأتي الى البيت " بساقين وببقية حياته"، وكانت إليز فينتون تكتب قصيدة كل أسبوع عندما كان زوجها الطبيب في جيش الولايات المتحدة يخدم في العراق. في هذه القصائد يصبح نهر دجلة هو نهر آشيرون... نهر الأموات. قصائد مثل (عروس الحرب تنتظر) و(طائرتك تصل من العراق للمرة الأخيرة) تقول فيها " قدم لي معروفا/ إبق لصيقا/ بالأرض". جيهان ديبرو التي هي أفضل الأربع تتخيل نفسها كشخصية بينيلوب في قصيدة هوميروس " تقريبا أرملة في حرب طروادية" تنتظر مثل كل زوجة جندي عودة أوديسيوس.

بعض هذه القصائد يمكن أن تتضمنها أية أنثولوجيا جيدة مثل قصائد (تغير البحر) و(ويسكي تانغو) و(في المول مع تيليماكوس) و(ضد أفلام الحرب) و(إدراك ظرفي): " من قال أن الحرب جحيم؟/ حسن، الإنتظار يمكن أن يكون أسوأ. أرني رجلا/ عبر البحار على ظهر سفينة/ وأريك زوجة/ ترى الكارثة تسقط من السماء/ الكمين دائما يأتي، حياة زوجها/ طريق فخاخ، ومناطق عمياء/ لإخفاء الصخرة، أو القنبلة، أو الرمانة المرمية".

أندي كروفت/ جريدة مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

سرد:

حدث ذات مرة في الشرق

تستذكر (شياولو غوو) في مذكراتها (حدث ذات مرة في الشرق) الفواجع التي أحاطت بطفولتها المتوحدة المضطربة في جنوب شرق الصين فتقول: « الصمت هو الطريقة التي تواصلنا بها، تقليد عائلي ورثته أنا وأخي عن والدينا... لا تذكر المآسي أبدا، ولا تطرح الأسئلة عنها أبدا. إمض في حياتكِ، ما دمت لا تستطيع أن تغيرها». لقد أبعدت شياولو عن جديها الفقيرين ثم أعيدت اليهما ومن بعد ذلك عادت الى أبويها. إصطادت الطيور وضفادع الطين لكي لا تهلك جوعا، وما أن أصبحت في الثانية عشرة حتى أخذت تتعرض للإعتداءات والإغتصاب المتكرر وهي في طريقها من المدرسة الى البيت. لم تسجل في المدرسة حتى بلوغها سن الثامنة من عمرها وعاشت بدون عوينات لقصر البصر حتى سن العشرين، ولكنها فازت بمقعد من بين 11 مقعدا مخصصا للدراسة في أكاديمية بايجونغ للسينما. عندما بلغت الأربعين كانت قد أخرجت 12 فيلما وكتبت عشرة كتب خمسة منها

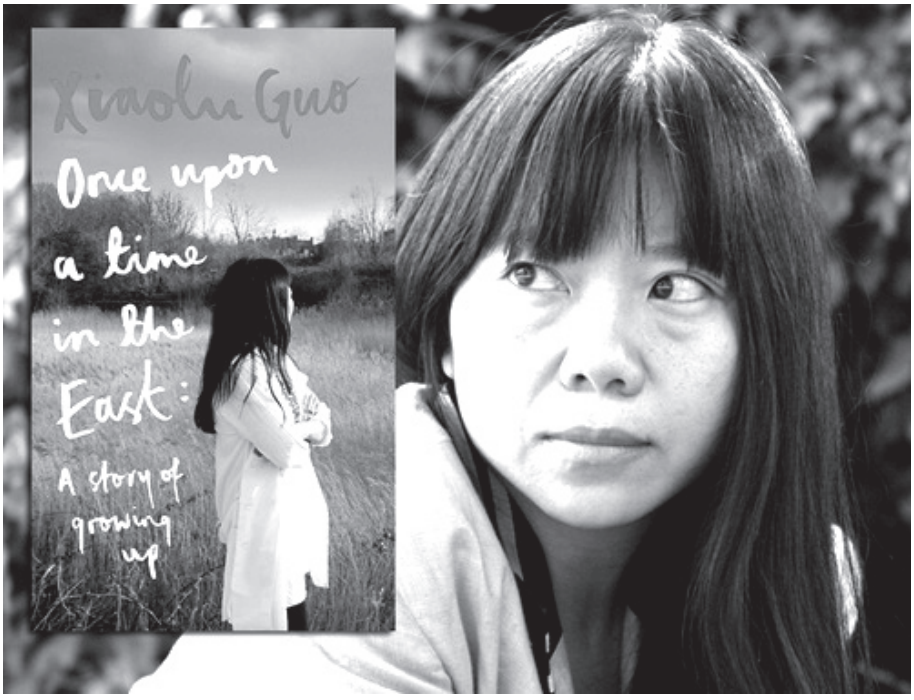

باللغة الإنكليزية وإختارتها مجلة غرانتا كأفضل كاتبة بريطانية شابة.
هذا الكتاب سرد للتحدي الفني المكابر، والقص فيه وسيلة لكسر الصمت. إن مشقات الحياة الجماعية في قرية صيادين صغيرة تخفي وراءها المصائب الفردية. جدتها التي بيعت وهي في الثانية عشرة مقابل بضعة أكياس من الرز لم تستطع تذكر إسمها ناهيك عن التفكير بقيمة حياتها، وجدها كان زوجا مسيئا وصيادا فاشلا نكرة. تنقضي سنوات دراستها الجامعية في أعقاب إحتجاجات ساحة تيانانمين في العام 1989 في مراوغة البوليس الفاسد والرقابة، وعندما وصلت الى لندن في زمالة دراسية وواجهت حقائق الفقر والعزلة أدركت أن طفولتها كما تقول « لا تزال هي موجّه مخيلتي، ومصدر إبداعي، وتفكيري وفهمي... لن أدير ظهري أبدا لصين شبابي».
بخلاف العديد من مذكرات المنفى والهجرة (جردت شياولو من جنسيتها الصينية في العام 2014 لأنها إستلمت جواز سفر بريطانيا) لم تُضْفِ الرومانسية على ماضيها وبالمقابل لم تمجد وطنها الجديد فهي في واقع الحال مثل "يتيمة" مقتلعة من مكانها ثقافيا في أوربا كما كانت في قرية جنوب شرق الصين، وكما في رواياتها، بدايتها المثيرة باللغة الإنكليزية (القاموس الصيني-الإنكليزي المركز للعشاق) ومؤخرا (أنا الصين)، فإن هذه السيرة الذاتية يمكن قراءتها كسرد لسوء تواصل وسط العلاقات الحميمة بنثر مفكك قلق صار طابعا لها.

Once Upon a Time in the East: a Story of Growing Up by Xiaolu Guo is published by Chatto & Windus

ميغان والش/ مجلة ذي نيو ستيتسمان البريطانية

تجارب ثورية:

فرانتز فانون والماركسية
وفلسفة النضال المسلح على الساحة الأفريقية

إن معارك التحرر الوطني وحركات الإستقلال كانت لزمن طويل موضوع نقاش في المنظمات والحلقات اليسارية في الولايات المتحدة، نقاش إتخذ أشكالا مختلفة حسب المرحلة. لقد برزت تعريفات للثورة خارج صيغ الثورة المعروفة أوربيا منذ الستينيات على يد طلبة راديكاليين وهم يراقبون باهتمام الصراعات المسلحة الناشئة في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، ولم يستطع أحد، باستثناء القليل من (اليساريين الجدد) من الفلاسفة والثوار من بينهم جيفارا وكاسترو، أن يبقى ماثلا في الذاكرة الشعبية كما بقي فرانتز فانون (أو فرانز فانون في لفظ آخر-م)، وكتابه الأشهر (المعذبون في الأرض) يعد اليوم دعامة أساسية في الأدبيات اليسارية وحظي تحليله لأثر العنصرية السايكولوجي ضمن سياق كفاح الجزائر لنيل الإستقلال بتطبيقات مطورة اليوم على حالات أخرى. إن الفيلسوف فرانتز فانون (1925 – 1961) المولود في مستعمرة المارتينيك الفرنسية والطبيب النفسي الذي عاش في الجزائر وناضل مع جبهة التحرير الجزائرية كتب عن جانب محدد من مفهوم كارل ماركس عن الإستلاب

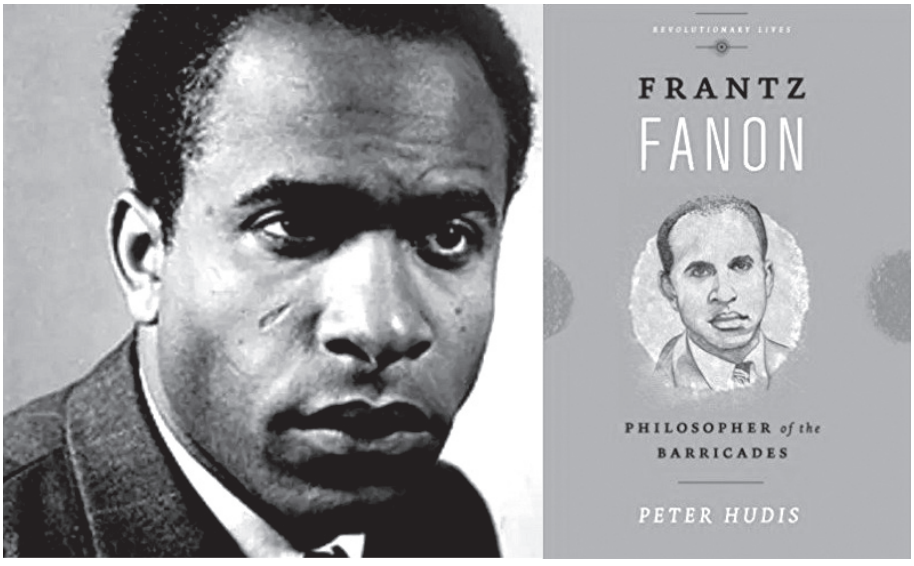

(فرانتز فانون وصورة غلاف الكتاب الصادر حديثا عنه)

ضمن سياقات تحرر السود والقمع الإستعماري والحَيْوَنة العنصرية، وفي حين ركز ماركس على الجوانب الإقتصادية في إستلاب العمال ركز فانون على الجانب السايكولوجي. أخذ من ماركس (مشكلة أساسية) هي إستلاب أو إغتراب العمال عن نشاط عملهم (معاملتهم بوصفهم قيمة نقدية لا أكثر) وطبقها على العنصرية والإستعمار حيث يرى العنصرية التعبير الأتم عن الإستلاب، فوحشية الإستعمار والأقلية البيضاء الحاكمة تصبح قالبا لنقد محدد لصالح التحرر الوطني. العنصرية بالنسبة له، كما يقول بيتر هوديس مؤلف كتاب (فرانتز فانون فيلسوف متاريس القتال)، ليست فقط لدعم السلطة وكسب الأرباح المالية بل و "تحط من قدر الشخصية الإنسانية" بتدميرها الهوية الوطنية من خلال قمع منظم لثقافتها ولغتها وأنماط حياتها، والمقصود بالعنصرية هنا تحديدا عنصرية الإستعمار الفرنسي.

لقد شكل حدث معين طبيعة حياة فانون فمع نهاية الحرب العالمية الثانية كان الناس في جميع أرجاء العالم، خصوصا الأفارقة، يأملون بأن تدخل البشرية عصرا جديدا ويتمنون أن تخفف قوى الحلفاء من طغيانها الإستعماري، لكن السلطات الفرنسية أقدمت على قتل ما بين 30 ألف و 40 ألف جزائري في يوم 8 آيار 1945 أي في اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا إستسلامها بالضبط. يتحدث الكتاب عن سيرة فانون وإنتمائه الى جبهة التحرير وتطبيقاته النظرية والعملية للفكر الماركسي ومعالجته ومساعدته لضحايا القمع الإستعماري وتسلمه للمسؤوليات التنظيمية في الجبهة.

Frantz Fanon: Philosopher of the Barricades

By Peter Hudis

توني بيسينوفسكي/ جريدة بيبلز وولد الأميركية

أدب الرحلات:

مايكوفسكي يكتشف أميركا

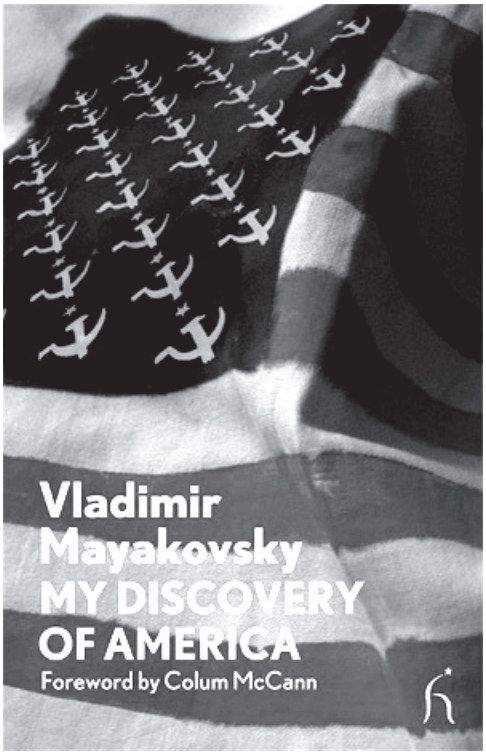

غلاف كتاب مايكوفسكي (إكتشافي لأميركا)

ربما كان فلاديمير مايكوفسكي (1893 –1930) معروفا بأشعاره ومسرحياته وأعماله الدعائية البلشفية في السنوات الأولى للدولة السوفيتية ولكن القارئ سيكتشف جانبا آخر منه بقراءته لكتاب (إكتشافي لأميركا). يستهل مايكوفسكي توثيقه لرحلته بالقول: «لقد أقمت فترة من القصر بحيث لا تسمح لي بالتفصيل الدقيق ومع ذلك فهذه الفترة القصيرة كافية لنقل صورة أمينة عن التنوع». إن وصف مايكوفسكي رحلته لأميركا والتي تضمنت المكسيك وكوبا يتجاوز حدود الولايات المتحدة وهو يلاحظ بسخرية أن الولايات المتحدة التي لا تحتل إلا مساحة محددة من أميركا الشمالية قد سلبت إسم أميركا من البلدان الأميركية الأخرى وإحتكرته لنفسها.

في مقدمته للكتاب يقارن الكاتب آيرلندي الأصل (كولم مكان) بين شعر مايكوفسكي، الذي يعد في بلده مستقبليا، عن مواضيع أميركية وبين أشعار ويتمان وكرين، ولكن قراءته لتعليق مايكوفسكي على البيئة غير المألوفة تذكره بصحافة الغونزو gonzo journalism (كتابة صحفية تعتمد على الانطباعات الشخصية والمصطلح شاع في السبعينيات–م) التي لم تُعرف إلا بعد مايكوفسكي بخمسين سنة تقريبا. بالإضافة الى المواضيع السياسية والاجتماعية برهن الشاعر على ملاحظة دقيقة للقضايا الثقافية، وللميزات المعمارية وقصيدته عن جسر بروكلين موجودة في الكتاب. مدينة شيكاغو بالنسبة له مقارنةً بنيويورك " يمكنها العيش دون صخب"، وبرغم إعجابه بشيكاغو كتب بعد زيارته لساحات الماشية الشهيرة: " الرائحة الخيالية أو الحقيقية لبحر بكامله من الدم المسفوح يجعل رأسك يدور". وقد وصف الولايات المتحدة بقوله "لا يوجد بلد يتباهى دجلا بأنه الأكثر أخلاقية وسموا ومثالية وتقوى كما تتباهى الولايات المتحدة" ويقترح أن يخرج السفراء من واشنطن ليقيموا في وول ستريت ما دامت السلطة الحقيقية هناك. كذلك كتب قبل 15 سنة من وقوع هجوم بيرل هاربر يتنبأ بأن ينافس اليابانيون الأميركيين على الهيمنة، وفي معرض ملاحظته للتحول الصناعي في أميركا كتب: " ستصبح أميركا مركزا ماليا فقط، سمسارا ماليا"، ولم يفته طبعا ملاحظة القمع العنصري " السود الذين إكتووا بالنار يجب أن يبرهنوا أنهم البارود المناسب للثورة". إن أفضل موقف من أميركا العشرينيات المضطربة تلخصه حقيقة أنه لم يبق في الولايات المتحدة سوى ثلاثة أشهر من أشهر الفيزا الستة وحزم حقائبه عائدا الى موسكو.

My Discovery of America, by Vladimir Mayakovsky
Hesperus Press
جوزيف زمرْمان/ جريدة بيبلز وولد الأميركية

سينما وثائقية:

علبة ديدان كونية

بعد أن حقق في إنتهاكات الطفولة في الكنيسة الكاثوليكية، ومذهب العلمولوجيا Scientologie، وويكيليكس يحول الآن صانع الأفلام الحائز على الأوسكار (أليكس جيبني) تركيزه الى الحرب الكومبيوترية وانتشارها السري بفيلمه (أيام الصفر)، والنتيجة فيلم وثائقي مقلق، ومبعث القلق ليس بسبب ما يكشفه بل لحقيقة أن لا أحد مستعد للتعليق على وجود (ستوكسنيت) أو الإعتراف بوجوده، وهذا الستوكسنيت هو فايروس ذاتي الإستنساخ. لم تعترف أية منظمة أو أية دولة بمسؤوليتها عنه حتى ولو كان الإعتقاد السائد أنه قد تم خلقه من قبل الولايات المتحدة وإسرائيل خلال رئاسة بوش بهدف إختراق مشروع الطاقة الإيراني في ناتانز وتدمير أجهزة الطرد المركزي في الوقت التي تبدو فيه

العملية مجرد حادثة، وبالتأكيد تم تحقيق نجاحات ويقال أنه أخر تطوير البرنامج النووي الإيراني. لقد فشلت التغطية على ستوكسنيت عندما إنتشر الى الكومبيوترات في أنحاء العالم في العام 2010 ولوحظ لأول مرة في بيلوروسيا. برغم أن الستوكسنيت هو الآن معلومة عامة فلا أحد يريد التحدث عنه أمام الكاميرا بدءا من خبراء الأمن الى مسؤولي المخابرات الأميركيين مرورا بعملاء الموساد السابقين. أحد أسباب السكوت كما يؤكد الفيلم أن باراك أوباما، خوفا من المقاضاة، إستخدم قانون التجسس لسنة 1917 أكثر من كل الرؤساء السابقين مجتمعين لمقاضاة من يثير الموضوع. لقد أعطانا جيبني بمساعدة التخطيطات البصرية المنبهة والمقابلات مع اللاعبين السابقين والناس وراء الكواليس قصة حقيقية تنافس قصص أيان فيلمنغ وجون لو كار الخيالية. يبين لنا المخرج كيف أن التكتم الذي يحيط بستوكسنيت محكم الى درجة أن حكومة الولايات المتحدة لا تعرف عنه شيئا كثيرا، وقد ألقي الضوء على عبثية الوضع عندما قرعت جرس الإنذار وزارة الأمن الداخلي لأن ستوكسنيت بدأ يهاجم الولايات المتحدة. إن فيلم (أيام الصفر) يظهر أن ستوكسنيت هو قمة جبل الجليد وجزء من برنامج أكبر وأكثر قوة وأكثر خطورة، اسلحة (نيترو زيوس) الكومبيوترية التي تستطيع تجميد الدفاعات الجوية وغلق شبكات الطاقة وتدمير البنى التحتية. لقد إستثمرت الولايات المتحدة أموالا طائلة في مجال القدرات الكومبيوترية والمشكلة تكمن في «أن ما نستطيع فعله لهم يستطيعون فعله لنا الآن»، وبسبب السرية التي تحيط بالحرب الكومبيوترية فلن نعرف حتى يفوت الأوان. في الوقت الذي توجد فيه إتفاقيات دولية تحكم الأسلحة الكيمياوية والبايولوجية والنووية فإنه لا توجد قوانين مماثلة تخص الحرب الكومبيوترية، وفيلم (أيام الصفر) يصلح لأن يكون نقطة إنطلاق لنقاش في غاية الإلحاح حول لماذا الوضع هكذا.

ماريا دوارت/ جريدة مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

سينما:

بمناسبة مئوية ثورة أكتوبر العظمى
من الأفلام التي جعلت ثورة أكتوبر خلفية لها
فيلم (الحمر) لوارن بيتي

(لقطة من فيلم"الحمر"
وفيها يظهر من اليمين وارن بيتي ودايان كيتون وجاك نيكلسون)

لكي يضع (وارن بيتي) مؤلف وممثل ومخرج فيلم (الحَمر) Reds قصة فيلمه في السياق التاريخي إستضاف في فيلمه أكثر من عشرين شاهدا على الأحداث يظهر بين الحين والآخر واحد منهم ليسرد ما يتذكره (أنتج الفيلم في العام 1980وعرض في العام 1981). كان ظهور فيلم (الحمر) حدثا غير عادي، فيلم مغامرة رومانسية، وهو الأفضل منذ فيلم ديفيد لين (لورانس العرب)، مثلما هو فيلم تجاري بحس نادر للتاريخ.

إن النقطة المركزية التي ركز عليها وارن بيتي في السيناريو الذي كتبه مع تريفور غريفث هي العلاقة الغرامية بين الصحفي الراديكالي الأميركي جون رید ولويز بريانت زوجة طبيب الأسنان التي هجرت زوجها ومعتقدات الطبقة الوسطى في العام 1915 لتتبع جون رید وتوقها للتحرر. يبدأ الفيلم بمغامرات جون وهو يغطي معارك الثائر المكسيكي بانشو فيلا في العام 1913 ثم يأخذنا الى حيث أسس ولويز مع الكاتب المسرحي يوجين أونيل

وآخرين فرقة مسرحية وحيث مثلت لويز الدور الرئيس في مسرحية لأونيل بعنوان (العطش) وكانت في تمثيلها شاردة الذهن فقال لها أونيل « أتمنى أن لا تدخني أثناء البروفات إذ لا يبدو عليك أنك تبحثين عن روحك بل عن منفضة سجائر» ، ويأخذنا الفيلم الى فرنسا قبيل دخول الولايات المتحدة الحرب ثم الى روسيا حيث يغطي جون ولويز ثورة البلاشفة الظافرة في العام 1917.

شخصيتان هما مركز أحداث الفيلم الذي يبلغ طوله ثلاث ساعات، شخصية جون ريد الذي جعل من الحروب والثورات مادته الخام، ولكن إلتزامه بالتغير الإجتماعي والسياسي قاده الى المجازفة بكل شيء لصالح الحركة الشيوعية العالمية، وشخصية لويز بريانت الرومانسية التي لا شفاء لرومانسيتها والتي، في مجرى إرتباطها بجون، أصبحت بطلة مصيرها الفاجع (راجع متابعتنا عنها في العدد 386 – م).

كان وارن بيتي رائعا في دور جون ريد المتحمس مثلما كانت دايان كيتون بدور لويز بريانت، جميلة ومعتدة بنفسها ومرحة ومزاجية. أما جاك نيكلسون فقد جسد بإتقان دور أونيل الشاب الذي إرتبط لفترة بعلاقة غرامية مع لويز، والروائي جيرزي كوزينسكي الذي كان جيدا جدا بدور زينوفيف البلشفي الذي كان له بالغ الأثر على جون ريد، وحشد من خيرة الممثلين أدوا شخصيات عايشت جون ولويز كصديقه وناشره ماكس إيستمان وغيره. المشاهد الملحمية التي صورت في الواقع في فنلندا وإسبانيا مدهشة، ولقد كان إنتاج هذا الفيلم المكلف فلتة من فلتات هوليوود، في وقت يوجد فيه أكثر من مبرر للحذر، إذ كانت شركة (يونايتد أرتيستس) لا تزال تنوء بتكاليف فيلم كوبولا (القيامة الآن) وإستوديو (هيفنز غيت يونيفيرسال) لم يخرج من صدمة فشل فيلم (المشعوذ) 1977 وفيلم سبيلبيرغ (1941) الباهظ. غير أن فيلمي (الحمر) لوارن بيتي و(الثور الهائج) لمارتن سكورسيزي هما الإستثناء، ففيما يخص (الحمر) لم يكن متوقعا أن يقبل أستوديو بتحمل تكاليف فيلم عن اليسار الأميركي وثورة أكتوبر ولكن وارن بيتي كان قد حقق للتو فوزا كبيرا، ماليا وفنيا، بفيلم (السماء يمكنها أن تنتظر) وقد قبلت (بارمونت برودكشن) عن طيب خاطر خوض تجربة أخرى مع وارن بيتي.

فنسنت كانبي/ جريدة ذي نيويورك تايمز

دار رائدة في نشر المطبوعات الثورية

(بعض المطبوعات التي كانت تباع بأسعار مناسبة أصدرتها الدارمنذ سنة 1924 وتعرف الملايين من الأميركيين من خلالها على الماركسية)

(كتب لمساعدتك في فهم، وتغيير، العالم) هذا هو شعار دار (إنترناشنال ببلشرز) I–ternational Publishers ولمدة 90 عاما أنتجت الشركة ووزعت عناوين غايتها إنجاز الهدف الأسمى. أسسها في العام 1924 ألكسندر تراكتنبيرغ وهو لاجئ جاء الى أميركا هاربا من برامج قيصر روسيا المعادية لليهود وقد صنعت الشركة لها إسما خلال سنواتها الأولى كرائدة في طبع الأدبيات الماركسية ونقد الرأسمالية الأميركية والتفسير الراديكالي للتاريخ الأميركي، والشركة تستعد الآن، مع تزايد شعبية الفكر الإشتراكي وتصاعد المقاومة لترامب، لإطلاق موقعها الألكتروني الذي يجد فيه القارئ جميع عناوين الكتب الصادرة التي تلقى إقبالا ليس له مثيل منذ العصر الذهبي للمطبوعات الماركسية، في الوقت الذي يبدو فيه أن هذه المطبوعات لم تفقد راهنيتها كما يقول مسؤول النشر: " في المناخ السياسي الحالي تشتد الحاجة للتعلم من تجارب الماضي، من أولئك الذين واجهوا تجارب مماثلة للتي نواجهها"

لقد عرفت الدار منذ زمن طويل بوصفها مصدرا للحكمة البديلة، وكانت أول من طبع كتب لينين وانتونيو غرامشي باللغة الإنكليزية، وساعدت في جلب

الفكر الإشتراكي لجمهور الطبقة العاملة في الأربعينيات والخمسينيات بطبعها لسلسلة (مكتبة لينين الصغيرة) وتقدم حتى اليوم طبعات لماركس وأنجلز، ومن بين أكثر الكتب مبيعا الآن (البيان الشيوعي) و(الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية).

تأمل الدار بموقعها الألكتروني الجديد أن تصل الى كل القراء بيسر لتزودهم بالكتب التي يرغبون بقراءتها من قائمة الكتب التي صدرت خلال ما يقارب القرن من الزمن، وفي حين أن الدار معروفة بطبعاتها رخيصة السعر فإنها مشهورة أيضا بطبعاتها الأنيقة الضخمة مثل أعمال ماركس وأنجلز الكاملة في 50 مجلدا.

تعاونت منذ 1975 وحتى 2004 مع دار التقدم في موسكو ودار لورنس وويشارت في بريطانيا في مشروع طموح لجمع كل الكتابات والمراسلات المعروفة للآباء المؤسسين للشيوعية في مجموعة واحدة أصبحت التحفة المركزية لأية مكتبة ماركسية في العالم. تلقى إهتماما مماثلا الكتابات الجديدة في النظرية والتاريخ والديمقراطية مثل كتاب دانيال روبين (هل تدوم الرأسمالية؟) و(تاريخ الحركة العمالية في الولايات المتحدة) للمؤرخ فيليب س. فونر في عشرة مجلدات وكتاب (ماركس وانجلز يكتبان عن الحرب الأهلية الأميركية) للمؤرخ أندرو زمرمان، وكتب أنجيلا ديفيس وفريدريك دوغلاس وغيرهم. بالإضافة الى الإصدارات التي تعالج المستجدات العالمية كالتي تتعلق بالمناخ وإيران. وتستعد الدار لإصدار (الثورة البلشفية) للمؤرخ فونر بالتزامن مع الذكرى المئوية لثورة أكتوبر.

س. ج. أتكينز/ جريدة بيبلز وولد، جريدة الحزب الشيوعي الأميركي

برنامج إحتفالي:

عشرة أفلام هزت العالم

ملصق فيلم (المدرعة بوتمكين) 1925

في يوم 24 شباط الماضي أعلنت أسماء الفائزين بجائزة مهرجان بروجي العالمي للسينما التقدمية في الولايات المتحدة، وللإحتفاء بثورة شباط 1917 (الثورة الأولى قبل أكتوبر) كانت مشاهد الإفتتاح مكونة من رائعة سيرجي آيزنشتاين السينمائية (أكتوبر: عشرة أيام هزت العالم) 1927 التي تصور إسقاط نظام القيصر. يجري هذه السنة عرض عشرة أفلام من الأفلام السوفيتية الرائدة، كل شهر فيلم، ويعرض آخر الأفلام العشرة في يوم مئوية أكتوبر بالضبط.

لقطة من فيلم (الأم) 1926

عرض في شباط فيلم (الأم) 1926 للمخرج فيسفولود بودوفكين والمأخوذ عن رواية مكسيم غوركي بالعنوان نفسه حول ثورة 1905 ووعي إمرأة متوسطة العمر من الطبقة العاملة تلتحق بإبنها في نضاله.

في 24 آذار يعرض فيلم (المدرعة بوتمكين) عن قصة حقيقية يسرد فيها آيزنشتاين قصة تمرد البحارة الذين رفضوا أكل لحم فاسد وإضراب العمال المساند لهم خلال ثورة 1905 ويعتبر هذا الفيلم عالميا أعظم فيلم سوفييتي حيث يصور الوحشية القيصرية على درجات أوديسا فيما تعبر ثيمة التضامن الظافر لدى آيزنشتاين عن جوهر الثورات الروسية الثلاث (1905، شباط 1917، أكتوبر 1917).

في 28 نيسان يعرض فيلم (سقوط سلالة رومانوف) 1927 الذي وظف فيه إيستر شوب أشرطة أرشيفية تعود الى الأعوام 1913-1917 وقد أنتج الفيلم وقتئذ للإحتفال بالذكرى العاشرة للثورة، ويظهر فيه القيصر وزوجته وكيرينسكي ولينين.

في 26 آيار يعرض فيلم (الإضراب) 1926 وهو أول فيلم كامل لآيزنشتاين يصور إضراب العمال الروس سنة 1903 . هذا الفيلم الصامت مشهور بالتقطيعات الخيالية في النهاية والتي تصور وحشية النظام.

في 23 حزيران يعرض فيلم (الترسانة) 1929 للمخرج ألكسندر دوفزنكو ويتحدث عن إنتفاضة شباط 1918 في مخازن كييف لمساندة الجيش الأحمر، وقبل إبتكار شخصية سوبرمان بعشر سنوات في الولايات المتحدة يضفي دوفزنكو قدرات أسطورية خارقة على المنتفضين وشعارهم (هنا شيء لا يمكنكم قتله!).

في 28 تموز يعرض فيلم (عاصفة على

آسيا) 1928 للمخرج بودوفكين وهو فيلم معاد للإمبريالية تدور أحداثه في منغوليا في العام 1918 حيث يقود الإنتفاضة ضد المستعمرين البريطانيين أحد أحفاد جنكيز خان (في الحقيقة أن البريطانيين كانوا في التبت وسيبيريا وهذا الفيلم يشبه أفلام رعاة البقر والأفلام الهندية وبمساعدة بسيطة من الأم الطبيعة ينتصر أهل البلد).

في 25 آب يعرض فيلم (الأرض) 1930 للمخرج دوفزينكو وهو عبارة عن أنشودة صورية رعوية في حب أوكرانيا والفلاحين فيما يجري تحديث البلد وبناء المزارع الجماعية ويقاتل الفلاحون الملاكين الزراعيين.

في 22 أيلول عرض خاص لفيلم (حمى الشطرنج) الفكاهي للمخرج بودوفكين، وفيلم (الرجل الذي يحمل كاميرا) 1929 الطليعي الوثائقي للمخرج دزيغا فيرتوف وهو فيلم يضاهي الأفلام التعبيرية الألمانية بمؤثرات خاصة وخدع بصرية.

في 27 تشرين الأول يعرض فيلم (نهاية سانت بطرسبورغ) 1927 للمخرج بودوفكين الذي يتناول الأحداث التي أدت الى إسقاط نظام كيرينسكي من خلال تصوير قصة إكتساب فلاح فقير للوعي وإنخراطه في العمل الثوري، وقد كانت المشاهد التي تصور فظائع الحرب العالمية الأولى من أجمل المشاهد التي تم تصويرها في تاريخ السينما.

في السابع من تشرين الثاني يعرض فيلم آيزنشتاين (أكتوبر) إذ يصادف ذلك اليوم بالضبط مئوية ثورة أكتوبر الإشتراكية العظمى ، وكانت حكومة الثورة قد كلفت في العام 1927 آيزنشتاين بتأليف وإخراج فيلم بمناسبة الذكرى العاشرة للثورة فأخرج فيلم (أكتوبر: عشرة أيام هزت العالم) الذي يصور أحداث سنة 1917 المتقلبة وإسقاط النظام القيصري وعودة لينين الى روسيا وإسقاط حكومة كيرينسكي وتكون الخاتمة هي المشاهد العظيمة لإقتحام قصر الشتاء من قبل العمال والفلاحين والجنود، البطل الجماعي، لتكتمل المأثرة التي سماها جون ريد (عشرة أيام هزت العالم).

إيد رامبل/ ببيبلز وولد، جريدة الحزب الشيوعي الأميركي

معرض:

ثورة أكتوبر والفن الطليعي

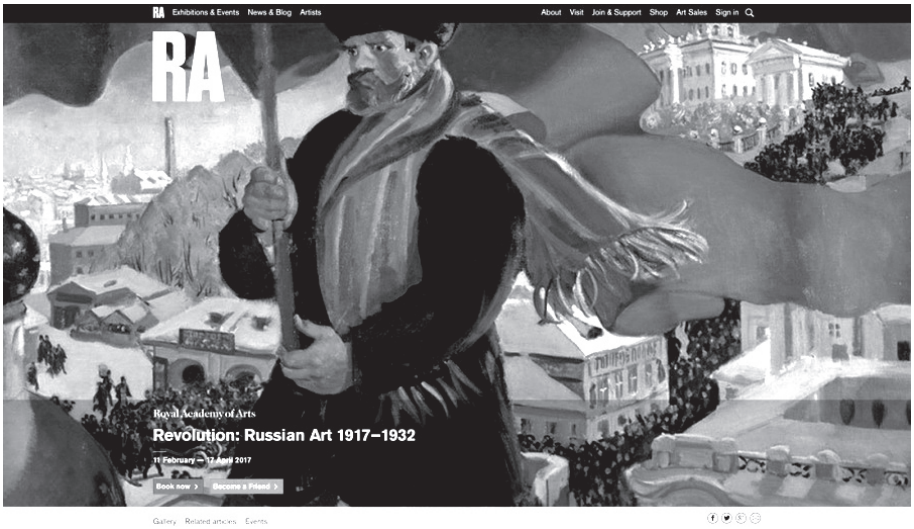

بوستر المعرض لوحة (البلشفي) للرسام بوريس كوستوديف، سنة 1920، زيت، 140-101 سم

في كانون الثاني 1918 كانت جمهورية روسيا السوفيتية أول دولة في العالم تدعم الفن الطليعي رسميا، والفنانون الذين تفجرت مواهبهم بآيديولوجيا الثورة الإشتراكية نبذوا الأشكال المبهرجة والتقنيات البالية للنظام القيصري ليعتنقوا التكنولوجيا الحديثة. أدخلوا الأشكال الصناعية في الفن والتصميم والعمارة والأفلام التي تبعث التفاؤل وتروج للحداثة. التشذيبات الديناميكية للطليعة واللقطات المقربة السريعة والأشكال الهندسية تعابير عن حركة الثورة، من تصميمات ليوبوف بوبوفا الى أفلام دزيغا فيرتوف، سحر الآلات الطائرة وأنوار الكهربة الباهرة تبث الأمل بالتقدم الإجتماعي. لقد بقي الفن التمثيلي السوفيتي لأعوام العشرينيات والثلاثينيات معروفا قليلا في الغرب ويأتي هذا المعرض ليعيد الإعتبار لهذا الفن بعرضه الفن والتصميم السوفيتيين متعددي الجوانب، حيث نرى رسوم ألكسندر دينيكا التاريخية عن الدفاع عن بيتروغراد التي تتميز ببساطة التكييف للشكل والحيز الى اسلوب واضح ولكنه معاصر.

الدفاع عن بيتروغراد للرسام ألكسندر دينيكا، 1927

فيما نرى من جانب آخر الواقعية الأكاديمية كالتي تمثلها لوحة إسحاق برودسكي (لينين في سمولني).

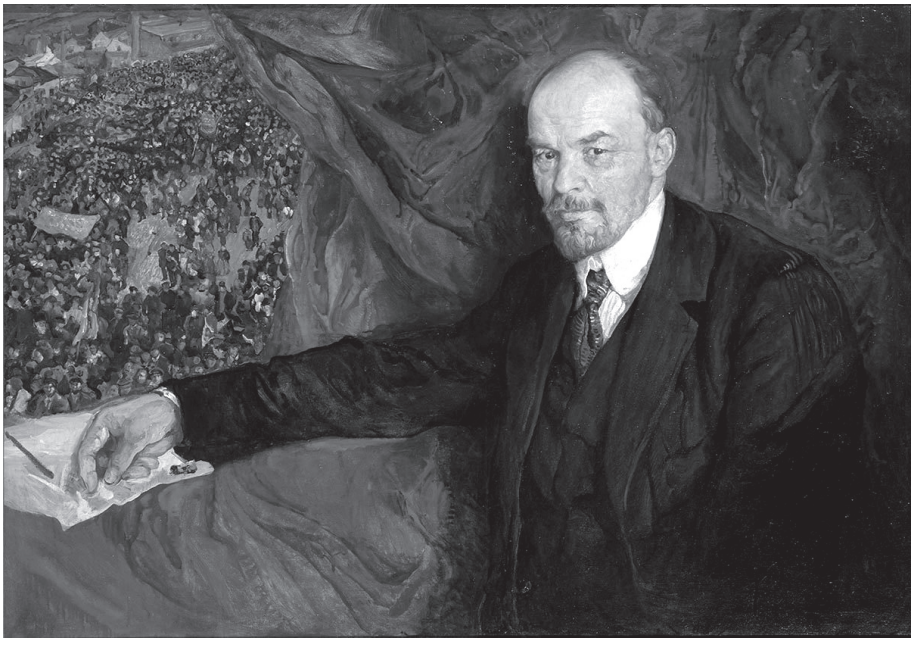

(لينين في سمولني) للرسام إسحاق برودسكي، سنة 1919، زيت، 135-90 سم

ولكن للأسف بدلا من أن يشرح القائمون على المعرض الجوانب الإبداعية لأعمال هؤلاء الفنانين فإنهم قدموها للزائرين بوصفها آخر نفس من أنفاس الحرية الفنية بالتركيز على إعادة عرض أعمال من معرض أقيم في العام 1932، ولم تُذكر رابطة الفنانين لروسيا الثورية التي شكلت في العام 1922 لتنشط في الدعوة الى فن تقدمي، ولم يُذكر بيانها أيضا، مع أنها ضمت فنانين كبارا مثل دينيكا وبرودسكي ولينتولوف وبوريس غريغوريف. النصوص الجدارية والتعليقات في المعرض تبرز قساوة وفشل وصعوبات الثورة دون كلمة مديح واحدة لإنجازاتها ولا شرح لما واجهته من ظروف صعبة فاقم صعوباتها التمرد والتدخل العسكري الأجنبي، والأسوأ من هذا أن طريقة عرض الأعمال تعطي إنطباعا ليس في صالح الثورة. كمثال على ذلك لوحة (أرض الفلاحين) الحزينة للرسام بوريس غريغوريف التي عرضت مع إيحاء بأنها تعبر عن خيبة أمل الفلاحين بالعهد الجديد في حين أن اللوحة تعود الى العام 1917 وتمثل حياة الفلاحين في ظل النظام القيصري وليس في عهد الجمعيات الفلاحية الإشتراكية.

يوجد نص جداري آخر يقول لنا بأن الرسامين كانوا يحنون الى جمال وسحر روسيا القديمة التي ضاعت تحت الأعقاب البروليتارية ويعرض لوحة مارك شاغال (نزهة) التي لا تمثل الحنين الى أيام القياصرة بأية حال وقد رسمت في العام 1918-1917.

إجمالا فإن هذا المعرض هو هجوم متعمد على الثورة البلشفية وكأنه من تنظيم أحفاد المهاجرين الروس الذين جردتهم الثورة من أملاكهم وهم اليوم يندبون فقدانهم لمجوهراتهم وأراضيهم وخدمهم. إذهب عزيزي القارئ لتشاهد معرض التصميم والفن الرائعين ولكن تسلح بالحذر من الدس والتلفيق.

Royal Academy's exhibition Revolution: Russian Art 1917-1932

كريستين لندي/ جريدة مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

كوكب جديد للرسام كونستاتين يوون، سنة 1921

مطبوعات وصلتنا :

- جاسم الحلفي، الحركات الاجتماعية في العراق، دار سطور للنشر والتوزيع، شارع المتنبي – بغداد2017.
- ابراهيم الحريري، الانقلاب (قصة)، دار الرواد المزدهرة – بغداد 2017.
- ابراهيم الحريري، 80 الصبي الشيوعي (شهادات وكتابات)، دار الرواد المزدهرة – بغداد 2017.
- ياسين طه حافظ، يوميات رامبرانت، دار المدى– بغداد2016.
- ياسين طه حافظ، حكمة البحر، دار المدى– بغداد 2017.
- جودت جالي، فك الحزن (قصص) – دار ضفاف للطباعة والنشروالتوزيع، بغداد – شارع المتنبي 2017.
- حسن الشنون، سوق الشيوخ مسلة الشعر والانسان – شركة المارد – النجف الأشرف 2016.
- عبد الرضا اللامي، تاريخ قضاء الصويرة(ج 1)، مكتب ديزاين للطباعة – كركوك 2016.
- رسول حمزاتوف (مختارات شعرية) ترجمة د. عقيل يحيى حسن – مكتبة المعرفة، بغداد 2016.
- د.ماهر جبار الخليلي، مهاتير محمد ودوره في تحديث ماليزيا – مؤسسة ثائر العصامي،بغداد 2016.
- مسرحيات طه سالم (المجلد الثالث) – مكتبة فضائات الفن – بغداد 2016.
- عبد المسيح سلمان يلدا سوور، تاريخ الحزب الشيوعي في عينكاوة – اربيل 2016.
- قيس مجيد علي، شعراء أمام النقد – مؤسسة ثائر العصامي، بغداد 2016.
- مجلة الأديب العراقي، العدد 14 شتاء 2017.،تصدر عن الاتحاد العام للآدباء والكتاب في العراق – بغداد .
- مجلة الحوار، العدد 54، نيسان 2017 – السنة الحادية عشرة .تصدر عن معهد التقدم للسياسات الانمائية .
- مجلة الاقلام، العدد 4 /تشرين الأول 2016 – تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد.
- مجلة المورد، السنة 43، العدد 4،2016 – تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد.
- مجلة الثقافة الأجنبية، السنة 37، العدد 4،2016 – تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد .
- مجلة الثقافة الأجنبية، السنة 37، العدد –4،2016 تصدر عن وزارة الثقافة – بغداد.